رفع المقالات بدر حلب
رفع معرفات الأعداد شعبان الفرماوي
ربط وترتيب وفهرسة الغازي
غفر الله لهم وللمسلمين

المؤرخ العربي

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

العدد الرابع عشر

١٤

رفع المقالات بدر حلب
رفع معرفات الأعداد شعبان الفرماوي
ربط وترتيب وفهرسة الغازي
غفر الله لهم وللمسلمين

مجلة

المؤرخ العربي

رئيس التحرير
الدكتور حسين أمين
الأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب

العدد الرابع عشر

١٩٨٠

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

رفع المقالات بدر حلب
رفع معرفات الأعداد شعبان الفرماوي
ربط وترتيب وفهرسة الغازي
غفر الله لهم وللمسلمين

محتويات العدد الرابع عشر المجلة

رفع المقالات بدر حلب
رفع معرفات الأعداد شعبان الفرماوي
ربط وترتيب وفهرسة الغازي
غفر الله لهم وللمسلمين

اللجنة الاستشارية

١ ــ **الدكتور حسين امين**/الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب رئيس تحرير المجلة

٢ ــ **الدكتور مختار العبادي** / استاذ في قسم التاريخ ــ الاسكندرية

٣ ــ **الدكتور يوسف فضل** / مدير معهد الدراسات الافريقية ــ الخرطوم

٤ ــ **الدكتور عبد الامير محمد امين** / استاذ في قسم التاريخ ــ بغداد

٥ ــ **الدكتور محمد زنيبر** / رئيس قسم التاريخ ــ جامعة محمد الخامس

٦ ــ **الدكتور عبد الكريم غرايبة** / وكيل الجامعة الاردنية

٧ ــ **الدكتور عبد القادر زبادية** / رئيس قسم التاريخ ــ جامعة الجزائر

٨ ــ **الاستاذ ابراهيم البغلي** / مدير الآثار والمتاحف ــ الكويت

٩ ــ **الاستاذ شايف عبده سعيد** / رئيس قسم التاريخ ــ جامعة عدن

١٠ ــ **الدكتور عبد المالك خيف التميمي** / قسم التاريخ ــ جامعة الكويت

١١ ــ **الاستاذ سالم الشيباني** / وكيل جامعة قاريونس ــ بنغازي

١٢ ــ **الدكتور عبدالله يونس الشبل** / امين عام جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ــ الرياض

السيد صباح غزال رحيم السامرائي / سكرتير التحرير الفني

السيد اسماعيل عبد العزيز البياتي / سكرتير التحرير الاداري

رفع المقالات بدر حلب
رفع معرفات الأعداد شعبان الفرماوي
ربط وترتيب وفهرسة الغازي
غفر الله لهم وللمسلمين

مقدّمة

بكل فخر واعتزاز يسعدنا جدا ان نقدم للقارىء الكريم العدد الرابع عشر من مجلته العلمية ـ المؤرخ العربي ـ وهي صورة حية للفكر التاريخي العربي ورمزا لوحدة المؤرخين العرب والتي أصبحت محط عناية الاوساط الثقافية في الوطن العربي والعالم أجمع ومنتدى علميا نشيطا لكافة المثقفين العرب .

ان هذه المجلة والتي يسهم في اعدادها وتحريرها نخبة من المؤرخين والباحثين العرب ذوي سمعة علمية في ميادين تخصصهم تعطي الدليل على التزام اتحاد المؤرخين العرب بخطه الواضح الهادف وتفاعله مع المؤرخين تفاعلا ثقافيا لتحقيق أهدافهم العلمية النبيلة .

تحية وفاء وتقدير الى الجهود المخلصة التي يبذلها المؤرخون والباحثون العرب في اخراج مجلتهم في اطارها الفكري السامي وتضافر اقلامهم المبدعة لابرازها في سمتها الاكاديمية العالية لتحقيق كامل اهدافنا من اجل الحفاظ على تراثنا وكتابة تاريخ امتنا بالقلم النزيه وبالروح الصادقة وبالصفة العلمية .

والله ولي التوفيق

الدكتور حسين امين

الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب

رفع المقالات بدر حلب
رفع معرفات الأعداد شعبان الفرماوي
ربط وترتيب وفهرسة الغازي
غفر الله لهم وللمسلمين

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تبادل التأثيرات الحضارية بين مصر والعراق في العصور الإسلامية

الدكتور حسين أمين
الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب

شهدت الانسانية بزوغ شمس الحضارة العربية في العصور الاسلامية عامة وفي العصر العباسي بخاصة ، تلك الحضارة التي شملت مجالات واسعة في ميادين الثقافة والعلوم والفنون والاجتماع وحيث سادت بين الحواضر العربية علاقات نابعة من الروابط الاصيلة الاجتماعية والدينية والسياسية ، تزيد في تلك العلاقات القوة والضعف عوامل وظروف تاريخية مختلفة ، وكانت لتلك العلاقات نتائج ذات اثر واضح في تطور مختلف مظاهر الحياة العربية الاسلامية بوجه خاص والتقدم الانساني بوجه عام ولعل من ابرز وأوضح تلك الصلات والعلاقات الثقافية التي قامت وبرزت بين القطرين العربيين الاسلاميين الخالدين العراق ومصر .

من المعروف تاريخيا ان العراق ومصر فتحا زمن الخليفة عمر بن الخطاب (ص) وحيث شيدت البصرة والكوفة والفسطاط تلك الامصار العربية الاسلامية الخالدةوالتي لعبت دورا مهمافيتاريخ الثقافة والسياسة

والاجتماع في العصور الاسلامية وكان لها دورها البارز في أبرزالعلاقات وتبادل التأثيرات التاريخية بين القطرين الاسلاميين، وكـان ما يطرأ مـن وضع سياسي في الكوفة كانت اصداؤه المؤثرات واضحة في الفسطاط وما تبرز من فكرة علمية في مسجد البصرة كانت اجـراء مناقشاتهـا ومناظراتها قائمة في مسجد الفسطاط .

في السنوات الاولى من قيام الدولة العباسية بدأ بانشـاء بغداد سنة ١٤٥ هـ ٧٦٣ م وكمل بناؤها سنة ١٤٩ هـ واصبحت من اشهر عواصم الدنيا وابهاها في القرون الوسطى وانتشرت في ارجائها المساجد العامرة والمدارس الكبيرة والقصور المنيفة والحدائق الغناء وصارت كعبة القصاد من رواد العلم والادب والفن ، وظلت كذلك حاملة مشعل حضارة العرب والمسلمين ما يزيد على القرنين من الزمان ، الى ان شيد القائد المظفـر جوهر الصقلي المدينة المعزية ـ عاصمة الفاطميين والتي سميت فيما بعد بالقاهرةواخذتفي النمو مبلغا كبيرا وفي الاتساعحدا شاسعا وتسامتفيها المباني وانتشرت في ارجائهـا المساجد المباركـة ودور العلم المشهـورة والرياض ــ والبساتين والدور والقصور ، كما اصبحت مطمع انظـار الادباء والعلماء وحملت هي الاخرى مشعلا للعلم ظل منيرا يهتدي اليه كل طالب للعلم والادب .

وشهدت القرون الوسطى علاقات وثيقة بين بغداد عاصمة العباسيين والقاهرة المعزية عاصمة الفاطميين ، وكان من ابرز مظاهر تلك العلاقات ما ساد من روابط ثقافية بين هاتين المدينتين الخالدتين المجيدتين ، وهنـا في بحثي هذا ارجو ان اوفق الى تحقيق ما يجيش في صدري فأصـل الى الحقائق التاريخية التي تساعدني على ابراز عوامل تلك العـلاقات الثقافية واهم نتائجها التاريخية ان المتتبع لتاريخ المركزيـن الحضاريين

الاصيلين ، وادي النيل ووادي الرافدين يجد هنالك في قديم الزمان علاقات سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية سحيقة في القدم ، وقد تبادل هذان المركزان عوامل الحضارة اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا ، واستمرت تلك العلاقات في مسيرة هذين القطرين التاريخية تؤثر فيها العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية فتزويدهما جذبا وطردا من حيث شدة فعل تلك العوامل وضعفها ، وبذلك خضعت تلك الصلات بمجموعها الى الظروف ودرجة فعالياتها ، ومن الجدير بالقول هنا ان التأثيرات الحضارية عموما والثقافية بشكل خاص كانت على قوتها وشدتها في طواريء الوركاء وجهدة نصر ، حيث برزت التأثيرات الحضارية العراقية في العمارة المصرية القديمة كما انتشرت الاختام الاسطوانية التي استعملها القدامى وارجع ان تلك التأثيرات انتقلت بواسطة التجارة. وبالطبع فان الشعبين العريقين تبادلا التأثيرات الحضارية في العصور القديمه وكانا من اكبر العوامل في نشر مظاهر الحضارة الانسانية في تلك العهود .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الا ان اوضح ماتم من العلاقات بين الشعبين العراقي والمصري هي تلك التي قامت في العصور الاسلامية ، والتي تميزت بالفتوح العربية الاسلامية وبوحدة العقيدة والفكر ولا غرور فان العقيدة والفكر ، من اسس التكوين الثقافي لاي امة من الامم وركيزة التربية القومية لاي شعب من الشعوب ، والنهضة العربية الاسلامية التي انبثقت من جزيرة العرب بزعامة سيدنا محمد (ص) والتي بشرت بتحرير الانسان العربي من براثن الذل والعبودية اعتمدت قاعدة لتوحيد التفكير الانساني على اساس وحدة الدين والعدالة الاجتماعية ، وبفتح العراق ومصر واضواء كل منهما تحت راية الاسلام ومعنى ذلك وحدة الفكر الانساني المنبعثة

من روح الدعوة السامية وقد سادت هاتين المنطقتين العربيتين وانتشرت فيهما مظاهر الاسلام ، ففي العراق شيد المسلمون مسجد الكوفة الخالد وفي مصر مسجد ــ الفسطاط المجيد ، وقد تنقل الصحابة والتابعون الكرام بين الكوفة والفسطاط وهم في تلك التنقلات يحملون معهم أفكار مصر الاسلامية الى العراق العربي الاسلامي فانتقل الولاة والقضاة والقادة والتجار بين هذين القطرين العربيين ومعهم عوامل الثقافة العربية الاسلامية .

ولعل ابرز مثل لهذه الرحلات الثقافية رحلة الامام الشافعي الى المدينة الخالدة بغداد سنة ١٩٥ حيث اقام بها سنتين وخرج الى مكة ثم عاد الى بغداد سنة ١٩٨ حيث اقام بها شهرا ، ثم خرج الى مصر حيث توفي سنة ٢٠٤ هـ . وفي هذه الفترة التي تعتبر من اروع فترات الحضارة الاسلامية حيث اتسعت ميادينها وازدهرت فروعها ونضجت الفنون والاداب والعلوم ، وتحققت للثقافة الانسانية أسمى ما تصبو اليه النفوس ، فقامت بين المدينتين الخالدتين القاهرة وبغداد علاقات ثقافية رائعة .

ولعل من ابرز العلاقات الثقافية التي سادت بين بغداد ومصر انتقال التأثير الجامع العراقي الى مصر ، واوضح الشواهد لذلك التاثير الجامع الطولوني ، والذي شيده احمد بن طولون المولود ببغداد سنة ٢٢٠ هـ . وترعرع في سامراء وكان والده من المقربين الى الخليفة العباسي المتوكل المقتول سنة ٣٤٧ هـ . وفي سنة ٢٥٢ تولى ابن طولون امر مصر ، ولما كان ابن طولون قد نشأ في سامراء وعاصر جامعها الكبير ذا المأذنة الملوية « الحلزونية » فنقل هذا الطراز من البناء الى مصر وقد لعب هذا المسجد دوره العظيم في بعث وتطوير الثقافة الاسلامية ولم يقتصر هذا

الجامع على تدريس العلوم الدينية واللغوية « بل ان القراءات والطب والميقات قد ورست فيه [1] .

وانتقل الى مصر من بغداد في هذه الفترة عدد كبير من العلماء ومن اشهرهم العالم المفسر والمؤرخ والفقيه ابو جعفر محمد بن جرير الطبري والفقيه الشافعي الكبير وامام عصره في الفتوى والتدريس ، ابو اسحق ابراهيم المروزي وقد صنف كتبا عديدة وبقي في بغداد مدة يدرس ويفتي ، ثم ارتحل الى مصر فأدركه آجله بها فتوفي سنة اربعين وثلثمائة [2] ، وكذلك رحل الى مصر من بغداد ابو الحسن محمد بن علي الماسرجسي الشافعي ، وكان من اعرف علماء الشافعية في اصول المذهب في خراسان وسمع بمصر من اصحاب المزني ويونس بن عبد الاعلى ثم عاد بعد مدة الى بغداد وتوفي سنة ٣٨٤ هـ [3] .

وفي سنة ٣٥٨ هـ شيدت مدينة القاهرة الخالدة فجاءت غاية في الحسن وهي اعظم من ان توصف وشهرتها تغني عن وصفها ، واسمها الخالد جدير حقا بما اقترن بها من عزة وقوة ومنعة ، وانتشرت في هذه المدينة المساجد العامرة ودور العلم الكبيرة والمدارس الكثيرة ، واصبحت كعبة القصاد ومحط انظار العلماء وطلاب العلم ومهبط التجار واصحاب الحرف والفنون . ومع التطور العظيم الذي أصابته مدينة بغداد والازدهار الكبير الذي بلغته مدينة القاهرة المعزية نمت وازدهرت علاقات وثيقة بين هاتين الحاضرتين الاسلاميتين ، كانت سداها الثقافة العربية الاسلامية

---

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٨ .
(٢) ابن خلكان : ج ١ ص ٤ .
(٣) المرجع السابق ج ٣ ص ٣٤٠ .

ولحمتها الاداب والعلوم والفنون الانسانية الخلاقة المبدعة .

وكانت بغداد والقاهرة في القرون الوسطى مركزين عظيمين للاداب والعلوم والفنون وموئل العلماء والادباء والافذاذ ، فقد تجمعت في بغداد ثقافه الشرق بأصالتها وعمقهـا وتنوع موضوعاتهـا واحتضنت القاهـرة ثقافة الأسلام مع مزاج من الثقافة العربية من التراث اليوناني والروماني، المعروف بسعه ميادينه في صنوف العلم والمعرفة ، فسار طلبـة العلـم مشرقين ومغربين بين القاهرة وبغداد وانتقلت كتب ورسائل علماء كـل من المدينتين الى الاخرى وذاع صيت مشاهير اولئك ، فرحل اليهم من اراد الأستزادة في العلم والاحاطة باداب وعلوم وفنون جديدة ، ويجدر بنا ان نورد هنا بعض الشواهد على تنقل علماء المسلمين بـين هاتـين المدينتين لنتعرف على مدى اهتمام اولئك الافذاذ بزيارتهما والارتشاف من مناهل علومهما وآدابهما . فعالم محمد بن الحسن المعروف بابن الهيثم من اهل البصرة ومن المشهورين بعلم الهندسة قد زار مصر ايام الخليفة الفاطمي الحاكم وكانت تجول في ذهنة فكرة اقامة سد على النيل يعمل على السيطرة في ايام فيضانة والافادة من الارواء والسفن . والعالـم ابو عبد الله محمد بن ابي نصر الازدي الحميدي الاندلسي ، واصلـه من ريض الرصافة ، رحل الى المشرق سنة ثمان واربعين واربعمائة ، وسمع بمصر والشام والعراق واستوطن بغداد وقد الف كتابه المشهور (جذوة المقتبس) في تاريخ علماء الاندلس ومات في بغداد سنة ٤٨٨ هـ [1] .

وظهر في الاندلس عالم كبير هو ابو بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي الاشبيلي مر بالقاهرة ولقي جماعة من المحدثين ، ودخـل

---

(١) ابن خلكان : ج ٣ ص ٤١٠ .

بغداد وسمع بها من جماعة ولقي ابا بكر الشاشي وابا حامد الغزالي وغيرهما من العلماء ثم عاد الى مصر ومن هناك انتقل الى اشبيلية وتوفي سنة ٥٤٣ هـ .(١)

وقدم من واران وهي من قرى تبريز ابو الخير مظفر بن ابي الخير اسماعيل بن علي الملقب بالامير (٢) ، الى بغداد وتفقه بها على الامام ابي القاسم بن فضلان وغيره من العلماء حتى حصل طرفا من المذهب والخلاف والاصول وتكلم في المسائل وتولى الاعادة بالمدرسة النظامية مدة ، ثم خرج من بغداد مسافرا الى الديار المصرية فاقام بها مدة وتولى التدريس بها بالمدرسة الناصرية والمعروفة ايضا مدرسة ابن زين التجار ، ويضيف ابن الصابوني في كتابه تكملة اكمال الاكمال ان اهلها اي مصر استفادوا منه واخذوا عنه ، وتوفي بشيراز سنة ٦٢١ هـ .

وانتقل الشيخ ابو عبد الله محمد بن محمد بن علي النوقاني ، من مدينة طوس الى تبريز وسمع بها من ابي منصور محمد بن اسعد حفدة العطاري الطوسي ، ورحل الى بغداد وسمع بها من فخر النساء شهدة بنت ابي نصر الابري وابي المعالي عبد المنعم بن عبد الله الغراوي وابي القاسم عبد الرحيم بن اسماعيل النيسابوري الصوفي (٣) وغيرهم من علماء بغداد وقدم مصر وسكن بالقرافة بالمدرسة المجاورة لضريح الامام الشافعي ــ رضي الله عنه ــ وحدث بها وتوفي سنة سبع وثلاثين وستمائة بمنزله بالمدرسة المذكورة ، ودفن بالقرافة .

---

(١) ابن خلكان : جـ ٣ ص ٤٢٣ .
(٢) ابن الصابوني : تكملة اكمال الاكمال ص ٥٣ .
(٣) ابن الصابوني : تكملة اكمال الاكمال ص ٣٥٣ .

وكان ابو الحسن علي بن ابي الحسين ، المعروف بابن القصار اللغوي من الادباء المشاهير قرأ الادب على الشريف ابي السعادات ابن الشجري وابو منصور بن الجواليقي وقد برع فنه واقرأ الناس زمانا ، ورحل الى مصر واجتمع بابي محمد بن برى والموفق بن الحلال كاتب الانشاء ، ويذكر ابن خلكان : انه كان عارفا بديوان ابي الطيب المتنبي علما ورواية وقراءة عليه جمع كثير في العراق والشام ومصر وكتب بخطه الكثير من كتب الادب وشعر العرب ، وتوفي ببغداد سنة ست وسبعين وخمسمائة ودفن بمقابر الشونيزي [1] .

والتبريزي ، ابو زكريا يحيى بن علي المعروف بالخطيب ، كان من كبار علماء الادب ، قرأ علي ابي العلاء المعري وابي القاسم عبد الله بن علي الرقي ، وابي محمد الدهان اللغوي وغيرهم من أهل الادب ، وروي عنه الخطيب البغدادي وابو منصور بن الجواليقي وغيرهما من العلماء ، وقد شغل هذا العالم الاديب كرسي موضوع الأدب بالمدرسة النظامية ببغداد ، وكان التبريزي الخطيب قد زار مصر في عنفوان شبابه فقرأ عليه بها الشيخ ابوالحسن طاهر بن بابشاذ النحوي وغيره من علماء النحو . وتوفي التبريزي سنة اثنين وخمسمائة ببغداد [2] .

ويمثل ابو اسحق ابراهيم بن منصور ، الفقيه الشافعي المصري المعروف بالعراقي ، وضوح العلاقات الثقافية بين القاهرة وبغداد بشكل بين وجلي ، فقد ولد هذا العالم في مصر وتفقه على القاضي ابن المعالي

---

(١) ابن خلكان ج ٣ ص ٢٥ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٣٣ ، ياقوت : ارشاد الاديب ج ٧ ص ٢٨٦ .

مجلي بن جميع الارسوقي المصري الشافعي وكان هذا من اعيان الفقهاء وصنف في الفقه كتاب « الذخائر » ، وانتقل ابو اسحق الى بغداد واشتغل بها مدة فنسب اليها وقرأ بها الفقه علي ابي بكر محمد بن الحسين الاموي وكان من اصحاب الشيخ ابي اسحق الشيرازي ، وعلي ابي الحسن محمد بن المبارك بن الخل البغدادي وكان يعرف ببغداد بالمصري فلما رجع الى مصر قيل له العراقي . وتوفي سنة ست وتسعون وخمسمائة ودفن بسفح المقطم (١) .

وفي سنة ٦٣٠ هـ شيد الخليفة العباسي المستنصر بالله المدرسة التي عرفت بالمدرسة المستنصرية والتي كانت من اوسع المدارس الاسلامية في القرون الوسطى وابهاها وانظمها (٢) ، وجعلها للمذاهب الاربعة ، وروعي في اختيار المدرسين ان يكونوا من المشايخ الفضلاء والمتبحرين في اصول الدين والمذهب وتعذر على المسؤولين وقتذاك العثور على مدرس يشغل كرسي المذهب المالكي فوقع الاختيار على الشيخ سراج الدين عبد الله بن الشرمساحي المالكي ، وكان هذا العالم قد نشأ في الاسكندرية وكان من ائمة المالكية وله تصانيف في الفقه والنظر والخلاف ووصل بغداد فاكرمه الخليفة المستنصرية وولاه تدريس المستنصرية (٣).

ونشأت علاقات ثقافية بين القاهرة وبغداد ، وكانت المستنصرية والنظامية اللتان انشئتا في بغداد سنة ٤٥٩ تشغلان معظم تلك الروابط العلمية والادبية ، فقد رحل من مصر الى بغداد عدد كبير من طلبة العلم

---

(١) ابن خلكان : جـ ١ ص ٥ ، شذرات الذهب جـ ٤ ص ٣٢٣ .
(٢) راجع كتاب المستنصرية : الدكتور حسين امين .
(٣) حسن المحاضرة : جـ ١ ص ١٩٤ .

وشيوخه للحصول على ثقافات جديدة او للاشتغال في مدارس بغداد الشهيرة فالفقيه عبد المؤمن بن خلف الدمياطي ، الذي تفقه في بلده دمياط وانتقل الى القاهرة واجتمع بالحافظ ابي محمد عبد العظيم المنذري وجالسه سنين طويلة واخذ عنه علم الحديث وكتب عنه جماعة كثيرة واقبل على هـذه الصناعة وارتحل الى بغداد (١) وقـد سمع الحديث من ابـي الهدينة (٢) .

وممن تفقه في مدارس بغداد صقة بن ابي الكرم اليعقوبي وقدم الى مصر وولى القضاء باعمال الاشعونين ثم رجع الى بغداد واعاد بالنظامية وولى قضاء يعقوبا .

واشهر من تفقه في مدارس بغداد ، بن شداد ابو المحاسن يوسف ابن رافع ، والذي اقام معيداً بالمدرسة النظامية ببغداد اربع سنين ، ومن اشهر كتبه « ملجأ الحكام عند التباس الاحكام » واتصل بن شـداد بالسلطان صلاح الدين الايوبي وصار من معتمديه ورجال دولته الاكفاء. كذلك العالم ابو عبد الله محمد بن صفي الدين ابو الفـرج المعروف بالعماد الاصفهاني ، وتفقه ببغداد بالمدرسة النظامية وهو الاخر من الذين وثق بهم السلطان صلاح الدين الايوبي ، واعتمد عليهم واصبح مـن جملة الصدور المعدودين يضاهي الوزراء (١) ومن اشهر تصانيفه كتاب فريدة القصر وكتاب البرق الشامي وكتاب الفيح القسي فـ يالفتـح

---

(١) السلامي / بغداد ص ٢٠٨ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) ابن خلكان : جـ ٦ ص ٨٤ .

القدسي وتوفي العماد الاصفهاني في رمضان سنة ٥٩٧ هـ [١] . وتفقه بنظامية بغداد ، عبد السلام بن علي بن منصور الدمياطي المعروف بابن الخراط ولد بدمياط وتوجه الى بغداد ، فتفقه على الربيع الواسطي مدرس النظامية وتميز في الفقه والخلاف وسمع الحديث ثم رجع بلده واقام بها قاضيا ومدرسا مدة ، ثم ولي قضاء مصر والوجه القبلي وسار فيه سيرا حسنا ، ثم عزل واعيد الى دمياط ومات سنة ٦١٩ هـ [٢] .

ومن المشاهير الذين كان لهم الفضل في حمل التاثيرات الحضارية بين مصر والعراق العالم عبداللطيف البغدادي والمعروف بابن اللباد وبابن نقطة من فلاسفة الاسلام واحد العلماء المكثرين من التصنيف في الحكمة وعلم النفس والطب والتاريخ والبلدان والادب ، مولده ووفاته ببغداد واقام مدة في حلب وزار مصر والقدس ودمشق وحران وبلاد الروم وفلسطين والحجاز وغيرها من البلدان الاسلامية ومن اشهر كتبه « الافادة والاعتبار بما في مصر من اثار » وتوفي سنة ٦٢٩ هـ . ١٢٣١ م .

مركز تحقيقات كامپيوتری علوم اسلامی

وممن تفقه بالمدرسة المستنصرية في بغداد احمد بن عبد الرحمن ابن محمد بن عسكر المالكي القاضي شرف الدين البغدادي الاصل ، وولى القضاء بمدينة دمياط ثم دمشق وولي بالقاهرة ونظر الخزانة [٣] .

ومن الذين تنقلوا بين بغداد والقاهرة عالم جليل ومحقق كبير ، الحافظ المدقق محمد بن محمد محمود الدين البابرتي ، وكان بارعا في

---

(١) المرجع السابق جـ ٢ ص ٤٦٨ .
(٢) السيوطي / حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٩١ .
(٣) السلامي /علماء بغداد ص ٨٩ .

الحديث وعلومه ذا عناية باللغة والنحو والصرف والمعاني والبيان ، اخذ الفقه عن قوام الدين المالكي عن حسام الدين حسن السغناقي عن حافظ الدين الكبير محمد البخاري ، وله تصانيف عديدة ، منها شرح الهداية وشرح تجديد الطوسي وغيرها من المؤلفات المهمة ، رحل الى حلب وأخذ من علمائها ثم رحل الى القاهرة وأخذ من شمس الدين الاصفهاني وابن حسيان (محمد بن يوسف بن علي بن حيان الاندلسي) ، وعرض عليه القضاء مرارا [1] وقال عنه السيوطي انه علامة المتاخرين وخاتمة المحققين برع وساد ودرس وافاد .

ومن العلماء الذين درسوا في بغداد العالم أمير كاتب العميد ابن امير غازي قوام الدين الاتقاني الفارابي ، وكان مدرسا في مدرسة مشهد ابي حنيفة وقدم مصر فاكرمه الامير صرغتش وبنى له المدرسة الصرغتمشية [2] ودرس فيها اول ما فتحت وكان راسا في مذهب الحنيفة بارعا في الفقه واللغة العربية [3] . وآخر من وصلت لنا أخباره من مدرسي المستنصرية ببغداد ، محب الدين احمد بن نصر الله بن احمد بن محمد بن عمر البغدادي الحنلي ، المعروف بالمحب ، ولد ببغداد سنة ٧٦٥ ودرس على والده جلال الدين ، الفقه والاصول سنة ٧٨٦ وزار بيت المقدس وتوجه الى القاهرة وقطن فيها واخذ عن المشايخ الكبار فيها ، ومنهم زين الدين العراقي وابن الملقن وسراج الدين البلقيني ، وصار فقيه الحنابلة وعالمهم . ثم تولى أبوه تدريس الحديث بمدرسة الملك الظاهر برقوق واخذ يتناوب مع والده في التدريس ثم استقل بذلك

---

(١) طبقات الحنفية : ص ١٩٥ .

(٢) طبقات الحنفية : ص ٥٠ .

(٣) حسن المحاضرة : ج ١ ص ٢٠٠ .

بعد موت والده سنة ٨١٢ ايضا تدريس الحنابلة بالمؤيدية وبالمنصورية .

هذه بعض النماذج من صور العلاقات الثقافية بين المدينتين الخالدتين بغداد ومصر على الصعيدين الشعبي والرسمي ، وهناك عدد كبير متوفر في كتب التراجم والتاريخ العام من الشخصيات العربية الاسلامية التي لعبت دورا كبيرا في توطيد العلاقات الحضارية وكانت عاملا مهما في نقل الافكار التعليمية بين بغداد والقاهرة وعملت على ازدهار الثقافة العربية الاسلامية .

وتتيجة لتلك العلاقات انتشرت في بغداد والقاهرة اسماء مشاهير العلماء من مصر والعراق كما انتشرت مصنفاتهم وتآليفهم وتبادل اولئك العلماء المجهودات الادبية والعلمية ومنح بعضهم البعض الاجازات العلمية، اعترافا منهم بالجهود العلمية ودليلا ناصعا على دافع العلاقات الثقافية الاصلية .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فقد اجيز عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي من العالم الفقيه عبد المؤمن بن خلف الدمياطي [1] وذكر المنذري في ترجمة الصالح بن محمد عبد العزيز بن دلف البغدادي بانه قد حصل منه على اجازة[2]

وكتب التراجم كذلك متوفر فيها اسماء الكثيرين من العلماء الذين اجيزوا في القاهرة من علماء بغداد وبالعكس . ولعل من ابرز النتائج انتقال المدرسين العراقيين الى القاهرة ورحلة المدرسين المصريين الى بغداد للعمل في مدارسها كمدرسين او زائرين، وكان لهذا اثر كبير في توحيد

---

(١) تاريخ علماء بغداد ص ١٢٢ .

(٢) المنذري : التكملة لوفيات النقلة جـ ٥٥ ص ٢٤٩ .

البرامج الثقافية وتعميق الدراسات الادبية والدينية •

ان ظهور الحركة المدرسية في المشرق الاسلامي على عهد الوزير نظام الملك السلجوقي عامة وفي العراق خاصة وما تبعها من تطور لتلك الحركة وتوسيع وتنظيم ، كان له الاثر الكبير في انتقال تلك الفكرة الى الاقطار الاسلامية ولاسيما مصر والشام ، ويجد الباحث المدقق ان هناك الكثير من المدارس التي بنيت في القاهرة زمن السلطان صلاح الدين الايوبي، الذي سار على غرار سياسة نظام الملك السلجوقي في نشر المدارس الاسلامية والعمل على تشجيع تشييدها ، وان تلك المدارس التي شيدت في القاهرة كانت هي الاخرى اتجهت وجهة الفكرة العراقية ، فصارت المدارس تشيد لتدريس فقه مذهب من المذاهب ، فالمدرسة الناصرية التي اقيمت بجوار الجامع العتيق بمصر ويذكر المقريزي ، انها عرفت اولا بالمدرسة الناصرية ثم عرفت بابن زين النجار احد اعيان الشافعية درس بهذه المدرسة مدة طويلة ومات في ذي القعدة سنة اخرى وتسعين وخمسمائة للهجرة ثم عرفت بالمدرسة الشريفة وكانت هذه المدرسة برسم الفقهاء الشافعية ، كما شيدت المدرسة القمحية سنة ٥٦٦ هـ وكانت خاصة بالفقهاء المالكية ، كما اوقف السلطان صلاح الدين الايوبي المدرسة السيوفية على الحنفية • وهذا كما نلاحظ تماما كما كان سائدا في بغداد ، فالنظامية في بغداد كانت برسم الفقهاء الشافعية ، ومدرسة ابي حنيفة كان قد اوقفها مؤسسة على الفقهاء الحنفية ومدرسة عبد القادر الجيلي بباب الأزج كانت خاصة لفقهاء الحنابلة ، فلا غرو اذن ان الاتصال السياسي والاقتصادي والثقافي الذي كان يسود المنطقة الاسلامية وعلى الاخص العراق ومصر ، وكان عاملا مهما في نقل الفكرة المدرسية الى القاهرة •

وفي سنة ٦٣١ افتتحت المدرسة المستنصرية ببغداد تلك التي شيدها الخليفة بالله العباسي ، وجعلها موقوفة على المذاهب الاربعة ، وصار لكل مذهب من المذاهب السنية ركن خاص وله مدرسوه ومعيدوه وطلبته ، كما درست علوم الطب والادوية في هذه المدرسة العظيمة [١] وفي سنة ٦٤١ هـ شيد الملك الصالح نجم الدين ايوب بن الملك الكامل ، مدرسة عرفت بالمدرسة الصالحية ، وكان بها قاعات لكل مذهب من المذاهب السنية ، ويبدو انها انشئت على غرار المستنصرية ببغداد ، والصالحية هي اول مدرسة اقيمت لتدريس المذاهب السنية الاربعة ، يؤيد قولنا هذا ما ذكره المقريزي عن هذا العمل اذ قال : وهو اول من عمل بديار مصر دروسا اربعة في كل مكان [٢] .

ومما لا شك فيه ان المدارس التي نهضت في بغداد وانتشرت انتشارا واسعا كانت تخدم فكرة نشر المذهب السني والعمل على تقويته والدفاع عن اصحابه ، وان انتقال الفكرة المدرسية الى مصر ايام الحكم الفاطمي معناه ، العمل في مصر على اضعاف الدولة الفاطمية الشيعية واسناد المذهب السني،وفعلا عملت المدارس السنية خاصة تلك التي انشأها السلطان صلاح الدين الايوبي ، عملها المؤثر البالغ في اظهار المذاهب السنية وضعف وانزواء المذهب الشيعي الذي كان المتنفذ والسيطر على مصر باسرها ، ولعل هذه من النتائج الكبيرة للعلاقات الثقافية التي كانت سائدة بين القاهرة وبغداد والتي كانت حصيلة نشر المدارس في أرض الكنانة .

---

(١) المستنصرية : للدكتور حسين امين ص ٥٦ .
(٢) المقريزي / الخطط ج ٤ ص ٢٠٩ .

ان بغداد والقاهرة لعبتا دورا مهما في تاريخ العرب الحضاري في ميادينه الواسعة ولكننا نجد العلاقات الثقافية تبرز بوضوح بين المدينتين العربيتين الخالدتين فاصالة الحضارتين بين الشعبين العراقـي والمصري وارومة العروبة الرابطة بينهما ووحدة الدين الحنيف والمصالح التاريخية المشتركة ، روابط اساسية لقيام تلك العلاقات الحضارية التي برزت بشكل بين العصور الاسلامية ، وكان لها الاثار البعيدة في نشر الاداب والعلوم والفنون ، وتطور الحضارة الانسانية وازدهارها •

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

دراسة لرحلة برتراندون دي لا بروكيير
إلى فلسطين ولبنان وسورية
"١٤٣٢م"

الدكتور محمود زايد
أستاذ التاريخ الاسلامي بالجامعة
الاميركية ببيروت

مركز تحقيقات كامپيوتری علوم اسلامی

١ ــ آخر محاولة برغندية للقيام بحرب صليبية ورحلة بروكيير

كان سقوط عكا في أيدي المماليك (١٢٩١) نقطة فاصلة في تاريخ الحروب الصليبية. اذ لم تلبث المراكز الباقية للصليبيين أن تساقطت كاوراق الخريف تحت وطأة الضربات التي وجهها اليها المماليك ، ولاذ من كتبت لهم النجاة بالفرار الى قبرص. وشهد القرن الرابع عشر تطورات في اوربا وفي الشرق الادنى جعلت من قضية استرجاع الاراضي المقدسة حلما باهظ التكاليف عسير التحقيق (١) .

فالروح القومية التي كانت آخذة في النمو في اوروبا خلال ذلك القرن ، وتنافس الدول القومية ، وحروب السنين المئة بين فرنسا وانجلترا،

والموت الاسود ، وانصراف الجمهوريات الايطالية الى تنمية علاقاتها التجارية مع المماليك وما طرأ على تفكير الكتاب من تحول تجاه موقف الغرب النصراني من الشرق الاسلامي مؤداه ان الغرب يجب ان يعمل على تنصير المسلمين بدلا من قتلهم ــ كل هذه التطورات لم تكن تساعد على الحرب في سبيل استعادة الاراضي المقدسة •

وكذلك شهد الشرق الادنى الاسلامي تطورات جعلت من تجدد تلك الحروب في الديار المقدسة والبلدان المجاورة امرا غير عملي ومصيره الفشل في الاغلب • فالسلطنة المملوكة كانت قوية وآخذة في التوسع، وتتمتع بازدهار عظيم • واستطاعت بتوسعها ان تتجاوز ضم سوريا الى الاستيلاء على ارمينيا الصغرى التي كانت تمثل كاخر نصر للكاثوليكية في الشرق • ثم كان هناك الزحف التركي الذي أثار موجة قوية من الخوف والذعر في اوروبا • ويذهب الاستاذ عطية الى أن توسع الاتراك أدى الى تغيير مفهوم الحرب الصليبية • ويجد مبررا لاعتبار معركة نيقوبوليس نهاية فصل وبداية آخر في تاريخ تلك الحروب والدعوة لها اذا أدى زحفهم الى نقل ميدان المعركة بين الشرق والغرب الى اوروبا ذاتها والى تحول الاوروبيين من الهجوم الى الدفاع •

لكن بالرغم من هذا كله فان فكرة القيام بحملات صليبية اخرى ظلت تراود اذهان عدد من ملوك اوروبا وقادتها • فقد كان وقوع عكا قد اثار الكثير من الخوف والغضب في اوروبا • وكانت قبرص قد اعلنت الحداد وحتى بعد سقوط تلك المدينة بقرن لاحظ الرحالة مرتوني (١٣٩٤) ان نساء قبرص يلبسن عباءات لاتكشف شيئا سوى عيونهم «بسبب الأسى والحزن العميق اللذين ولدهما ضياع عكا وغيرها من المدن السورية » (٢) • وتلا سقوط عكا تدفق أدب الدعوة الى حروب أخرى

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

من اقلام الحجاج والادباء الذين انبروا يحرضون الامراء والبابوات على استرجاع تراث المسيح والقضاء على سلطان المماليك ، ووقف زحف الاتراك • ومن اقدم ماوصلنا من كتب الدعوة هذه بعد سقوط عكا ما كتبه ثاديو النابولي الذي وصف سقوط المدينة ووجه رسالة الى الامم النصرانية لاثارة حماستها ودفعها الى استئناف الحرب الصليبية • وكان بين المحرضين على الحرب ليو السادس الذي فقد مملكته في ارمينية الصغرى (١٣٧٥) وبيير الاول لوزنيان الذي فقد قبرص •

وكان من اشد المتحمسين للحرب الصليبية دوقات برغندية الذين كانوا يحكمون اغنى مقاطعات اوروبا ويتخذون بلاطا اسبغوا عليه من الفخامة والابهة ما اثار دهشة أهل غرب اوروبا وجعلهم يرون فيه نهضة مزدهرة تضاهي النهضة الايطالية [٣] •

وشهد بلاط فيليب الطيب (١٤١٩ — ١٤٦٧) آخر محاولة قام بها دوقات برغندية لتجريد حملة صليبية • ففي مستهل القرن الخامس عشر لفتت الهزائم التي الحقها المغول بقيادة تيمورلنك بالاتراك العثمانيين انظار الاوروبيين • اذ اجتاح تيمورلنك آسيا الصغرى وسوريا كالاعصار ناشرا الخراب والدمار اينما حل • وبالرغم من أن هذه الموجة المغولية الطاغية لم تلبث ان انحسرت بسرعة ، فقد بعثت في صدور الاوروبيين الامل في صد الخطر التركي ، وحفزت بعض قادتهم على التفكير بتجريد حملة صليبية •

وكان من اعظم المتحمسين لهذا المشروع هنري الخامس ملك انجلترا ، وفليب الطيب دوق برغندية • وكانت لديهما حوافز متشابهة • كان كلاهما طموحا يسعى الى تحقيق ما يعجز غيرهما عن تحقيقه • وكان والد هنري

الخامس قد سقط في الميدان وهو يحارب من اجل الصليب ووقع والد فليب اسيرا في يد الاتراك خلال معركة نيقو بوليس ، فصار فليب ينظر الى تلك المعركة لا على انها اذلال لسيجسمند صاحب المجر فحسب ، بل لبرغندية ايضا .

ومن اجل التمهيد للقيام بحرب صليبية ، أوفد هنري الخامس وفليب الطيب جلبرت دى لانوي الى الشرق الادنى لزيارة مصر وسوريا، وذلك في عام ١٤٢١ . وكان جلبرت حاجبا عند الدوق فليب . وحالف التوفيق هنري وفليب في اختياره . اذ كان قد قام بالحج الى القدس وسيناء . اما في هذه المرة فقد سافر بوصفه سفيرا . وعرج على بروسيا وبولندا وروسيا ووزع عددا من الهدايا الثمينة التي ارسلها هنري الخامس معه .

واشتمل تقرير لانوي على معلومات ذات اهمية عسكرية كبيرة، ضمنها وصفا للموانىء تطرق فيه الى صلاحيتها لاستقبال السفن ووصف الاسوار والقلاع وقوة المماليك . على ان هنري الخامس توفي قبل عودة لانوي . ولم يعكر صفو ساعاته الاخيرة سوى فشله في تحرير الاراضي المقدسة. فحمل عبء التفكير في الحرب المقدسة فليب الطيب الذي كان يطمح الى النجاح في ميدان فشل فيه غيره .

ووقع اختيار فليب على فارس من دوقية جيين اسمه برتراندون دي لا بروكيية للقيام بهذه المهمة [٤] . ويظهر اسم هذا الفارس لاول مرة في سجلات الدوقات البرغنديين عام ١٤٢١ ، وهو يحمل لقب المشرف على السماط السلطاني الذي يقابل لقب « خوان سلار » عند المماليك . وفي السنوات التالية كلفه فليب الطيب بالقيام بمهمات سرية في بلاطات

الامراء والملوك الاوربيين كافأه الدوق عليها بمنحه قصر فيوشاتو .

اوضح برتراندون الغرض من رحلته في مستهل ما دونه عن رحلته التي بداها عام ١٤٣٢ م بقوله [٥] :

«حفزا لهم النبلاء الذين يرغبون في الاسفار ، واجابه لأمر سيدي المعظم القدير المرهوب الجانب فليب الذي هو ، بنعمة الله ، دوق برغندية وبرابانت ولمبور ولوتيبيه ، وكونت الفلاندرز وأرتوا وبرغندية ، وسيد هينو وهولندا وزيلند ونامور ، ومركيز الامبراطورية المقدسة ، وصاحب سالين ومالين ،

« أنا برتراندون دي لابروكييه ، المولود في دوقية جيين ، وسيد فيوشاتو ، ومستشار دوق برغندية المعظم ، والمشرف على سماطه (خوان سلار)، قد دونت تلك الرحلة المتواضعة التي قمت بها ، طبقا لما اسعفتني به الذاكرة ، وما كنت قد سجلته بسرعة على شكل مذكرات ، حتى اذا رغب ملك او امير مسيحي في ان يفتح القدس ، وان يزحف عليها برا بجيش ضخم ، او حدث بأحد النبلاء الرغبة في الذهاب اليها والعودة منها ، كان على معرفة بالبلدان والمدن والاقاليم والمناطق والانهار والجبال والممرات في مختلف الاقطار ، وبأصحاب الامر فيها ، وذلك ابتداء من القدس حتى الوصول الى برغندية » [٦] .

وقام بروكييه بمهمته خير قيام ، وتغلب الجانب العسكري في رحلته على الجانب الديني،وجاءت دراسته للاتراك على جانب كبيرمن الاهمية، فقد عرض لاسرار قوتهم ، وهي طاعتهم التامة للسلطان ، وحسن دربة افراد الجيش واسلحتهم الخفيفة . ويورد بروكييه الشروط التي لا بد من توفرها اذا ما اريد توجيه حملة عسكرية الى بلاد الاتراك . فيرى ان الملك الذي يقوم بحملة صليبية يجب الا يهدف الى الكسب الشخصي،

وان يؤمن وجود المال اللازم لهذه الحملة ، وان يتألف جيشه من فرنسيين وانجليز ، وأن يطيع افراد الجيش قائدهم اطاعة تامة ٠

وقد لقيت رحلة بروكييه اهتماما كبيرا لدى الدوق فيليب ٠ وحدث في تلك الأثناء ان استغاث الامبراطور البيزنطي به ، وطلب منه المساعدة بواسطة جان تورزلو ٠ فقدم الدوق طلب الامبراطور لبروكييه لدراسته وتقديم التوصيات اللازمة بشأنه واستجاب بروكييه لطلب الدوق ، وقدم تقريرا موجزا ضمنه رأيه بشأن مشروع ارسال حملة ضد الاتراك ٠ ولكن آراء بروكييه في هذا الموضوع جاءت مخيبة لامال الدوق ٠ اذ يظهر ان بروكييه قد اكد ان غزو تركيا ليس بالامر الهين ، وان استعادة البلاد المقدسة بطريق البر امر غير عملي ٠

لكن الدوق فيليب لم يرجع عن عزمه ٠ فاوفد الاسقف جان جرمين الى بلاط شارل السابع ملك فرنسا يدعوه للاشتراك في رد خطر الاتراك « فالمنتصر عليهم ياتي في الدرجة الثانية بعد داود وقسطنطين وشارلمان» ٠ الا ان نفوذ الدوق وبلاغة الاسقف لم تستطيعا التأثير على الملك الذي كان أمر تنظيم مملكته يستحوذ عليه ويصرفه عن توجيه اي قسط من نشاطه لغزو الاتراك ٠

وجاءت اخيرا الضربة التي قضت على تنفيذ القيام باي حرب صليبية جديدة وهي سقوط القسطنطينية في يد الاتراك في ٢٩ ايار ١٤٥٣ ٠ وكانت الصدمة قوية لفيليب الذي اعتبر الحادثة اهانة شخصية له ٠ ولكنه مع هذا لم يفقد الامل مطلقا في القيام بالحرب الصليبية فقام بدعوة فرسان اوروبا الى احتفال اظهر فيليب خلاله استعداده لغزو الاتراك بل وحتى « لمبارزة السلطان اذا رغب في ذلك » ولكن دعوته لم تجد اذنا صاغية ٠ وهكذا انتهت اخر محاولة دوقات برغندية بالفشل ٠

٢ ـ سير الرحلـة

غادر بوكييه بلاط سيده ، الدوق فيليب الطيب دوق برغندية ، في غنت في فبراير (شباط) من سنة ١٤٣٢م وسافر الى روما برا ومن ثم الى البندقية • وفي الثامن من مايو (ايار) ركب السفينة مع عدد من الحجاج الى يافا مارا ببولا وزارا وكورفو ومودون ورودس وقبرص •

ووجد بروكييه يافا خربة ، وسار الى الرملة وكانت غير مسورة • وعرج في طريقه على اللد ثم واصل سيـرة الى القدس فوصلها بعـد يومين • وبعد ان قام بالزيارات المعتـادة ذهب الى الاردن حيث عمـد المسيح ، كما زار بيت لحم •

وفي القدس اتصل بروكييه بكبير التراجمة ، ويدعوه نانخاردين (وقد يكون اسمه نصير الدين) ليرتب له زيارة الى دير القديسة كاترينة في سيناء • ولكنه لم يواصل سفره الى مصر • اذ يظهر ان رحلته كانت ستقتصر على البلاد الاسلامية في الشرق الادنى باستثناء مصر • وعليه فان تقرير لانوي جاء أفضل من تقريره وأوسع منه • ويشير بروكييه الـى القسوة التي كان يعامل بها الحجاج في غزة • ومر خلال عودته الى القدس بعسقلان • ولم يتمكن من مغادرة القدس قبل التاسع عشر من اغسطس •

وكان في هذه الاثناء ، قد فكر في العودة الى فرنسا بطريق البر على الرغم مما كان سيتعرض له من خطر • ولكنه قام ببعض الزيارات قبل عودته • فغادر القدس الى يافا ثم الى عكا التي لم يكن فيها عندئذ اكثر من ثلاثمئة بيت • وواصل سفره الى بيروت مارا بصور وصيدا • ووجد

ميناء بيروت في حالة حسنة • ثم توجه الى دمشق اهم مدينة في السلطنة بعد القاهرة من حيث اهميتها وغناها فوصلها بعد يومين • ولاحظ في دمشق وجود العديد من التجار النصارى الذين كانوا يلجأون الى خاناتهم عند غروب الشمس ، ولا يعودون الى فتحها الا في اليوم التالي عند شروقها • وغادرها بروكييه الى بيروت وقام بزيارة الناصرة وجبل طابور، ثم عاد الى دمشق حيث التقى بعربي اسود كان قد وصل من القاهرة على جمل في مدة ثمانية ايام فقط •

ولما كان بروكييه قد اعتزم العودة الى اوروبا برا فقد قدم نفسه لرئيس قافلة الحج العائدة من مكة واسمه هوياربارباخ (خوجابرق؟) وادعى انه يود زيارة اخ في بروسه • فقبل رئيس القافلة ان يضمه الى مماليكه على ان يلبس مثلهم •

وقبل ان تغادر القافلة دمشق ، قام بروكييه بزيارة دير السيدة صيدنايا حيث شاهد الصورة التي يقطر منها زيت • وتحركت القافلة في ٦ اكتوبر من سنة ١٤٣٢ ، ومرت بحمص • فوجد بروكييه المدينة جميلة محاطة باسوار وخنادق • وفي حماه تعرف بروكييه على تاجر بندقي يدعى لورانت سوارنز • فاحسن هذا وفادته وتجول معه في انحاء المدينة •

ويدخل بروكييه بعد ذلك ارمينية ، وكانت عاصمتها انطاكيا • فوجد اسوارها في حالة جيدة اما بيوتها فلم تكن تزيد عن ثلاثمئة بيت • ويضيف ان صناعة اهلها الرئيسية هي تربية الماشية •

ثم يقطع بروكييه اسيا الصغرى ويصف حياة الاتراك ويعدد صفاتهم• ويقول بانهم قوم مرحون ، ولهذا ينبغي على من يريد ان يعيش بينهم

الا يكون عبوسا ، ثم يشيد بروكييه بكرمهم •

ويواصل بروكييه سفره الى بروسة التي هرع اهلها لاستقبال القافلة • وهناك قام بعض المستقبلين بتقبيل يد بروكييه ظنا منهم بانه احد الحجاج • ويصف بروكييه اهمية بروسة فيقول انها كانت مركزا تجاريا وان فيها مقبرة السلاطين وسوقين كبيرتين •

ويتابع بروكييه رحلته الى القسطنطينية ، ملتقى التجار من امم عديدة اهمها البنادقة ، الذين كان يتولى تنظيم امورهم هناك مشرف خاص وهو امتياز كانوا قد حصلوا عليه منذ زمن طويل • ويحزفي نفس بروكييه انه لم يبق للامبراطور البيزنطي الا ظل من مجده السابق ، وانه يدفع للاتراك جزية تبلغ عشرة آلاف دوكة •

وغادر بروكييه القسطنطينية في ٢٣ يناير (كانون الثاني) من عام ١٤٣٣ الى ادرنة ، فيذكر انها مدينة تجارية مأهولة بالسكان قائمة على نهر ماريزا وتبعد مسيرة ستة ايام من القسطنطينية •

وقد تجول بروكييه في القسم الاوروبي الخاضع للاتراك • وامدنا بمعلومات قيمة عن الجيش التركي • ويغادر بروكييه ادرنة في الثالث عشر من مارس (اذار) من سنة ١٤٣٣ الى مقدونيا ثم الى صوفيا التي رآها احسن مدن بلغاريا عندئذ •

ويعود بروكييه الى بلاط سيده دوق برغندية ويقدم له حصانه ولباسه العربي والقرآن وحياة النبي باللغة اللاتينية •

٣ ـ دراسة للرحلة

أ ـ الرحلة وأدب الرحلات :

يمكن القول ان بروكييه استهل برحلته عام ١٤٣٢ فترة جديدة في أدب الرحلة الى الاماكن المقدسة ، وهي فترة الانتقال من الرحلات الوصفية السائدة في العصور الوسطى الى الرحلات الحديثة . وقد بلغت فترة الانتقال هذه ذروتها برحلتي فيلكس فابري الذي زار الشرق مرتين بين سنتين ١٤٨٠ و ١٤٨٣ (٧) .

كان الحافز الاكبر لزوار الديار المقدسة من الاوروبيين منذ اوائل العصور الوسيطة الى أوائل القرن الرابع عشر هو الحافز الديني لا حافز حب الاستطلاع وزيادة المعرفة بدراسة البلاد دراسة متعددة الجوانب ودراسة عادات اهلها وحياتهم السياسية والاجتماعية . وعليه فان اهتمامهم كان يتركز في زيارة الاماكن المقدسة ووصفها ومحاولة تعيين الاماكن ومسارح الاحداث الواردة في التوراة . ولم تكن النظرة النقدية بعد قد تطورت عند الرحالة واستخدمت في محاكمة كثير من المفهومات والمعلومات الشائعة .

ومنذ اوائل القرن الرابع عشر نجد عند الرحالة حوافز اخرى للرحلة الى جانب الحافز الديني مثل حب الرحلة ، والمجازفة ، والسعي في سبيل تشجيع التجارة ، والكسب المادي والتبشير . الا ان مدوناتهم لم تخرج من حيث جوهرها عن مدونات من سبقهم .

وجاءت رحلة بروكييه في اوائل القرن الخامس عشر تحمل عددا

من سمات الرحلات الوصفية الحديثة . اذ يكاد قارىء رحلته ان لا يعرف ان القائم بها هو احد حجاج العصور الوسطى . فهو لا يعير الاماكن المقدسة ووصفها من الالتفات بقدر ما يعير قافلة الحجاج العائدة من مكة . وعلى الرغم مما كان يسيطر عليه من تحامل على اهل البلاد فلم يمنعه هذا من تعدي حدود المعرفة السطحية مع من تعرف اليهم ، وعقد صداقة متينة مع مسلمين . ولعل بروكييه اول مسيحي انضم الى قافلة الحجاج ليتمكن من العودة الى اوروبا برا بالرغم من تحذير من استشارهم في الامر من الاقدام على تلك المغامرة .

ومما يستلفت نظر القارىء الرحلة هو دقة ملاحظة بروكييه واهتمامه بامور كثيرة لم تكن لتستلفت أنظار كثيرين ممن سبقوه من الرحالة . ولهذا جاءت رحلته غنية بوصف عدة جوانب من الحياة الاجتماعية في الشرق الادنى في القرن الخامس عشر . فلم يفت بروكييه ان يسجل وصف الخيمة وطريقة نصبها . ويصف طريقه نعل الحصان ، واحتفال اهل بيروت بالعيد ، وحفلة لشرب النبيذ .

مركز تحقيقات كامپیوتری علوم اسلامی

ونجح بروكييه في اجتذاب القارىء واثارة اهتمامه بتسجيله للمصاعب والمخاطرات الشخصية التي تخللت رحلته . فتراه يطيل في وصف الحيوان الذي لقيه في الصحراء يقول :

« ولم نر ونحن نجتاز الصحراء مما يستحق الذكر غير حيوان كنت اول مرة من شاهده صبيحة احد الايام ، كان يعدو على اربع ، ولا يتجاوز ارتفاعه طول الكف ، ويبلغ طوله ثلاث اقدام . فهرب ادلاؤنا العرب لدى رؤيته ، وعدا هو ايضا هاربا . فنزل السيدان اندريو وفولدري وقد استلا

سيفيهما . فلما اقتربا منه اخذ يصرخ كالقطة عندما يلحق بها الكلب . فضربه فولدري برأس سيفه على ظهره، ولكنه لم يصبه بأذى بسبب ما يكسوه من زوائد كثة تشبه زوائد السمك البحري، فوثب الحيوان عليه، فعالجه بضربة من سيفه اصابت عنقه، فقطع مقدار ربعها او ثلثها ، فانقلب على ظهره ومات . وكان له ذنب طويل يشبه ذنب السحلية الخضراء الكبيرة ، واقدام كيدي الطفل ، ورأس ارنب بري كبير . وكان ترجماننا ومن معنا من العرب يقولون انه حيوان شديد الخطر » (٨) .

ولا يظهر بروكييه اهتماما بتقصي ما يسمعه من اخبار فيما عدا ما يختص بالهدف الاساسي من رحلته وهو الناحية العسكرية . فهو يخلط بين نهري الفرات وجيحون ، وبين طبرية والسامرة ، وبين مكة والمدينة . ويقبل ما يسمعه من اخبار غير صحيحة عن الديانة الاسلامية مثل خبره عن الحجاج الذين يفقأون عيونهم بعد زيارة قبر الرسول صلوات الله عليه ، ولكنه في الوقت ذاته يتقصى اخبار قلعة دمشق ويبحث في اسرار ما يحرزه الاتراك من انتصارات في حروبهم . ومعلوماته في هذا الصدد صحيحة .

على ان السجل الذي خلفه فيلكس فابري لرحلته بقصد الحج الى الاراضي المقدسة اقرب الى الرحلات الحديثة من الاثر الذي خلفه لنا بروكييه . فقد اسهب فابري في وصف المشاهد التي زارها الى حد انه ترك لنا صورة اقرب ما تكون الى الكمال للاماكن المقدسة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، هذا فضلا عن استخدامه للنقد في وصف ما شاهده . وربما كانت محاولته لاستخدام النقد التاريخي الاصيل في بحث موقع القبر المقدس اول محاولة من نوعها في العصور

الوسيطة • وبفابري بلغت فترة الانتقال من رحلات العصور الوسيطة الى الحديثة ذروتها •

ب – بروكييه وحياة السكان الاجتماعية :

وصل بروكييه الى الشرق الادنى الاسلامي وهو متحامل على سكانه شأن أكثر الحجاج المسيحيين الأوروبيين خلال العصور الوسيطة • ويتجاوز بروكييه التلميح الى التصريح عن هذا التحامل ، فتراه في اكثر من مناسبة يسجل ما يسمعه مثل قوله : « ولما اوصيت بان لا اثق في العرب من هذه الملة الضالة » ويقول في مكان آخر « واورد هذه الحادثة لا بين أن سكان دمشق قوم اشرار على الانسان ان يتجنب المشاجرة معهم » ويقول في مكان ثالث : « لكن البعض حذروني من خداع العرب وعدم وفائهم بعهودهم • واذكر هذا لفائدة من يتعاملون مع العرب لأن هؤلاء هم بالفعل كما وصفوا لي » •

مركز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ويعود هذا التحامل في الاكثر الى ما كان يرد في تقارير الرحالة السابقين عن الصعوبات التي كان الحجاج يلقونها خلال زياراتهم للاماكن المقدسة ، والى وصية الرئيس الفرنسيسكان باللاتينية والايطالية للحجاج قبيل مغادرتهم الرملة الى القدس • وكانت هذه الوصية تتضمن قواعد وارشادات للحجاج عليهم اتباعها خلال اقامتهم في البلاد المقدسة •كان يوصيهم بان لايثقوا بالعرب حتى بمن تودد منهم الى الحجاج •

لكن لا يلبث بروكييه ان يمتدح العرب وحسن استضافهم للغريب بعد ان جرب ذلك بنفسه • ففي طريقه الى غزة استضافه بعض العرب • ويذكر ان العرب الذين كلفوا بالعناية به بالغوا في السهر على راحته • ويضيف الى ذلك انهم لم يسلبوه ماله وامتعته • وفي موضع آخر ينوه

باستضافة عربي له وهو في طريقه الى طبرية ، ولكنه لم يدرك ان العربي فعل ذلك بدافع الكرم لا طمعا في النبيذ الذي كان يحمله . وحماه احد افراد القافلة التي انضم اليها للعودة برا من تركمانيين . يقول :

« ولما رأى التركمانيان جودة ملابسي وحصاني الفاخر وسيفي الجميل وجعبتي الكاملة اقترحا على (صاحبي) المملوك ، كما اخبرني فيما بعد عندما افترقنا ، ان يجهزوا علي نظرا لانني نصراني غير جدير برفقتهم . فأجابهما المملوك بان مثل ذلك العمل يعتبر جرما كبيرا طالما أنني بحسب العرف قد شاركته خبزه وملحه ، وأن الله خالق العرب والنصارى على السواء . أما انا فلم اشعر بشيء من ذلك .

ويسهب بروكييه في وصف قافلة الحج العائدة من مكة الى دمشق ، ويذكر انها كانت تتألف من ثلاثة الاف جمل . ويظهر ان بروكييه استقى معلوماته عن الحج من المملوك عبدالله الذي تعرف اليه في دمشق . فقد ذكر له هذا المملوك ان عدد افراد قافلة الحج يبلغ سبعمائة الف . وفي هذا الرقم مبالغة كبيرة . فمحمل الحج الذى كان يخرج من دمشق لم يكن يمثل العالم الاسلامي كله ، فقد كانت تخرج من العالم الاسلامي اربع محامل سلطانية من القاهرة ودمشق وبغداد وتعز كل على انفراد . وتنقص معلومات بروكييه عن شعائر الحج وامكنتها الدقة . اما وصفه لاستقبال المحمل فدقيق، فقد لاحظ الفرق بين الجمل الذي يحمل الكسوة وبين المحفة التي كانت تحمل في العادة على جملين او بغلين .

ويظهر بروكييه اهتماما كبيرا بالخيل . ومعلوماته عنها دقيقة . فهو يؤكد اهتمام العربي بها ، ويذكر ان الاغنياء من العرب يتحدثون مع

ضيوفهم في الاسطبل،الامر الذي يحرصون من أجله على نظافته ورطوبته وكان هذا امرا طبيعيا في عصر المماليك اعتمد فيه على الخيل في الحرب • ونجد ان الاسطبلات السلطانية كانت تحت ادارة خاصة عرفت باسم « الركاب خاناه » وكان « نظر الاسطبلات » من الوظائف العامة في الدولة • ويقول المقريزي في هذا الصدد بان هذه الوظيفة « جليلة القدر » (٩) ويذكر بروكييه ان ثمن الحصان كان يبلغ مئة وخمسين دوكة • ولكن اثمان الخيول الكريمة كانت تبلغ اضعاف هذا المبلغ، ويذكر المقريزي ان ثمن الفرس الواحد من خيول آل مهنا بلغ الستين الف درهم والسبعين الف درهم • وكان السلطان يخلع الخيول على الامراء والمقربين اليه مرتين في السنة : الاولى عند خروجه الى مرابط خيوله ، والثانية عند لعبه الكرة في الميدان (١٠) •

ويبدي بروكييه اهتماما خاصا بالنسبة أهل البلاد من عامة وجند • ويصف بدقة لباس عربيين لقيهما في طريقه الى طبرية • ويذكر ان كلا منهما كان يلبس على راسه كلوته بدون عمامه ، وللكلوتة قرنان منعطفان الى أسفل يمنة ويسرة • وهي مصنوعة من الصوف الاحمر • ويقول المقريزي بان تلك الكلوتات بالجركسية • ويظهر ان هذين العربيين كانا من عامة الجند لان أكمام قباءيهما ، كما لاحظ بروكييه ، كانت عريضة • وكانت العادة عندئذ ان يتميز الامراء والمقدمون واعيان الجند بلبس أقبية قصيرة الاكمام •

وفي اكثر من مكان يعلق بروكييه على احوال النصارى من اهل البلاد فيشير الى انهم كانوا يخضعون لحكامهم المسلمين خضوعا تاما وانهم يعاملون بذات القسوة التي كان الحجاج يلقونها • ولهذا فانه رأى « ان خضوع القدس لحكم العرب القاسي يلحق العار بالعالم المسيحي

ويحزنه » . ويجدر بنا ان نذكر هنا كلام بروكييه هذا يناقض تجاربه مع أصحاب السلطة في البلاد . « فحاكم » غزة أنصفه ثلاث مرات ، وكذلك فعل « حاكم » دمشق الذي اطلق سراحه بعد ان تبين انه كان قد سجن بطريق الخطأ . وشمله رئيس القافلة المتجهة الى تركيا بعطفه . واستطاع ان يتزيا بزي المسلمين « لان السلطان كان قد سمح للافرنج بالتزيي بازياء المسلمين اثناء تجوالهم وذلك حرصا على سلامتهم » .

ولو اقتصر بروكييه على اسناد القسوة الى التراجمة والمكارة والادلاء الذي كان بعضهم يحاول انتزاع اكبر قدر من المال من الحجاج والزائرين ، والى افراد من اهل البلاد ، لجأ كلامه اقرب الى حقيقة الامر . فهو نفسه يعترف بانه سجن في دمشق بسبب وشاية ترجمان اراد ابتزاز المال . ونشأت المشاكل في غزة بينه وبين افراد من الشعب وبخاصة المكارة الذين ارادوا اجباره على استئجار حميرهم لنقله الى دير القديسة كاترينة . وكان الذي اعتدى عليه عند مدخل دمشق سوري من العامة اطار بعصاه قبعته ذات الاطار العريض .

وعند فيلكس فابري وغيره من الرحالة مثل كاسولا تفصيلات اكثر عن مصدر هذه القسوة التي كان يلقاها الحجاج . كان اول ما يجري عند نزولهم البر هو تسجيلهم لدى السلطات . فاذا تم ذلك سيقوا الى احد المباني ذات الاقبية والى احد الكهوف . ويبدو ان تلك المباني والكهوف لم تكن في مستوى يليق بالحجاج . وكان لا يكاد الحجاج يستقرون في المكان حتى يفد عليهم جيش من الباعة واكثرهم من الفقراء ويحملون سلعا ومواد غذائية متعددة لبيعها . وكان هؤلاء بالطبع يستخدمون كل وسيلة لبيع ما يحملون ، مما كان يضطر الحجاج احيانا الى استخدام حارس يحول بين الباعة وبين الوصول اليهم (١١) .

على ان اشد المضايقة كانت تتأتى من المارة الذين كانوا يهرعون الى المكان بدوابهم رجاء ان يظفر الواحد منهم بحاج ينقله الى الرملة في طريقه الى القدس. فحرصا من هؤلاء المكارة على الظفر بهؤلاء الحجاج، كانوا يهجمون عليهم ويحاول كل منهم ان يمسك بحاج يجره عنوة الى دوابه ، دون مراعاة لتقدمه في السن . وكان يحدث ان يتوقف المكارى عن السير ويطلب اجرا اكبر من الاجر المعين . ويصف فيلكس فابرى هذه التجربة فيقول بان رجلا متهجم الوجه عليه علائم القسوة البالغة .

« قبض على يدى اليمنى بيمناه ، وأخذ يجرى لان الجميع كانوا قد ركبوا دوابهم . وكنت وهو يجري اميل بيمنة ويسرة متخبطا لانه كما ذكرت كان يشد يدي اليمنى بيمناه ، وهكذا أخذ يعدو راكضا وهو ممسك بي فوق حجارة اصطدمت بها عدة مرات وانا اميل ذات اليمين وذات الشمال حتى سقطت » .

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامى

ج ـ الجانب العسكري للرحلة :

كان الغرض الاساسي من رحلة بروكييه هي جمع المعلومات اللازمة لاعداد حملة لغزو البلاد والاستيلاء على الاراضي المقدسة ومن اجل هذا الغرض نراه يركز اهتمامه على الموانيء والمدن التي يمر بها وتحصيناتها ودرجة مناعتها في وجه أي هجوم خارجي . ثم في وصف الاسلحة التي يراها .

وقد جاءت معلوماته عن الموانيء والمدن ذات عون كبير لدراسة المنطقة في القرن الخامس عشر من النواحي السياسية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية.وجد يافا ـ وهي الميناء الذي كان يستقبل الحجاج الوافدين بطريق البحر ـ خربة لا مساكن فيها غير الكهوف التي يلجأ

اليها الحجاج هربا من الحر • ولاحظ ان مدينة الرملة ومدينة غزة بلا اسوار • ولم يجد في عكا سوى حوالى ثلاثمئة بيت منتشرة على احد أطراف البلدة ولكن ميناءها كان مسورا • وموانيء عكا وصور وصيدا كانت صالحة لرسو السفن • ورأى في بيروت قلعة يقوم جزء منها على مينائها وهو جيد وعميق وملجأ أمين للسفن •

ويتوسع بروكييه اكثر عندما يصل الى وصف قلعة دمشق فيقول :

« وفي دمشق قلعة جميلة حصينة تقوم في السهل وتحيط بها الخنادق الواسعة العميقة ، وتظفر بعناية تامة • ويشرف على القلعة نائب يعينة السلطان مباشرة ولا يسمح بدخولها لنائب دمشق نفسه بالرغم من ان هذا هو رئيسه الاداري • وسبب هذا الاحتياط هو ان نائب دمشق اقوى حاكم في سورية ومصر بعد السلطان ، وقد يخرج عليه كما حدث سابقا • ولهذا تحرس القلعة المذكورة ، وتبقى مستقلة عنه (نائب دمشق) للحيلولة دون تكرر ذلك »

وسمع بروكييه بان سكان دمشق يبلغون حوالى مئة الف نسمة • ووجد بروكييه مدينة حمص مسورة ومحاطة بخنادق عميقة وعلى طرفها قلعة تقوم على تل مرتفع ينحدر الى طرف سور لا يعلو كثيرا عن الارض • ويلاحظ بروكييه ان يد التخريب امتدت الى قرى حماه والى احدى قلاعها • ثم يصف قلعتين احداهما داخل المدينة والاخرى على طرف المدينة من الجهة الشرقية •

اما اهتمام بروكييه بالاسلحة فظاهر من وصفه لصنع السيوف في دمشق ، وللدبابيس التي كان يتسلح بها بعض الجند ، وتروسهم

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

وبالمرايا التي تعكس الاشعة وتشعل النار ، وبالقذائف النارية التي كانت تطلق في بيروت بمناسبة الاحتفال باحد الاعياد . وتحرى عن صانع هذه القذائف وعن طريقة صنعها . وقدم رشوة في سبيل الوصول الى سر صنعها ، فوقف على السر وحمل معه احد المقذوفات.واسترعى القوس اهتمامه فتحرى عن طريقة استعماله ، واشترى ختيعة للف الاصبع عند الرمي ، وجعبة للسهام .

★ ★ ★

حاول كاتب هذه السطور ان يبرز بعض النواحي الهامة التي يشتمل عليها ذلك القسم من رحلة بروكييه الذي يتناول البلاد المقدسة . على ان الرحلة غنية بما فيها من اشارات اخرى لاحوال البلاد في القرن الخامس عشر .

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامی

الهوامش

(١) تجد بحثنا مفصلا لهذه العوامل في الفصل الأول من
Atiya , Aziz Surial : *The Crusades in the Later Middle Ages* (London , 1938) pp. 3 - 29 .

(٢) Ferber, Elizabeth : «The Kingdom of Cyprus, 1191-1291,» in Seeton , K.M. (ed.) *A History of the Crusades* (U.S.A. , 1962) Vol. II , P. 618 .

(٣) راجع عن دوقات برغندية وموقفهم من الحروب الصليبية :
Cartellieri , Otto : *The Court of Burgundy - Studies in the History of Civilization* (London , 1929)

(٤) توجد دراسة مفصلة لحياة برتراندون دي لا بروكييه في مقدمة
Schefer, Ch., (ed.) : *Le Voyage d'outremer de Bertrandon de la Broquiere,* in Recueil de voyages et de documents pour servir a l'histoire de la géographie depuis le XIIIe jusqu'a la fin du XVIe siecle , XII (Paris , 1892) .

(٥) قام كاتب هذا المقال بترجمة قسم من رحلة بروكييه الى العربية وهو القسم الذي يصف فيه رحلته في سورية ولبنان وفلسطين ونشره في « مجلة الابحاث » التي تصدرها الجامعة الاميركية ببيروت في الجزء الثالث السنة ١٥ ، سبتمبر (ايلول) ١٩٦٢ ، ص ٢٩٩ — ٣٣٥ . ولا بد للكاتب من أن ينوه بالمساعدة القيمة التي تفضل الأب فريد جبر

بتقديمها له وبخاصة في مراجعة الترجمة العربية على النص الفرنسي .

(٦) **المصدر ذاته** : ص ٣٠١ .

(٧) Prescott, H.F.M. : *Once to Sinea-The Further Pilgrimage of Friar Felix Fabri* (London, 1957) pp. 17 -22 .

(٨) «رحلة برتراندون دي لا بروكييه» **مجلة الأبحاث** ، ص ٣٠٩ .

(٩) المقريزي : **المواعظ والاعتبار في ذكـر الخطط والآثار** ، ج ٢ (مصر ١٣٢٥ هـ .) ص ٣٦٥ .

(١٠) **المصدر ذاته** .

(١١) Prescott, H.F.M. : *Jerusalem Journey - Pilgrimage to the Holy Land in the Fifteen The century* (London , 1954) pp. 108 - 109 .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الرحالة الأجانب في الجزيرة العربية قبل القرن التاسع عشر

الأستاذ الدكتور محمد محمود الصياد
مصر

رغم أن الجزيرة العربية تقع في قلب العالم القديم ، وبجانب الطريق الاساسي لتجارته ، فقد ظلت شبه مجهوله للرحالة الاجانب حتى القرن التاسع عشر ، وكان السبب في ذلك أنها ظلت حتى ذلك التاريخ قليلة العطاء الاقتصادي مما جعل التجارة العالمية تكاد لا تأبه بها ، وهي في الوقت نفسه وعرة المسالك مما جعل الطواف حولها بحرا أكثر يسرا من سلوك طرقها ودروبها • ومع ذلك فقليلة هي المناطق التي لعبت في تاريخ البشرية دورا يشبه دورها أو يدانيه •

والجزيرة العربية كتلة مترامية الاطراف تبلغ مساحتها نحو ثلاثة ملايين من الكيلومترات المربعة، تمتد بين البحر الاحمر والمحيط الهندي والخليج العربي ، ويحددها في كل الجهات عدد من الصدوع واضحة المعالم الا في الشمال حيث تتدرج الهضبة الى ارض الحماد السورية ، ثم في بعض اجزاء من الشمال الشرقي حيث تنتهي الى سهول الخليج العربي •

ويقع معظم وسط الجزيرة العربية وغربها على ارتفاع يتراوح بين ٦٠٠ متر و ٩٠٠ متر فوق سطح البحر ، وان تكن هناك جروف تزيد عن ذلك كثيرا • وقد مالت الهضبة حتى أصبحت حافات الجانب الغربي أكثر ارتفاعا من حافات الجانب الشرقي ، وتسود الصخور النارية على طول الجانب الغربي من جنوب غرب سورية حتى عدن • وادى تدفق الطفوح على طول خطوط الانكسارات الى رفع مستوى السطح في بعض الجهات وتكوين هضاب بازلتية واسعة تعلوها أحيانا مخروطات بركانية قد يتجاوز ارتفاعها ١٥٠٠ متر ولكن هذه الآثار البركانية تقل كلما اوغلنا في اليابس حتى تكاد تختفي في القسم الشرقي من شبه الجزيرة •

وتتغطى الهضبة بصفة عامة بتكوينات رملية ، وهي أرض صحراوية جافة تخلو من الانهار ولكن يقطعها عدد من الاودية العميقة الجافة ، أكثرها نضجا هي تلك التي تتبع ميل الهضبة في الشرق وفي الشمال الشرقي ، ومن ثم تنفتح على الخليج العربي وحوض الفرات •

وليس من هدف هذا البحث ان يفصل الحديث عن جغرافية الجزيرة العربية ، وحسبنا ان نشير الى ان التضاريس الوعرة التي عليها الجزيرة والمساحة الشاسعة التي تشغلها ، وقلة موارد الماء التي تتميز بها ، كل اولئك جعلها مجهولة من العالم الخارجي بل والعالم القريب منها •

وفي القرنين الآخرين فقط نشطت الدول الاستعمارية على اطرافها وتوافد عليها في القرن التاسع عشر الرواد من جميع الجهات لاختراق داخلها وجمع المعلومات عن هذا الداخل الغامض لا حبا في العلم أو بحثا عن المعرفة ولكن لاغراض استعمارية ، حتى خلصت السيطرة على معظم سواحلها لدولة بحرية استعمارية هي بريطانيا •

وهكذا وفد الى الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر كثير من الرحالة من امثال دكتور سيتزن (١٨١٠) Steezen الذي زار الجهات الجنوبية من بلاد العرب ، والرحالة السويسري يوهان لود فيج بوركهارت (١٨١٤) الذي زار الحجاز في زي حاج منتحلا اسم ابراهيم بن عبد الله . والضابطان ولسيتد J. R. Welseeted وكروثندن C. Cruthender (١٨٣٥) اللذان قاما بأول محاولة لاجتياز حضرموت، وأدولف فون فردي (١٨٤٣) Adolf Von Werde الذي استطاع الوصول الى وادي دوغان وتوغل حتى بلغ اطراف الربع الخالي. وجورج أوغسطس والين George Augustus Wallin (١٨٤٥) الذي زار نجد وكتب عنها والصيدلي الفرنسي توماس يوسف أرنو (١٨٤٥) Thomas Joseph Arnoud الذي قام برحلة الى اليمن (١٨٥٤) والسير ريتشارد بيرتون Sir Richard Burton وقد زار الحج متنكرا مع الحجاج كما فعل بوركهارت من قبل . وبالجريف W. G. Balgrave (١٨٦٢ — ١٨٦٣) الذي زعم انه زار بريدة والرياض والخرج والأفلاج وكانت رحلته محل شك . ويوسف هاليفي Joseph Halevey (١٨٦٩) اليهودي الفرنسي الذي دخل اليمن في هيئة يهودي متسول من اهل القدس. وتشارلس دونتي (١٨٧٧) Charles M. Dougnty الذي وضع كتابا عن اسفاره في الجزيرة وكان متعصبا ضد الاسلام ولكنه لم يستطع ان ينكر الفضائل التي يتحلى بها البدو . والسيدة آن بلنت (١٨٧٩) Anne Blunt التي تجولت في شمال بلاد العرب وبلغت أرض نجد ، وغير هؤلاء كثيرون مما لا يتسع المجال لذكرهم .

ورغم الكثرة لرحالة القرن التاسع عشر وما تلاه ، فان الامر

لم يكن كذلك في القرن الثامن عشر وما سبقه من قرون • ولعل اول من تعرف من الرحالة القدماء الذين زاروا جزيرة العرب هو الجغرافي المؤرخ استرابون Strabon فقد رافق الحملة التي قام بها صديقه القائد الروماني أوليوس جالاس Aelius Gallus لغزو الجزيرة لاول مرة في التاريخ سنة ٢٥ قبل الميلاد ووصل الى نجران ولكنه هزم عند نسكة Nesca التي يظن انها خربة البيضا الخالية • وقد خصص استرابون فصلا خاصا في الجزء السادس عشر من كتابه لوصف الاحوال الاجتماعية والاقتصادية لجزيرة العرب كما شاهدها •

ثم يصادفنا من بعد استرابون رحالة يوناني لا نعرف اسمه وضع في نهاية القرن الاول للميلاد كتابا بعنوان « الطواف حول ارتريا »وهو البحر الاحمر Periplus or de Nari Erythraes ويبدو انه كان تاجرا يطوفه بالسواحل فلم يهتم بشيء سواها • أما الأقسام الداخلية من بلاد العرب فلم يكن يعرف عنها شيئا فيما يبدو •

وتصمت المصادر بعد ذلك ، فلم نعد نسمع عن رحالة وفدوا على الجزيرة العربية وكانها قد انعزلت عن العالم فلم يعد لها به صلة • وهو أمر نشك فيه ، فالقرآن الكريم يقص ان كانت قريش تقوم بنقل متاجر اليمن والبلاد الحارة الى الشام والمناطق الخاضعة للروم • « لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف » • وهو يبين في موضع آخر ان العرب كانوا على علم بانقسام العالم على ذلك العهد الى قوتين عظيمتين هما الفرس والروم : « الم ، غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون » فاذا كان هذا هو شأن العرب كما جاء في كتاب الله وهو اصدق القائلين فهل نستبعد أن يكون بعض المغامرين

من رحالة الروم قد زاروا جزيرة العرب وتوغلوا فيها ؟ انه افتراض ليس لدينا عليه دليل مكتوب ، ولكنه أمر غير مستبعد على اي حال .

وتشيخ الحضارة الرومانية وتتقوض اركانها امام غزاة البرابرة من وسط اوروبا في القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد ، فيبربرون روما بدلا من ان تصقلهم هي بحضارتها ، وتسقط روما ولكن تبقى القسطنطينية عاصمة للامبراطورية في الشرق حتى عام ١٤٥٣ . أما في الغرب فقد لفظت نفسها الأخير وران على اوربا ظلام العصور الوسطى التي امتدت نحو تسعة قرون انبعث خلالها نور الاسلام، ولم يمض قرنان على ظهوره حتى كان قد شرق حتى بلغ حدود الصين ، وغرب حتى انتهى الى سواحل بحر الظلمات (المحيط الاطلسي) وعبر مضيق الزقاق (جبل طارق) واوغل في اوربا حتى نهر اللوار ثم توقف في بواتييه .

وعادت اوربا تتعرف الى العرب الذين جاءوا بذلك الدين السمح وتلك الحضارة الزاهرة ، ولكنها لم تحفل بالبلاد التي جاءوا منها بعد ان اصبحت مراكز الحضارة العالمية في بغداد والقاهرة وقرطبة وطليطلة وليس في مكة والمدينة ، بل ونما نوع من الحقد في نفوس الاوربيين على البلاد التي ولد فيها المصطفى عليه الصلاة والسلام وعلى الدين الذي جاء به . وتجلى هذا الحقد في الحروب الصليبية ، وحاول احد امرائهم وهو رينولد دي شاتيون صاحب الكرك غزو الاجزاء الشمالية من جزيرة العرب ولكنه باء بالفشل سنة ١١٨٢ حيث هزمته جيوش صلاح الدين على بعد مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة .

وجاء عصر النهضة الاوربية ونشطت حركة الكشوف الجغرافية وكان البرتغاليون اسبق شعوب اوربا الى الاسهام في هذه الكشوف ،

وكانت جزيرة العرب من البلاد التي سمعوا بها دون أن يروهـا • ومن ثم فقد وفد اليها سنة ١٤٨٧ على عهد ملكهم جون رجل منهم يحسن الكـلام بالعربيـة يدعى بيتـر دى كويـلان Peter de Couillan (Pero de Couilha) روى عنه انه زار مكة والمدينة وهي رواية تحوم من حولها الشكوك وسواء صحت او لم تصح فنحن لا نعرف عن رحلتـه سوى ما روي عنه وعنها فهو لم يكتب عن الرحلة أي شيء •

بعد ستة عشر عاما من هذه الرحلة قام لود فيكودي فارتيمـا Ludvico de Varthima برحلته وكان مغامرا بولنديا فيما يقال وان انكر عليه بعض الكتاب هذا الأصل وزعموا انه كان نبيلا رومانيا ادعى البولندية ، ولا تهمنا جنسيته بقدر ما تهمنا مذكراتـه التي كتبها عـن رحلته الى جزيرة العرب ، تلك المذكرات التي صادفت من الرواج عند صدورها أكثر مما صادفت كتب رحلات أخرى حتى لقد ترجمت الـى كثير من اللغات • وكان الدافع لفارتيما الى رحلته حب المغامرة والرغبة في كشف المجهول كما يروي هو في صدر مذكراته حيث يقول انـه قد عقد العزم على زيارة البلاد التي لم يقم اسلافه بزيارتها من قبل • وقد ابحر فارتيما من البندقية في سنة ١٥٠٣ فزار القاهرة وبيروت وطرابلس وحلب ثم استقر في دمشق قرابة عام يتعلم فيها اللغة العربية ، وتعرف فيها على ضباط من المماليك عهد اليه والى كتيبته بحراسة الحج الشامي، وبطريقة ما استطاع ان يلتحي بالكتيبة وتزيى بزي المماليك وتحدث العربية بعجمتهم •

وسارت القافلة فمرت بأرض حوران حيث أقامت ثلاثة أيـام في بلدة المزيريب وسجل فارتيما في مذكراته انطباعاته عن بـدو حوران

وشجاعتهم وركوبهم الخيل بلا سروج • ثم واصلت القافلة رحلتها ، ولم يذكر الرحالة اسماء المواقع التي نزلت بها واكتفى بذكر المزيريب ومكة والمدينة • ولكن يبدو من كتاباته أن القافلة قد اجتازت صحـراء النفود فهو يذكر أنها اخترقت منطقة قاحلة هلك فيها من العطش ثلاثون شخصا بالاضافـة الى عدد من المحتضرين تركوا على جوانب الطريق •

وبعد مسيرة اثنين وعشرين يوما تمر القافلـة بما يسميـه مدينتي « سدوم وغموره » ويروي ما قرأه في التوراة عن هاتين المدينتين التـي حاقت بهما اللعنة التي أصابت قوم لوط ، ولا شك أن صاحبنا كان مخطئا فيما ذهب اليه فالمدينتان تقعان في نواحي البحر الميت وليس في جنوب صحراء النفود • وأغلب الظن أنه شاهد خرائب مدائن صالح والعلا فاختلط عليه الأمر وروى ما رواه •

ثم تتحدث مذكرات الرحالة عن منطقة يسكنها قوم من اليهود يبلغ عددهم قرابة الخمسة آلاف ، يجاهرون بيهوديتهم ويكرهون المسلمـين كرها شديدا ويعيشون شبه عراة واصواتهم شبيهة باصوات النساء ولاشك ان هـؤلاء هم بقايا يهود خيبر الذين كـانوا ينزلون غير بعيـد مـن المدينة •

وتبلغ القافلة المدينة المنورة ويدهش فارتيما دهشة بالغة عندما يرى قبر الرسول فقد كان اعتقاده أن جثمانه الطاهر معلق في الهواء فهكـذا كانت الخرافات التي تروى في اوربا عن الاسلام والمسلمين، ويصحح فارتيما لاوربا خطأها • ويكتب في وصف مسجد المدينة وكيف يضم بجانب قبر الرسول قبري أبي بكر وعمر ولكنه يخطىء عندما يذكر ان المسجد يضم كذلك قبور عثمان وعلي وفاطمة الزهراء والتاريخ الثابت يروي ان عثمان

دفن بالبقيع وان عليا كان النجف مثواه الأخير ، ويسهب فارتيما في وصف المسجد النبوي وشكله المربع واعمدته الاربعمائة ومصابيحه التي تربو على ثلاثة آلاف وتظل مضاءة بالليل والنهار .

ويصل فارتيما الى مكة المكرمة ويعجب بالمدينة المقدسة ويصف ما يحيط بها من جبال وكيف انها تقع في واد غير ذي زرع تهوي اليه افئدة الناس مما جعلها مركزا للتجارة تتجمع فيها تجارة الهند والبنغال وفارس ومصر وسورية وبلاد الحبشة ، وتمتلىء اسواقها بالجواهر والعطور والمنسوجات القطنية والحريرية وتحيط المتاجر بأبواب المسجد ، وتزدحم المدينة بالناس بشكل لم ير له فارتيما مثيلا من قبل .

ويصف الرجل الحرم المكي وصفا دقيقا ويعجبه مظهره فيقارن بينه وبين مدرج الكوليزيوم في روما ، ثم يعرج على وصف الكعبة واستارها الحريرية السوداء وبابها المصنوع من الفضة الخالصة والذي وضع على جانبيه اناء مملوء بالعطر ، ثم يتكلم عن مناسك الحج من طواف القدوم والصعود الى عرفات والنزول الى منى ، والاضحية وكيف توزع لحومها، ورمي الجمرات وطواف الافاضة ، وهكذا لا يترك منسكا الا وصفه وكانما هو يضع دليلا للحجاج . ولا يفوته ان يتحدث عن حمام الحرم وكيف يحرم ذبحه ويعلل ذلك بان هذا الحمام هو من نسل الحمامة التي عششت على النبي في الغار . ومما يدعو الى الدهشة ما يذكره من أنه رأى في جانب من جوانب الحرم اثنين من حيوان وحيد القرن لا يؤذيان احدا . ولا نستطيع ان نفسر مثل هذا القول من رحالة اتسمت كتابته بالموضوعية وكان صادق الرواية الى حد كبير .

وتنتهي مناسك الحج ويتأهب الحجاج للعودة الى دمشق ، ولكن

فارتيما لا يريد ان يعود فهو لا يزال متلهفا الى ان يرى عن بلاد العـرب أكثر مما رأى ، وإن يصل الى ذلك الجزء الذي عرف باسم العربية السعيدة Arabia Felix وكان هو كل بلاد العرب في نظر الاوربيين • ولكن انى له هذا والأبواق تتعالى بدعوة المماليك للالتحاق بكتيبتهم وصوت المنادي ينذر المتخلفين بالاعدام شنقا ؟ ! ولكن الحظ يواتيه عندما يرسله سيده الضابط الى السوق لشراء بعض لوازمه ، ففي السوق احتك به احـد الاشخاص واتهمه في اسلامه اذ سبق له ان رآه في روما • ومع انه حلف بأغلظ الايمان انه على دين الاسلام فلم يصدقه متهمه ، ولم يجد مفـرا من ان يصحب الرجل الى منزله عساه يتمكن من اقناعه بعيدا عن اعـين الناس ، وفعلا اقتنع الرجل بعد أن شرح له فارتيما انه اسلم في القاهـرة وانخرط في سلك المماليك • ونشأت بين الرجلين صداقة استغلها فارتيما في أن يختبىء بمنزله حتى رحلت قافلة الحج الشامي فودع صديقه العربي ورحل الى جدة فقضى فيها اسبوعين ملازما لمسجدها لا يبرحه الا ليـلا لشراء الطعام •

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ومن جدة اقلع فارتيما في سفينة متجهةالى بلاد فارس ويصف رحالتنا في مذكراته رحلة البحرية هذه فيتحدث عن شعاب المرجان القريبة مـن سطح الماء والتي تمثل خطرا على الملاحة فيما بين جدة وجزر قمران• وترسو السفينة في ميناء جيزان الذي يعد فيه نحو خمسين سفينة ويدهش لجمال الميناء ومن البلدة التي لم يكن يتصور ان يجد فيها كل انواع الفاكهة التي رآها • وتقلع سفينتة من جيزان فتصل الى عدن التي يصفها بانها مـن أقوى المدن تحصينا ولم ير في حياته ما يدانيها في حصونهـا اذ تحيط بها الجبال والاسوار العالية وتقوم على حمايتها خمس قلاع • وهي شديدة الحر حتى أن الأسواق تقام فيها بعد منتصف الليل • وترسو في مينائها

كثير من السفن وما ان ترسو سفينة حتى يهرع اليها رجال السلطان لتحصيل المكوس ، وينزعون اشرعتها وسكانها ليحولوا دون هربها قبل دفع المكوس المتوجبة عليها .

وكانت عدن في مطلع القرن السادس عشر قد بدأ يهددها البرتغاليون الذين اصبحت لهم السيادة على سواحل شبه الجزيرة العربية قبل ان تظهر شركة الهند الشرقية الهولندية ونظيرتها البريطانية في القرن التالي . وكان طبيعيا ان يتشكك اهل عدن والحالة هذه في ركاب السفن التي ترد الى فرضتها . وقد احاطت الشكوك بفارتيما فاتهم بالنصرانية والجاسوسية معا والقي القبض عليه ثم افرج عنه بعد شهور في قصة يرويها ولا نشك في انها من نسج خياله . واستطاع بعد اطلاق سراحه ان يزور الحج وتعز وصنعاء وزبيد ، وتحدث عن الخصومة بين الشوافع والزيود ولكنه لم يفهم طبيعة هذه الخصومة وما كان له ان يفهمها وهو يجهل تاريخ الاسلام . ويبدي الرحالة اعجابه بصنعاء واسوارها وينابيعها وبساتينها ، ثم ينتهي به المطاف الى عدن مرة اخرى ومنها يركب البحر فيزور اثيوبيا وبلاد فارس والهند وفيها ينضم الى جيش البرتغال ويحارب معه بعض المعارك ومن ثم ينعم عليه ملك البرتغال بلقب فارس عندما يعود الى لشبونة في سنة ١٥٠٨ ومن لشبونة يرحل الى روما ويعيش في كنف اسرة سفورزا التي ساعدته على نشر مذكراته . وكما نجهل بداية حياته نجهل خاتمة هذه الحياة . ولكن الذي نعرفه ان الرجل كان دقيق الملاحظة الى حد كبير في كل ما سجله من وقائع رحلته . ولم يكن لود فيكودي فارتيما جغرافيا بطبيعة تكوينه فكان اكثر اهتماما بمغامراته الشخصية منه بالمسرح الذي مثلت عليه ولكن كانت له هنا وهناك ملاحظات بارعة .

ويأتي من بعد فارتيما رواد زاروا بعض اجزاء الجزيرة العربية وبخاصة

المناطق الساحلية منها ولم يكن غرضهم الرحلة لذات الرحلة والسعي وراء المعرفة ، وانما لأغراض اخرى فقد تميز القرن السابع عشر بالصراع بين البرتغاليين الذين سبقوا غيرهم في الوصول الى الشرق وبين شركتي الهند الهولندية والبريطانية ، وأخذت كل من الشركتين تسعى لاقامة علاقات تجارية مع حكام اليمن والجنوب العربي كتلك التي انشأها البرتغاليون، خاصة وان البن قد عرف ، وبدأت القهوة تنتشر كمشروب في اوربا، واصبحت جزيرة العرب في نظر الاوربيين بلاد البن قبل أي شيء آخر ، وارسلت الشركة الهولندية فان دي بروكه ثلاث مرات الى سلاطين الجنوب العربي واستطاع بمعاونة هؤلاء السلاطين التجول في بلاد اليمن وارسلت الشركة البريطانية الكابتن الكسندر شاربي (١٦٠٩) Alexander Sharpey الى عدن والبحر الاحمر ثم ارسلت من بعده هنري ميدلتون Henry Middleton فزار عدن والمخا حيث أسر وارسل به الى صنعاء التي يسميها Zenan ويصفها بأنها اكبر من برستول ومبانيها من الحجر وفي الجانب الشرقي منها القلعة وفي الغرب تنتشر البساتين . ويفك أسره فيعود الى المخا مارا بذمار التي يصفها بأنها حسنة البناء وتتكون كغيرها من القرى من خمسة احياء منفصلة .

ولم تقف فرنسا بمعزل عن تجارة البن بعد ان شاع استعمال القهوة فيها حتى تغنى شعراؤها بذلك المشروب الأسود الوافد من الشرق فأسس تجار سان مالو St.Malo شركة لاستيراد البن من مصدره الأصلي في اليمن فأرسلوا لهذا الغرض بعثتين في مطلع القرن الثامن عشر كانت اهمها الرحلة الثانية التي كان على رأسها الجراح باربييه Barbier والضابط دي لا جريلوديير Major de la Grelaudière ولم يصلنا التقرير الذي قدماه عن الرحلة الى لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، ولكن قصة الرحلتين

قد سجلها لاروك La Roque ونشرها في كتاب بعد عودة الرحلة الاخيرة ببضع سنوات •

وفي القرن الثامن عشر زاد رخاء اوربا لما تدفق عليها من خيرات المناطق التي استعمرها ، ومع الرخاء تتسع آفاق العلم وتزداد الرغبة في المعرفة • وتنشط حركة الاستشراق في كثير من البلاد الاوربية وتوجه العناية الى دراسة التراث العربي والوقوف على احوال العرب وبلادهم وتاريخهم وادابهم • وفي سنة ١٧٥٩ تظهر في اوربا لأول مرة فكرة ارسال بعثة علمية لدراسة الجزيرة العربية •

كان صاحب الاقتراح هويوهان ديفيد ميخائيلس استاذ الدراسات المتعلقة بالكتاب المقدس وفقه اللغة العبرية بجامعة جوتنجن Gottingen وقد استطاع ان يقنع الكونت برنشتروف J. H. E. Bernstroff وزير خارجية فريدريك الخامس ملك الدنمرك بضرورة اتخاذ الخطوات اللازمة لتحقيق بعض المسائل الجغرافية التي وردت في الكتاب المقدس (التوراة) خاصة بجزيرة العرب ، وكانت الدنمرك في ذلك الوقت من الدول ذات المركز المرموق في اوربا • وصادف الاقتراح قبولا لدى الملك وكان من مظاهر اهتمامه به ان شارك في رسم خطة العمل للبعثة المقترحة وفي وضع قائمة بالمشكلات المطلوب الوصول الى حلها •

وفي صباح اليوم الرابع من يناير سنة ١٧٦١ أبحرت الباخرة الحربية « جرينلند » من ميناء كوبنهاجن في طريقها الى الشرق وعلى متنها خمسة من العلماء لكل منهم تخصصه ومعهم خادمهم الدنمركي الذي كان من جنود سلاح الفرسان السويدي المسرحين •

كان هؤلاء العلماء الخمسة الذين تكونت منهم البعثة هم :

١) الاستاذ بيتر فورسكال Prof . Peter Forskall وهو سويدي مولدا ومن تلاميذ العالم الكبير ليناوس Linnaeus ومع أن مهنته الطب فقد كانت له دراية واسعة بعلم النبات •

٢) الدكتور كريستيان كارل كرامر Dr. Christian Carl Cramer وهو دينمركي متخصص في الجراحة وعلم الحيوان •

٣) الاستاذ فريدريك كريستيان فون هافن Pref . Friedrich Christian Ven Haven وهو دينمركي كذلك متخصص في فقه اللغة والدراسات الشرقية •

٤) الهرجورج ولهلم بورنفيند Herr . George Welheim Baurenfeind وهو رسام أنيطت به مهمة الرسوم الفنية وحفرها على النحاس •

٥) المهندس كارستن نيبور Carsten Nieouhr الألماني الذي بدأ حياته فلاحا يساعد والده في الحقل ثم هوى المساحة العلمية والتحق بجامعة جوتنجن يدرس الفلك والرياضيات •

لم يكن لأحد من هؤلاء الرئاسة على الآخرين ، فكلهم لـه مؤهلاته ومكانته ، وبهذا قضت تعليمات الملك ، واذا كان لأحد منهم أفضلية فهو لفورسكال وفون هافن لاجادتهما اللغة العربية • وطلب الى كل منهم أن يعاون زملاءه ولكن على أن يظل له ميدان عمله الخاص الذي سيقدم عنه تقريرا عند عودته • ولكن مع الأسف لم يعد سوى واحد منهم هو كارستن نيبور الذي قدر له أن يبقى على قيد الحياة فيعود الى الدنمرك ويقدم تقريرا عن رحلته ويضمنه الملاحظات غير الكاملة التي سجلها رفاقه •

ولسنا هنا في حاجة الى تتبع البعثة الدنمركية في رحلتها من مرسليا الى استنابول والاسكندرية والقاهرة . كل ما يعنينا هو أن البعثة وصلت جدة في التاسع والعشرين من اكتوبر سنة ١٧٦٢ ودهش اعضاؤها للمعاملة الكريمة التي لقوها من الأهالي. ومن جدة ساروا الى القنفدة فاللحية وهم يرتدون الملابس الوطنية ، ويقولون عن أنفسهم أنهم في طريقهم الى الهند. ولكنهم أخذوا يتجولون بين المدن اليمنية فذهبوا اولا الى بيت الفقيه وكانت انذاك أكبر مراكز تجارة البن ، ومنها تفرقوا فقرر نيبور أن يرتاد اقليم تهامة ، وصعد فورسكال في الهضبة يجمع نماذج من النباتات ، وأوغل الآخرون في الداخل فبلغوا تعز وزبيد ، ثم عاد الجميع فاجتمعوا وبداية الصيف في بيت الفقيه ، ومنها هبطوا الى المخا وكان كرامر المتخصص في علم الحيوان قد جمع بعض الثعابين واحتفظ بها في أواني مملوءة بالكحول مما أدى الى ان يرتاب فيه رجال الجمارك وأن يتلفوا مقتنياته. وفي المخا توفي فون هافن فحرمت البعثة من أكثر أعضائها علما باللغة العربية وقررت ان تترك المخا وتنتقل الى تعز حيث المناخ اكثر ملاءمة للصحة . وفيها تلقوا دعوة من امام اليمن لزيارة صنعاء . وفي الطريق اليها هلك فورسكال . ولم يقضوا في صنعاء سوى عشرة أيام عادوا بعدها الى المخا حيث استقلوا مركبا متجهة الى الهند وعلى ظهرها توفي الرسام بورنفيند ثم لم يلبث أن تبعه الخادم السويدي. ثم لحق بهؤلاء كارل كرامر بعد أن بلغت البعثة بومباي بأيام قلائل .

بقي كارستن نيبور وحيدا بعد وفاة رفاقه. ولكن هذا الموقف الأليم لم يفت من عضده ، فقرر العودة الى الجزيرة العربية ليتم مهمته ، وقفل عائدا الى عمان فوصل مسقط في يناير سنة ١٧٦٥ ، ولم يمكث طويلا بعمان ليجوب جهاتها المختلفة اذا كانت المدة التي حددها الملك الدنمركي للبعثة قد انتهت . ومن ثم سافر نيبور وفقا لخطة السير التي وضعها الملك

من قبل فزار بلاد فارس والعراق والشام وتركيا ودول اوربا الوسطى حتى انتهى الى كوبنهاجن فوصلها في ٢٠ نوفمبر ١٧٦٧ بعد أن غاب عنها ما يقرب من سبع سنين • وكان الملك فردريك الخامس قد مات ، فلم يحفل أحد بعودة نيبور من رحلته ولكن الكونت برنشتروف يقدمه للملك الجديد فيجد من الرعاية لديه ما يشجعه على كتابة قصة الرحلة •

عكف نيبور على كتابةمذكراته باللغة الألمانية ونشر الجزء الأول منها في سنة ١٧٧٢ وفيه يروى قصة الرحلة من كوبنهاجن حتى بومباي • ثم عمد الى نشر مذكرات فورسكال في السنة التالية • وأتبعها بنشر ما أعده بورنفيند من رسوم للنباتات والطيور والاحياء المائية وفاء منه لذكرى رفيقيه • ثم نشر الجزء الثاني من مذكراته • واستنفدت هذه الاعمال كل ما بقى لديه من مال فبقى الجزء الباقي من المذكرات مخطوطا حتى نشر في سنة ١٨٠٨ • وترجمت مذكرات نيبور فيما بعد الى اللغتين الفرنسية والانجليزية •

ويهمنا في هذا البحث الجزء الأول الذي نشر في كوبنهاجن بالألمانية بعنوان وصف بلاد العرب « Beschreibung Von Arabien, » Copenhagen ,1772 . والذي ترجمه الى الانكليزية سيلي ونشرت الترجمة في سنة ١٧٨٩ C. W. H. seely , « Discription of Arabia » Bombay , 1789 . ولما كانت هذه الطبعة ناقصة فقد اعيد نشرها في عام ١٧٧٤ في مجلدين بعنوان رحلات الى الجزيرة العربية
« Reisebeschreibung nach Arabian » Copenhagen , 1774 - 8
وقد ترجمها ملخصة الى الانجليزية هيرون ونشرها في ادنبره سنة ١٧٩٢•
« R. Heron : Travels in Arabia » 2 Vols . Edinburgh , 1792 .
لم يمكث نيبور كما تروى مذكراته أكثر من اثني عشر شهرا في الجزيرة

العربية، ولم يزرسوى جزء محدودمنها كان معظمه مماسبق للاوربيينمعرفته ونعني به اليمن وما جاورها • فما الذي جعل لهذه المذكرات ما بلغته من الأهمية ؟ ! ان السر في هذا يرجع الى عقلية الرجل نفسه وطريقته في جمع المعلومات • فقد كان يسأل كل من يصادفه وكان قد تعلم من العربية ما يكفي للسؤال والفهم • وكان لديه من الأسئلة ما يدور حول كل شيء • وكان يغربل المعلومات التي يحصل عليها بقصد تنقيتها ، ويمحص كل ما يثبت من حقائق • وكان يلقي نفس السؤال على عدة أشخاص من مختلف المستويات ليتأكد من صحة الجواب • ولهذا جاءت كتابته ممتازة في نوعيتها دقيقة في أخبارها • ومنها نعرف الشيء الكثير عن أحوال الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر عن السكان وتقاليدهم وطبقاتهم الاجتماعية وعاداتهم في المأكل والملبس والمسكن وأسلوبهم في الاستقبال والتحية ، وعن الحياة الاقتصادية وما تنتجه البلاد من غلات •

ولا شك أن نيبور قد عرف اليمن أكثر مما عرف غيرها من جهات الجزيرة العربية ، فوصفها وصفا دقيقا جغرافيا وتاريخيا وصور تجزئتها السياسية وكيف انقسمت الى عدد من الامارات المستقلة منها صنعاء وعدن وأبو عريش والجوف ونجران وبلاد حاشد وبكيل ، ونهم ، وخولان ، وكوكبان • وكيف ان تاريخ الحضارة اليمنية كله تصوره أربعة مدن هي صنعاء التي تعرف بالمدينة لعظم نفوذها،وتعزذات الرياض الزاهرة والزروع اليانعة حتى لقبت بالروضة ، وزبيد ذات الثقافة المزدهرة والدراسات الاسلامية الواسعة ،ثم زمار التي اشتهرت بخيولها العربية الاصيلة • وقد رسم نيبور خريطة لليمن صححت كثيرا من الاخطاء • ولو أنه تمكن من زيارة سائر انحاء الجزيرة العربية لجاءنا بخارطة تفوق كل ما سبقها من خارطات فقد كان الرجل مساحا بارعا يجيد استخدام ما لديه من ادوات الرسم والقياس •

وتحدث نيبور عن المشيخات العديدة التي وجدها على ساحل الخليج العربي وعن الخصومات القائمة بين حكامها ، وعن النزاع الدائر بين امير الكويت المتمسك باستقلاله وامير الحسا الطامع في ضم هذه الامارة الى املاكه ، وعن خراب قرى البحرين بسبب الحروب المتتالية حتى لم يبق بها سوى خمسين قرن وكان بها من قبل ٣٥٠ مدينة وقرية يعمل معظم سكانها في استخراج اللؤلؤ •

ويشير الى ان الحسا يحكمها شيخ عشيرة بني خالد ، وهي من اقوى العشائر العربية ويدين لها بالولاء عدد من العشائر الصغيرة وسكان الحساسنة وشيعة ، فالسنة هم اهل القرى والبادية اما الشيعة فهم سكان المدن ، ويخطىء الرجل حينما يذكر ان من بين السكان عدد من الصابئة واليهود •

ومع ان نيبور لم يزر جدة فان حديثه عنها يدل على فطنته ودقة معلوماته • فهو عندما كان في الجزيرة العربية كانت دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب الاصلاحية قد اخذت تنتشر ، فيدرك أهمية هذه الدعوة ، ويصور الحالة المؤسفة التي كانت الجزيرة قد وصلت اليها فأثارت سخط الامام المصلح • ويتنبأ بنجاح الدعوة ويرى ان معظم ما يقال عنها هي مزاعم باطلة يروجها اعداء الاصلاح ، وينسبون اليها بالباطل أمورا هي ابعد ما تكون عنها •

لقد كان نيبور مثال الرحالة الفطن والكاتب المنصف • كان يتنقل في الجزيرة العربية ممتطيا حمارا ، ومرتديا زيا عربيا ، ومنتحلا اسم عبد الله لشيوعه بين المسلمين والمسيحيين على السواء ، ومحاولا ان يكون كاحد ابناء البلاد في سيرته وتصرفاته ، ونجده يحذر من يريد التجول في الجزيرة العربية الا يظنها رحلة نزهة • وعلى الشبان الذين يحبون الرفاهية

والاكل الجيد ومعاشرة النساء الا يفكرون في الرحلة الى هذه البلاد ، فالرحلة اليها تحتاج الى جاد وصبر .

وكان نيبور منصفا للعرب على عكس كثير من الكتاب الأوروبيين، فهو يرى ان لكل شعب فضائله ونقائصه ، وان ما ينسب الى عرب من نقائص لا يختصون بها وحدهم ولكنها شائعة في اوربا ذاتها ، وان لهم من الفضائل الشيء الكثير ، فهم قوم ودودون يستطيع المرء ان يتجول بينهم في حرية كاملة شريطة الا يمس احساساتهم ، وهم يحبون الصدق ويكرهون الخداع ، وهم يعرفون انهم لم يخلو من نقائص وعيوب ولكنهم لا يغفرون لاحد ان يسخر من هذه النقائص . وهم يختلفون عن شعوب اوربا جميعا في انهم يساعدون الاجنبي على تعلم لغتهم ، ولا يسمحون لانفسهم بالسخرية منه اذا هو اخطأ التعبير بل يجدون في هذا شيئا من الفكاهة ، ويحاولون ان يردوه الى الصواب .

هكذا كان كارستن نيبور الرحالة المثالي المنصف والكلف بالمعرفة الصحيحة ، فلا عجب ان كان اشهر من كتب عن الجزيرة العربيه في القرن الثامن عشر ، وفتح باب الرحلة العلمية الاصلية لمن جاء من بعده من الرحالة والجوابين .

الحقوق الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمرأة في المجتمع اليمني

الدكتور سلطان ناجي
اليمن

سيحاول هذا البحث مناقشة ثلاث قضايا أساسية هي : ـ

أولا : وضع المرأة في اليمن الطبيعية منذ القديم وحتى قيام ثورتي ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ م في صنعاء و ١٤ أكتوبر ١٩٦٣ م في عدن وذلك من خلال النصوص والاشارات التي استطعت التقاطها من مصادر يمنية مختلفة وسيتبين لنا بأن أوضاع المرأة اليمنية في كثير من الاحيان تختلف باختلاف الاوضاع الجغرافية للمنطقة • فأوضاعها في تهامة تختلف عن اوضاع أختها في الهضاب والمرتفعات ، كما أن أوضاعها في المدن تختلف عن اوضاعها في البوادي والاودية وقس على ذلك الاختلافات الناتجة عن المحيطات الطبقية أو المذهبية والطائفية والسياسية التي كانت سائدة في المجتمع اليمني الى وقت قريب •

وثانيا : وضع المرأة في اليمن بعد ثورة سبتمبر ١٩٦٢ م في شمال اليمن وتأسيس « الجمهورية العربية اليمنية » وكذلك بعد قيام ثورة اكتوبر في جنوب اليمن ١٩٦٣ واستقلال هذا الجزء عن الاستعمار البريطاني

ثم تأسيس « جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية » وبالذات بعد صدور الدستور عام ١٩٧٠ م الذي ضمنت بالذات مادته رقم « ٣٦ » الحقوق المتساوية للرجال والنساء في جميع مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والتوفير بشكل تقدمي الشروط اللازمة لتحقيق تلك المساواة ، ثم اعقب ذلك من صدور القانون رقم « ١ » لعام ١٩٧٤ م بشأن الأسرة والذي يكاد يكون فريدا في نوعه في بعض مواده •

وثالثا : النتائج العملية المترتبة عن هذه التشريعات والتجربة الجديدة في هذا الجزء من جنوب الجزيرة العربية بهدف ان يأتي هذا البحث مكملا أو موضوعا للمقارنة مع الابحاث الاخرى التي تبحث في وضعيةأخت المرأة اليمنية ، شقيقتها في المجتمع العربي •

١

على العموم لعبت المرأة اليمنية دورا بارزا في التاريخ اليمني ، فقد برز الكثير منهن على المسرح السياسي قبل الاسلام وبعده ، كما ظهرت أخريات في عالم الفكر والثقافة وكان لهن الاسهامات المبدعة في هذا المجال • ويكفي القول بأن منهن من كانت أعظم ملكة عربية قبل الاسلام وبعده كبلقيس وأروى • فملكة سبأ مذكورة في القرآن الكريم وكذلك في العهد القديم من الكتاب المقدس ، ورغم أن القصة في كلا الكتابين مختصرة الا أنها تشير الى مكانة تلك الملكة الرفيعة والى عظمة ملكها وبسط سلطانها وممارستها الشورى مع قومها • ومعظم الملكات المسلمات اللوائي جئن بالذات بعد القرن الرابع الهجري عند بداية نشوء الدويلات اليمنية المستقلة عن دار الخلافة قد اصبح يطلق عليهن « حفيدات بلقيس » •

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

وهذه هي أسمـاء بعض مشاهير النساء اليمنيات خـلال الفترة ما بين القرنين الرابع والثالث عشر الهجريين • فمثلا عند بداية تدهـور سلطة الدولة الزيادية في أواخر القرن الرابع نجد ان هند بنت أبي الحجش ابن زياد تصبح هي الكافلة لابن اخيها الامير القاصر وصاحبة الكلمة الاولى والسلطة الحقيقية للدولة خلال أربعين سنة كاملة وبدفنها حية مـن قبل أحد عبيدها الاحباش انتهت الدولة الزيادية في اليمن وقامت على انقاضها الدولة الجبشية النجاحية • وحتى الدولة الجبشية هذه عرفت ايضا بعض النساء الشهيرات (كالحرة أم فاتك) التي كانت في زمانها الملكة الفعلية وكان وزرائها اذا حضروا بين يديها يصغرون خدودهم بالأرض اكراما لها •

أما الدولة الصليحية (٤٣٩ ـ ٥٣٣ هـ) وكانت اشهر الدول الفاطمية في اليمن فالحقيقة ان تاريخها هو تاريخ المرأتين العظيمتين فيهـا وهمـا (أسماء بنت شهاب ، زوجة مؤسس تلك الدولة الداعي علي الصليحي والمشاركة له في الحكم و (أروى بنت احمد) زوجة ابنهما المكرم والتي حكمت اليمن أكثر مـن خمسين عاما • وقد بلغ مـن علو شأن السيدة (أسماء)ومكانتها في دولة زوجها أنه كان يخطب لها على المنابر ، فيخطب أولا للمستنصر الخليفة الفاطمي في مصر ، ثم لعلي الصليحي ثم لزوجته أسماء فيقال : اللهم وادم أيام الحرة الكاملة السديدة كافلة المؤمنـين •

وكانت اذا حضرت مجلسا لا تستر وجهها عن الحاضرين ، وفيهـا قـال أحد شعراء زمانها •

رسمت في السماح سنة جود ... لم تدع مـن معالم البخـل رسما
قلت اذ عظموا لبلقيس عـرشا ... دست أسماء من ذرى النجم أسمى

وأما أروى بنت أحمد (٤٤٠ ـ ٥٣٢ هـ) فقد وصفها المؤرخـون

بأنها « أعظم ملكات العرب في الاسلام » وقال آخرون بأنه كان يقال لها بلقيس الصغرى لرجاحة عقلها وحسن تدبيرها • ومن أوصاف المؤرخ اليمني عمارة لها بأنها كانت«قارئة ، تحفظ الأخبار والأشعار والتواريخ» وقد شاركت الملكة الحرة أروى زوجها في أمور الدولة ولما استروح الى السماع والشراب فوض الأمر لها • ويقول عمارة بأنها « استعفته في نفسها وقالت له أن امرأة تراد للفراش لا تصلح لتدبير فدعني وما أنا بصدده فلم يفعل » • وبعد موت زوجها وصراعها مع الأمراء الصليحيين المنافسين ، عينها الخليفة المستنصر ملكة بدون منازع على اليمن ومارست السلطة الكاملة على كل من شؤون الدولة والدعوة الفاطمية حوالى خمسين عاما • وقد رفعها الخليفة المستنصر الى مقام الحجج في سلسلة الدعوة الفاطمية وهي مرتبة فوق الدعاة ، فقام من يعترض على رفع أنثى الى مرتبة الحجة ، وناهض هؤلاء أنصار لها قاموا يدافعون عن كرامة الاناث ، وان لهن فضلا لا ينكر اذا تميزن بالصفات الحميدة المرغوبة • ومن أعمال هذه الملكة العظيمة بناء الطرقات، واهتمامها بالزراعة،وتحصين نسل الأبقار ، ونقل العاصمة من صنعاء الى ذي جبلة ، حيث كان هناك الاهتمام بالعمل والانتاج والزراعة ، بدلا من الحرب ولمع السيوف• كما أن أوقافها الزراعية على العلم والمدارس لا تزال تعرف الى الآن •

وكما أفرز المناخ السياسي والاجتماعي في العهد الصليحي الفرصة لظهور النساء البارزات في الحياة العامة فقد أوجد المناخ السياسي أيضا في عهد الدولة الرسولية (٦٢٧ ـ ٨٥٨ هـ) والتي تعتبر أشهر الدول اليمنية في العصور الوسطى الفرصة لقيام امرأتين شهيرتين في حياة تلك الدولة • فبعد قتل مؤسس تلك الدولة من قبل مماليكه وادخال المملكة في صراع مرير من أجل السلطة تصدت للموقف ابنة السلطان المقتول المعروفة بكنيتها (دار الشمس) وقامت تجمع الرجال وتحصن

العاصمة حتى تم الانتصار لها ونصبت أخاها الصغير سلطانا • وقد قدر لهذا السلطان وهو الملك المظفر أن يكون من أعظم ملوك بني رسول وملك ٤٧ سنة ، وكان لأخته مقام كبير في دولته ، كما كان لها مشاركة في الحكم والتدبير ولما ماتت في نهاية القرن السابع الهجري قال امام الزيدية في اليمن وقتذاك « ماتت بلقيس الصغرى » •

والمرأة الرسولية الأخرى هي ام الملك المجاهد الذي تولى الحكم وعمره اربع عشر سنة ، وكان التدبير في ملكه لأمه المعروفة كناية (بجهة صلاح) • وعندما قبض أمير الركب المصري على المجاهد أثناء حجة عام ٧٥١ هـ وأخذه أسيرا الى مصر ، وسارت هذه الأميرة مع رجالها وجنودها الى مكة واسترجعت كثيرا من أموال ابنها المنهوبة ، ثم عادت الى اليمن وألقت القبض على ابني ابنها خشية أن يخطر لأحدهما القيام على أبيه الغائب والاستيلاء على الملك • وبقيت تسوس البلاد وتسير الجند لتقاتل الخارجين وتنشر الأمن في البلاد حتى عاد السلطان المجاهد الى اليمن • ويقول الخزرجي مؤرخ الدولة الرسولية بأن حكمها كان فترة عدل واحسان وخصب وأمان وان لها آثارا حسنة في الدين ، وكانت تحب العلماء والصلحاء وتكرمهم وتجلهم وتعظمهم • وكانت تدور بيوت الناس تتفقدهم بالعطايا الوافرة •

واذا استعرضنا بعض أسماء النساء اليمنيات الشهيرات في مجال العلم والثقافة فسنجد أيضا أسماء لامعة تنافس الرجال في هذا المضمار • فهذه صفية بنت المرتضي (ت ٧٧١ هـ) تصدرت للتدريس والفتوى في الأمور العلمية ولها كتابات جيدة منها رسالة (الوجيز على صاحب التجويز) ودهما بنت يحي (ت ٧٣٧ هـ) لها مؤلفات كثيرة منها كتاب (الانوار في شرح كتاب الازهار) و (شرح منظومة الكوفي في المواريث)

و (كتاب شرح ابن الحاجب في الاصول) و (كتاب الجواهري في علم الكلام) أما فاطمة بنت أحمد بن يحي (ت ٨٤٠ هـ) فقد شهدوا لها بأنها كانت ترجع الى نفسها في استنباط الأحكام الفقهية • وقد أشار لها والدها بقوله

نساؤنا فاقت أئمتنا   في الفضل والتدريس والأخلاق [٢]

وكما اشتهرت هؤلاء النسوة في شمال اليمن فقد اشتهرت مثيلات لهن في شرق اليمن أو حضرموت في القرن التاسع الهجري أيضا • فممن اشتهرن بالصلاح والتقوى والمعرفة أمثال العارفة بالله (سلطانة بنت علي الزبيدي)و(السيدة وزيرة بنت الشيخ عبد الرحيم بن سعيد باوزير)[٣]• أما في مجال الحكم والسياسة فكانت هناك (بنت معاشر) والدة السلطان المهري (أبو دجانة) الذي قام في أواخر القرن التاسع الهجري بغزو عدن في حملة بحرية • الا أن حملته باءت بالفشل ووقع أسيرا بيد الطاهريين • وقد بقي ابو دجانة مقيدا بمدينة عدن الى أن وصلت والدته (بنت معاشر) وكانت « امرأة كاملة ذات حزم وعزم» وهي التي ضبطت الشحر في غيبته • وقد سعت عند السلطان الطاهري في فكاكه على أن تسلم للطاهرين الشحر مقابل ذلك • وبعد تسليم الشحر انتقلت الى مينائها الآخر (حيريج) • كما أن جزيرة سقطرى كانت تحكمها امرأة في بداية القرن السادس عشر عندما زارها فاسكودي جاما •

ويمكننا ان ننهي هذه العجالة المستقراة من التاريخ اليمني حول الوضع العام للمرأة اليمنية بنموذجين متأخرين من النساء الشاعرات احداهن في الشعر الفصيح والأخرى في الشعر الشعبي وبالذات شعر

الأحكام منه . فمن شعر زينب بنت محمد الشهاري (ت ١١١٤ هـ) هذه الأبيات عن مدينتها شهارة :

يا مـن يفضل صنعا غـير محتشم ... على شهارة ذاك الفضل عن كمل
شهـارة الرأس لا شيء يماثـلها ... في الارتفاع وصنعا الرجل في السفل
اليس صنعاء تحت الظهر مع ضلع ... اما شهارة فـوق النحر والمقـل

ومن شعرها التي تستعطف به زوجها قولها :

ان الكرام اذا ما استعطفوا عطفوا ... والحر يفضي ويهفو وهـو معترف
والصفح خير وفي الأغضاء مكرمة ... وفي الوفاء لا خـلاق الفتى شرف
والعفو بعـد اقـتدار فعـله كرم ... والهجر بعد اعتراف فعـله سرف
عاقب بما شئت غير الهجر أرضى به ... فالهجر منك لا خوان الهوى تلف(٤)

أما الشاعرة الأخرى فهي غزالة المقدشية من شعراء الاحكام ويرجح أنها من مواليد النصف الأول من القرن التاسع عشر في المنطقة الوسطى من اليمن« وكانت شاعرة تنتمي الى أسرة ريفية متوسطة الحال ويبدو أن أمها كانت تنحدر مـن فئة متواضعة اجتماعيا تدعى في عـرف التقاليد اليمنية بأهل الخمس وتقع نهايـة التركيب الطبقي أو الفئوي لليمنيين . وتضم هذه الطبقة أو الفئة بالأصح الحلاقين والجزارين والدواشين » . وقد شنت غزالة المقدشية حربا شعواء ضد الوان التفرقة عندما قالت :

قالوا غزال وامها سرعة بنات الخمس ... ما به خمس يا عباد الله ما به سدس
من قد ترفع لوا رأسه وعـد البقش ... وقال لا بأس كم يحبس؟ وما يحتبس
سواء سواء يـا عبد الله متساوية ... ما حد ولد حر والثاني ولد جارية
عيال تسعة وقالـوا بعضنا بيت ناس ... وبعضنا بيت ثاني عينه ثانية (*)

٢

هناك من الدلائل بأن المـرأة في بعض المناطق اليمنية كانت تتمتع بحريات خاصة عبر تاريخها الطويل ففي مؤتمر الاستشراق الذي عقد في باريس في أواخر أغسطس ١٩٧٣ م ظهرت بعض الآراء الجديدة حـول العلاقات الاجتماعية في اليمن قبل الاسلام • ومـن ضمن الذين حضروا هذا المـؤتمر ــ كما يقول ذلـك مكسيم رودنسون لرئيس تحرير مجلة الحكمة اليمنية ــ المؤرخ الألماني الغربي أوستن • فقد جـاء بوجهة نظر جديدة تقول أن تعـدد الأزواج في اليمن ظل قائما في ظـل الحضارات اليمنية • وقـد سأل رئيس تحرير الحكمة المستشرق مكسيم رودنسون هل يقصد تعدد الزوجات ؟ فأجاب رودنسون لا ، يقصد أن من حق المرأة أن تتزوج في وقت واحد أكثر من رجل (٥) •

كما وأن الكاتبة البريطانية نوكس ماور تخبرنا بأن سلطـان لحج السابق علي عبد الكريم كان قـد أخبرها في أواخـر الخمسينات وهما يسيران معا خارج العاصمة اللحجية عندما قابلا بعض النساء الراعيات في طريقهما وهن يحملن العصى،لقد أخبرها السلطان بأن تلك النسوة يضربن أزواجهن أيضا بنفس تلك العصى (٦) •

وبين قبائل القرا وبعض قبائل ظفار فان المرأة تتمتع بقسط وافر من الحرية فالرجل « يستطيع أن يطلق امـرأته بعد أن يعطيها هـدية مغادرة كذلك فيمكن للمرأة أن تطلق زوجها على أن تعيد له هـدية الزواج •• وفي حالة الزواج بثانية على الزوج أن يهدىء من خاطـر زوجته الأولى باعطائها هدية موازية لهدية الزوجة الجديدة •• وتتيجة لمثل هذه الحرية التي تتمتع بها المرأة فان العلاقات غير الشرعية تكاد تكون مجهولة • وفي

حالة حدوث مثل ذلك فأن البنت تطرد فقط من قبيلتها ولكنها لا تقتل من قبل أقاربها كما هي العادة في داخلية عمان » (٧) .

ومثل هذه العادة في اعطاء المرأة حرية الطلاق موجـودة أيضا في بادية المهرة ، أما في الساحل فـان الحرية أو تكريم المرأة تأخـذ شكل تدليعها الى حد كبير بحيث أن الزوج هو نفسه الذي يقوم بخدمتها . ولذا فهناك مثل يقول بأن اسعد اثنين هما زوجة المهرى وبقرة البانيان .

وبالنسبة لجزيرة سقطري فيقول مساعد المستشار البريطاني المستر براون في تقرير رسمي له حول الجزيرة بأن « كثيرا مـن نساء الباديـة ينزلن الى السهل ويصبحن محضيات للرجـال هناك بمهر يتراوح بـين ٥ ـ ١٥ ريالا . ثم يوفر لهن الحد الادنى من الملابس والأكل لتقديم مثل هذه الخدمات . ولا تعتبر هذه الاتصالات كنوع من الزواج ، فالمـرأة تستطيع ان تترك الرجل متى أرادت ، كما أنه لا يلجأ الى أي نوع مـن الطلاق عندما يقرر الزوج انهاء الارتباط . ويعتبر هذا النظام عادة متبعة ولا توصم المـرأة المعنية بأي عار من جرائـه . ان التزاوج الفعلي يكاد يكون معدوما وهكذا هي طريقة حياتهم . أما ما سيكون مصير الاولاد، ان وجدوا ، نتيجة هذه العملية فلم أستطع أن اكتشف ذلك » (٨) .

وقد يبدو غريبا أن يوجد الأبناء غير الشرعيين في المجتمع القبلي في الجنوب اليمني . ففي بعض اجزاء المجتمعات القبلية ، كان التوريد ، أو مسألة تزويد الضيف بامرأة معمولا به . ولا شك أن السلوك الجنسي كان هناك جاهليا أكثر منـه اسلاميا . فمثلا كانت الاجـراءات المتبعة وسط القبائل الواقعة شرق شقرة بالنسبة للفتاة المتزوجة التي تصبح حاملة مثيرة للغاية . فـأولا تسأل عن من هو الرجـل الذي ذهب معها وعندما يعرف

اسمه يطلب منه أن يتزوج بها فاذا « يعجز بالحرمة » على الرغم من أنه حبلها فما عليه اذن الا ان « يكسرها » بمعنى أن يعطيها « كسيرة » وهي عبارة عن عدد معلوم من « الجلبة » أو الأغنام معمولا الى الولد بأمه وانما يعرف مثلا « بصالح الزنو » ويوصف بأنه « حلال بين صفوفهم » ولا يفقد الطفل اعتباره ولربما يكون الولد « المدلل » عند جده أكثر من افادة الشرعيين • وينتسب الطفل الى قبيلة أمه ، وفي حالة الحرب مع قبيلة أبيه وحارب ضده حتى لو أدى ذلك الى قتل أبيه • وهناك فرع من قبيلة « الجعبري » معروفين بـ « أهل الزنو » وفي حالة زواج العشيق بالفتاة يبقى الطفل أولا مع أمه ، الا أنه في فترة لاحقة تأخذه عائلة الفتاة فاذا تزوجت الفتاة يبقى « الزنو » مع جده لأمه • ويسمى الطفل « ابن السلقة » أي « الفراش » أو « ابن الحرمة » •

وفي الحالة العادية عندما يأتي الطفل خارج نطاق الزوجية ، ويتوفى أبوه فيما بعد ، ينشأ الطفل من قبل أمه ويسمى باسمها كما حدث مثلا لأسلاف « أهل مريم » من قبيلة النخعي في منطقة الفضلي « المحافظة الثالثة » حاليا ، وهذا يمكن أن يفسر وجود أسماء النساء في الانساب العربية قبل الاسلام • الا أن النظريات التي تقول بأن وجود أسماء النساء في سلسلة الانساب مما يدل على بقايا نظام المرحلة الامومية السابقة ، ان مثل هذه النظريات ، اذا ما أخذت في اطارها العربي ، دائما ماتتراءى لي مستبعدة للغاية (٩) •

ومن العادات الهامة المتبعة هو أنه من أجل المحافظة على « شرف » العائلتين المرتبطين بالزواج فان الرجل اذا ما تزوج بفتاة حاملة من غير علمه فيبقيها معه لمدة عام ثم يطلقها وذلك حتى لا يجلب العار لأبيها • أما اذا أعجبته الفتاة فلربما يبقيها هي وطفلها •

أما اولئك الناس الذين يعيشون في بيوت في أبين فهـم لا يتبعون عادة القبائل الموجودة في شرق شقرة ، ولكنهم يعطون الفتاة الحاملة دواء مجهضا ويبقون الموضوع مكتوما ، ثم يحاولون تزويجها بالشخص المعني أو شخص آخر قبل أن يتكشف أمر حملها . ويظهر ان الناس الموجودين في غرب شقرة ، وكذلك العواذل ، يتبعون نفس هذه الاجراءات . أمـا قبائل ربيز الكازمي فيعملون مثل ما تعمل قبائل الفضلي . ان وجود مثل هذه الاعراف وسط هذه القبائل ، التي هي بعيدة عن التأثيرات الخارجية ان وجود هذه الاعراف التي تعتبر الطفل يتبع فراش أبيه تجعل الانسان يفترض بنوع من الثقة بأنها عادة جاهلية (١٠) .

وعلى اية حال فان التسامح في قضية الأولاد غير الشرعيين في هذه المناطق وعدم تعريض الفتاة الى العقاب الصارم ، يعكس نفسه من خلال الزيارة السنوية التي كانت تقام في « الكثيب الابيض » في منطقة أبين حيث كان يوجـد الى عهد قريب ما يسمى « بحجر الزنـوان » أو حجر البراءة . فكل من كان يستطيع أن يحبو تحت ذلك الحجر الذي كان موضوعا فوق أحجار أخرى ــ ويخرج من الجانب الآخر ، كان يعتبر ولدا شرعيا أما من لم يستطع ذلك فيعتبر أنه قد جاء من خارج نطاق الزوجية . الا أن الموضوع برمته كان في الأساس يؤخذ من باب الممازحة . فاذا حدث أن توقف الشخص عن الحبو تحت الحجرة ــ مما يدل على انه ولد غير شرعي ــ يطلق شخص آخـر بندقيته لكي يمكنه الخروج مـن الجانب الآخر من الحجرة ولا شك أن صوت البندقية المفاجىء يساعد الجسم على التحرك والخروج من ورطته (١١) .

ومن ظواهر حرية المرأة في بعض المناطق اليمنية هو قبول المجتمع في أن تشارك الرجل في الرقص والاختلاط . فيوشك السفور أن يكون

عاما في القرى وفي البادية • ففي عسير مثلا يقول أحد الرحالة الذين زاروا المنطقة بأن من « الأمور الجديرة بانعام النظر في أهل هذه البلاد سفور نسائها واختلاطهن بالرجال ، ولا فرق بين أن يكون الرجال من الأقارب أبناء البلاد أو الغرباء والأجانب • وتشترك النساء في أحاديث الرجال في مجالسهم ، مهما كان نوعها سواء كن ابكارا أم ثيبات » (١٢) ثم يضيف هذا الرحالة قائلا : «عجبت باديء الأمر من هذا الاختلاط من رفع الكلفة بين الجنسين ، ولكني أدركت أن نساء هذه البلاد قد اعتدن عدم الاحتراز من مخالطة الغرباء بفضل الزمن والعادات المتوارثة ولا يرين في ذلك بأسا (١٣) •

وقد لاحظت أيضا طبيبة نساء ألمانية زارت كلا من شمال اليمن وجنوبه في أواخر الاربعينات وبداية الخمسينات بأن المرأة مثلا في حضرموت «تتمتع باحترام يفوق ما تتمتع به شقيقتها في اليمن المتوكلية• وقد تبينت هذه الحقيقة فور وصولي ، اذ عرفت أن النساء لايعشن في طبقات تقع دون الطبقات من المنزل التي يعيش فيها الرجال ، بل في طبقات أعلى منها ، وكان في وسعي أن أتحدث الى الرجل عن زوجته أو بناته ، وأن أذكر حتى أسماءهن ، ولم يكن هنا مجهولات كل الجهل في الحياة العامة ، وكان الرجال يسمحون لنسائهم بأن يلعبن دورا أكثر في حياتهم مما أدى الى أن افكار المرأة هنا كانت أكثر اتساعا وأن آفاقهن أوسع شمولا • (١٤)

كما لاحظ نزيه العظم في الثلاثينات أن النساء في تهامة كن يتمتعن بحرية شبيهة بحرية الرجل في الملبس « فبعض الرجال كانوا عارين من الثياب خلا مئزر في وسطهم •• وبعضهن كن كالرجال عاريات الا من مئزر بسيط ، وبعضهن لابسات أكماما قصيرة •• وبعضهن وضعن على رؤوسهن قبعة مصنوعة من قش القمح والشعير لترد شمس تهامة المحرقة،

وهي من صنعهن • وقد علمتهن الحاجة التي هي ام الاختراع أن لا يتقيدن بعادة أو قانون بل يلبسن ما يوافق محيطهن واحتياجهن • ثم يضيف العظم قائلا « ومن الطف ما سمعت عن نساء اليمن في جهة نجران أنهن يرقصن مع الرجال أزواجا على نغمات الرباب وضرب الدفوف•وقد الفن هده العادة من أجيال عديدة وتشارك بعض نساء اليمن رجالهن في شرب القشر وتخزين القات » (١٥) •

وتمارس حرية الرقص سوية أيضا في مناطق أخرى من اليمن •• ففي يافع ، خاصة أثناء مواسم الأعياد والزواج والزيارات العامة،يرقص الرجال والنساء معا • ويتبارى الشعراء بأشعارهم المرتجلة لترددها النساء داخل الحلبة بأصواتهن المنغمة الجماعية • وكذلك في جزيرة سقطري فان كثيرا من الليالي تصرف في الرقص بين الرجال والنساء • وقد شاهدت بنفسها ذلك احدى زوجات القضاة الانجليز في مستعمرة عدن التي زارت منطقة لحج في أواخر الخمسينات • وكانت تلك الرقصات المختلطة أثناء الاحتفال السنوي لعمال محلج القطن هناك • « عندما وصلنا الى المحلج وجدنا أن المحتشدين قد قسموا أنفسهم الى حوالى ست مجموعات ، وكل مجموعة كانت تحيط برقصة مختلفة • وفي وسط مجموعة من الناس قريبة منا كان رجل وامرأة يرقصان سوية • وهذا شيء لا يمكن رؤيته في المستعمرة حيث نظام الحجاب يطبق بصرامة • ان النساء والرجال هنا يعملون جنبا الى جنب في المزارع ولا تحتجب الا نساء الطبقات العليا • وكان الرجل والمرأة يرقصان بمنتهى الأناقة وذراعه اليمنى ملتفةحولخصرها بينما استرخى رأسها فوق كتفه وهما يدوران سوية » (١٦) •

الا أنه يجب ألا يغرب عن البال بأن هذه الحريات التي قد تسمح بها بعض المناطق للمرأة فان عوائق كثيرة أخرى بالمقابل ، قد قيدت حريات المرأة نتيجة لأسباب كثيرة منها المغالاة في الحجاب خاصة في المدن وبين نساء المجتمعات الطبقية الحادة كالعلويين في حضرموت والسادة عموما في اليمن . وهناك الكثير من الأشعار والأمثال التي كانت تعبر عن النظرة الفوقية للمجتمع تجاه المرأة . وهذه هي بعض أبيات أحد شعراء الاحكام في حضرموت :

يقول أبو عامر / ولا تأمن من النسوان راس
لا تأمن العذراء ولا الفارق ولا حتى النفاس
يقول أبو عامر / ومرثاتي لمن نسله بنات
يدعي لهن بالموت لو حتى عرائس مسندات. (١٧)

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فظاهرة الحجاب ما زالت تنتشر في اليمن وخاصة في المدن . والى عهد قريب مثلا في المدن الشمالية كان لا يسمح أن تخرج من البيت الا في صحبة أمها وذلك لزيارة الأقارب فقط أو شراء بعض الحاجيات(١٨).

وكثير من النساء يشبن داخل الجدران ويحجبن ليس عن أزواجهن فقط وانما ايضا في بعض الحالات عن غيرهن من البنات . وبالطبع فان درجة الحجاب تختلف كثيرا باختلاف المناطق والتركيبات الاجتماعية . ففي كثير من القبائل فان المرأة تتحرك بحرية تامة وتمشي وهي سافرة وتتكلم مع الرجل . وهذا لا ينطبق على نساء البدو فقط وانما أيضا على نساء الطبقات الفقيرة في المجتمعات الزراعية . أما الحجاب الصارم فيطبق بوجه خاص وسط العائلات الموسرة . وفي بعض الحالات قد لا

يسمح للرجل أن يظهر على زوجة أخيه على الرغم من أنهما يكونان تربا معا كأطفال • فحالما تحجب الفتاة فلا يظهر عليها الا أقرب أقربائها من النساء والبنات ، كما لا يسمح لها بمخالطة قريناتها من البنات غير المتزوجات وذلك خوفا من أن يكشفن عن عيوبها وبذلك يعرضن فرص زواجها للخطر • وفي محمية عدن الغربية قد يزوجون الفتاة وعمرها لايزال بين ٩/١٠ سنوات وذلك درءا لأن تتعرض فرصة زواجها للتقلبات » (١٩) •

« وفي أوساط الطبقات العليا المرفهة في تريم في حضرموت ، عندما « تدخل العذراء في السن » حسب تعبيرهم ، تصبح محجوبة »• ولا يسمح لها لعدة سنوات أن تخرج من المنزل ، وتبقى في الطابق العلوي منه معظم وقتها متجنبة معاشرة النساء المتزوجات • وهذه العادات تنطبق أيضا على الساحل • ومن ناحية أخرى فان نساء الطبقات الدنيا في تريم يمشين سافرات ، ولكن لا أستطيع أن أقول أين يكمن الخط الفاصل ، الا أنه يجب أن تتذكر بأن الحجاب هو علامة مرتبة اجتماعية ولا يكون مضايقا للكثير من النساء العربيات كما قد تتخيل ذلك النساء الغربيات » (٢٠) •

وتتيجة لحياة النساء بين الجدران وحجبهن عن الأنظار ، فان الكثير من الرجال كانوا يتحرجون عن نطق أسماء زوجاتهم أمام الآخرين• وهذه دكتورة نساء أجنبية تصف تجاربها في هذا المجال فتقول : « من النادر أن بعث لي أحدهم بخادمة لاستدعائي ، اذ كان يجيئني دائما الزوج نفسه الى رؤية « بيته » أو يوفد الي أحد خدمه من الرجال • ولو كنت قد تحدثت اليه عن « زوجته » بدلا عن « بيته » لكان هذا الحديث خطيئة اجتماعية كبرى •• وفي حالة وجود أكثر من زوجتين له

يرد علي قائلا : « بيتي القديم » أو « بيتي البدين » أو « بيتي الصغير» واذا كان لا بد من اعطاء اسم معين فان الاسم الأول لقريب المرأة الذكر هو الذي يعطى دائما • وحتى النساء أنفسهن ولا سيما في عائلات السادة ، يلقبن بعضهن بعضا باسم الرجال كقولهن « السيد أحمد » و « السيد محمد » (٢١) •

وعندما ترسل الأمهات في القرى الرسائل الى أبنائهن المهاجرين في المدن اليمنية أو في الخارج فانهن يتحرجن عن ذكر أسمائهن وانما عادة تمهر الأم باسم والدها قائلة المخلص / أبوك فلان بن فلان •

كما فرض الحجاب والحياة المنعزلة على النساء قبول الطاعة العمياء من أزواجهن أو أقاربهن وقد نقلت الينا زوجة المستشار البريطاني تساؤل احدى نساء حضرموت حول طاعة الأوربيات لأزواجهن « هل تطيعين زوجك أو هو الذي يطيعك ؟ » وقبل أن أتمكن من الاجابة عليها ذهبت تحدثني عن الطاعة • فكأرملة تستطيع أن تعمل ما تشاء، ولكن كل هؤلاء النسوة لا بد أن يستأذن من أزواجهن اذا ما أردن الخروج من المنزل فان قال الزوج لا وجب عليهن البقاء في البيت (٢٢) •

الا أن بعض الأوربيات اللواتي اختلطن كثيرا بالنساء اليمنيات يعتقدن بأن العزلة المفروضة عليهن قد تؤدي الى اهتمامهن ببنات جنسهن بدلا من أزواجهن وفي بعض الأحيان الى العلاقات العاطفية والجنسية خاصة في الأماكن التي تكثر منها هجرة الأزواج الى الخارج•

فعن تجاربها في صنعاء تقول الدكتورة الفرنسية كلودي فايان :

«وهكذا تقضي النساء اوقات فراغهن بعيداعن الرجال في الصباح

واثناء الغذاء وبعد الظهر • والمدهش المحير ان هؤلاء النسوة لسن في الدير • انهن أنيقات مخضبات يرقصن ويعرضن مجوهراتهن ولكن لا لاسعاد الرجال •• فالرجال لا يشاهدون أبدا هذ االبهاء •• وكثيرا ما سألت احداهن «ولكن هل سيراك زوجك بهذا الجمال وهذه الزينة هذا المساء هل رآك ترقصين ؟ فترد دهشة مستغربة كلا » (٢٣) •

أما السيدة انجرامز ــ وكانت ساحة تجربتها حضرموت فتقول: « ان هذا التسلط من قبل الرجال قد جعل النساء خاليات البال وليس لهن مشاكل كبيرة تذكر فالأزواج قد اوجدوا لهن ولم يكن ملزمات بالخروج والعمل او منافسة الرجل بطريق أو بآخر • وعلى الرغم من أن حياتهن محصورة فهي على نمط واحد وهن يعرفن تماما ماذا يستطعن أو لايستطعن عمله دون موافقة الرجل • ولم يكن يبدو على وجوههن مثل ذلك القلق الذي دائما ما يظهر على وجوه النساء في البلدان الاكثر تطورا • وعلى العكس فقد كن أشبه بالراهبات ويبدو عليهن هدوء البال والسكينة والصفاء كما هو الحال بالنسبة لحياة الدير • ولكن بسبب عزلتهن عن مجتمع الرجال فان ذلك يعود في بعض الأحيان الى علاقة ــ بل الى علاقة عاطفية ــ مع النساء الأخريات » (٢٤) •

ويرتبط بقضية عزل المرأة عن المجتمع الرجالي استماتة الرجال في عدم تمكن المرأة من التعليم وذلك خوفا من أن تستغل معرفتها بالقراءة والكتابة في الاتصال بالرجل من وراء الحجاب • ومن الطريف أن نجد نظرة الرجل في اليمن لا تختلف عن نظرة شقيقه في العراق تجاه هذه المسألة • فقد كتب الأستاذ عبد الرزاق الهلالي ما يلي :

« ان مشكلة تعليم البنات (في العراق) كان أشق وأصعب لأن

نظرة المجتمع آنذاك لم تمكن تقبل للبنات أن يتعلمن القراءة والكتابة. ومن طريف الآراء في هذا الخصوص الرأي الذي أبداه المرحوم خير الدين الألوسي في كتابه الموسم : (الاصابة في منع البنات عن الكتابة) الذي كتبه سنة ١٨٩٧ قال : « فاما تعليم النساء القراءة والكتابة فأعوذ بالله ، اذ لا أرى شيئا أضربهن ، لأنهن لما كن مجبولات على الغدر،كان حصولهن على هذه الملكةمن أعظم وسائل الشر والفساد وأما الكتابة فأول ما تقدر المرأة على كلام بها ، فانه يكون رسالة الى زيد ، ورقعة الى عمرو ، وبيتا من الشعر الى عزب ، وشيئا آخر الى رجل آخر .

فمثل النساء والكتب والكتابة، كمثل شرير سفيه، تهدي اليه سيفا، أو سكير تعطي له زجاجة خمر . فاللبيب من الرجال هو من ترك زوجته في حالة من الجهل والعمى ، فهذا هو أصلح لهن وانفع (٢٥) .

وعلى نفس المنوال أعلاه تقريبا سجلت لنا السيدة انجرامز هذا الحوار مع أحد أصدقائها بشأن قضية تعليم المرأة القراءة والكتابة . كان حواره هذا بعد زيارتها الى مقصورة نساء بيته . « قال لي أن النسا العربيات ليست لديهن أخلاق ، عليك أن تخبريهن كيف يجب أن يسلكن انهن يحتجن الى تعليم » فأجبت : من المؤسف بأنهن لايستطعن القراءة والكتابة . فقال أنا لا أقصد ذلك . انهن في حاجة لتعليم الأخلاق . فاذا تعلمن القراءة والكتابة فسيبدأن في الحال بمراسلة الرجال (٣٦) .

الا أن الأسباب الحقيقية لعدم تعليم المرأة أعمق وأشمل « لقد سمعت الرجال مرارا يرددون قائلين انهن لسن أفضل من الاغنام .

ولكن ذنب من ذلك ؟ ان الرجال يخافون في أنه اذا تعلمت المرأة القراءة والكتابة فستطالب بحرية أكثر وبمزيد من الحرية ستنتهي الأخلاق • ان أفكارهم عن الفساد الاخلاقي هي دائما انعكاس لما يعتقدونه عن سلوك المرأةالغربية التي تقبل أمام الأنظار وتلبسالملابس غير المحتشمة، وعموما تسلك بطريقة لا يريد الرجل المسلم أن تقلدها ابنته » (٣٧) •

٤

وقد عرف المجتمع اليمني كغيره من المجتمعات الأخرى وجود الجواري في العصور الوسيطة والحديثة ولكن ليس بالشكل الحاد كبقية مناطق الجزيرة والخليج العربي • وتصف لنا كلودي فايان تجربتها في هذا المضمار في صنعاء في أوائل الخمسينات فتقول :

« نزل سفير للمملكة العربية السعودية في دار الضيافة في صنعاء وأراد أن يشتري جارية بيضاء من أحد أمراء صنعاء ليقدمها هدية الى سيده ابن سعود وجاءني واحد من خدم دار الضيافة ونقل الي الخبر في تكتم شديد ، بل وأحضر معه العقد الذي وقعوه ، والثمن الذي اتفقوا عليه وهو ألف وثمانمائة ريال (٨٠٠ د) ولكن الصفقة كانت متوقفة على الفحص الطبي الذي سأقوم به •

واذا كانت الفتاة تكلف هذا المبلغ الكبير فلانها من الجنس الأبيض ، أما الجواري الأخريات اللائي أعرفهن فانهن من أصل أفريقي •• وطلبوا مني أن أفحصها فحصا باطنيا دقيقا (وكان عمرها ١٥ سنة) حتى يتأكدوا من أنها خالية من كل الأمراض التناسلية •• وفي ذعر واحساس بالعار هاجت وحاولت التخلص ولكن الأمير كان يخضعها

بالقوة . لقد كان مشهدا جارحا مؤلما .. واذا تحدثت عنه اليوم خارقة بذلك قسم هيبوقراط فما ذلك الا بفعل نظرتها في تلك اللحظات الرهيبة. وقد تعمدت أن أذكر لهم تفاصيل شنيعة عن أعـراض المرض الجلدي المعدي المستعصي .. وغـادر الأمير السعودي المطار ولم يأخـذ معه جسما محجبا صغيرا بعيدا عن وطنه .

ان على أصدقائي اليمنيين أن يدركـوا أن الانسان ليس حيوانا يباع . (٢٨) وفي كتاب ابن المجاور الدمشقي (ت ١٢٩٠ م) الذي كان رحالة طوافـا زار الهند وبلاد فـارس والحجاز واليمن ، وصف فريد لعادات الناس في المساكن والزواج والأخلاق العامة ، ولو كانت قبيحة قد يتحرج غيره من ذكرها ولكنها على أية حال مـن جوانب الحضارة الانسانية تستحق أن تعرف . ويظهر من وصفه لأخلاق بعض نساء ميناء عدن ــ ومعظمهن أجنبيات ــ أو لبيع الجواري فيه ، ان وضع المـرأة آنذاك قد بلغ دركه الأسفل .

مركز تحقيقات کامپیوتری علوم اسلامی

والحقيقة أن الأمر لم يقتصر على ميناء عدن وحده وانما على بقية الموانىء اليمنية فمثلا هناك اشارة الى أنه عند غزو البرتغاليين لميـناء الشحر في مطلع القرن السادس عشر كان في الميناء عـدد من حـانات الشراب الذي يعصر محليا . وفي المدينة ماخور ومرقص يديرهما أحد الهنود بالاشتراك مع بعض أهالي الشحر والراقصات يجلبن من الهند ومن لامو ثم يعدن الى موطنهن الأصلي ، والبعض منهن يزالـين السفر الى عدن والحجاز . والربان بأسباع يطلق على الماخور والمرقص اسم « محلات الغرام والهيام والمدام » (٢٩) .

أما وصف ابن المجاور لعملية بيع الجواري في عدن فكان كالتالي:

« تبخر الجارية وتطيب وتعدل ويشد وسطها بمئزر ويأخذ المنادي بيدها ويدور بها في السوق وينادي عليها ، ويحضر التجار الفجار يقلبون يدها ورجلها وساقها وأفخاذها وسرتها وصدرها ونهدها . ويقلب ظهرها ويشبر عجزها ويقلب لسانها وأسنانها وشعرها ويبذل المجهود وان كان عليها ثياب خلعها وقلب وأبصر (ثم يذكر أشياء فاحشة لا نريد ذكرها) فاذا قلب ورضي واشترى الجارية تبقى عنده مدة عشرة أيام زائد وناقص . فاذا رعي وشبع ومل وتعب وقضى وطره قال زيد المشتري لعمرو البائع : بسم الله يا خواجا بيني وبينك شرع محمد بن عبد الله فيحضر عند الحاكم ، فيدعي عليه العيب [٣٠] .

وفي حالة أخرى يقول ابن المجاور : « حدثني قال اني بعت جارية هندية بعدن على رجل اسكندراني بقيت عنده سبعة أيام . فلما شبع استعيب فيها وأحضرني الى الحاكم وادعى عليها بالعيب . فقال الحاكم. وما عيبها ؟ (ثم يذكر عيبا فاحشا [٣١] . لا نود أن نذكره هنا) .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

أما وصف ابن المجاور لوقاحة بعض النساء الأجنبيات في شوارع ميناء عدن آنذاك فهو يقول . « اذا تخاصم بعض النساء البرابر مع أخرى تخلع ما عليها من الثياب وتلطم صدرها ، وتصفق وتقفز وتسلق عيناها في وجه صاحبتها ، وتغدو كل واحدة منهما تارة تنام وتارة تنحني وتارة تضحك وتبكي وتارة تعبس وتارة تلطم (ثم يذكر تصرفات مشينة لا نريد ذكرها) ثم ينهي ابن المجاور كلامه : وايش ما عملت احداهن عملت الأخرى مثل الأولى . فما رأيت أوقح ولا أوسخ ولا أقل حياء من البرابر لا جزاهم الله عن الاسلام خيرا » [٣٢] .

وفي كثير من الأحيان كانت المرأة تعامل وكأنها سلعة لا غير . فها

هو آحد سيوف الاسلام في اليمن المتوكلية يعامل زوجـاته الشرعيات وكأنهن سلعة جنسية قابلة للتبادل • وهذا وصف لما لمسته كلودي فايان في صنعاء تقول الدكتورة فايان : « ودعنا الأمير (ع) بعد الغذاء للانتقال الى المفرج ولكنه قبل هذا تركني وحدي مـع الأمير (ب) وأخـذ معه المهندس (صديق فايان) الى مقر الحريم ، أجل الى الحريم • مسكين المهندس •• انه شارد الفكر ، تائه بوضوح وصف لي ما رأى فيما بعد فقال : ساقني الأمير الى الحجرة المجاورة وفيها ثلاثة سرر كبيرة • وكنا أمام الزوجات الشرعيات وهن في أجمل ثيابهن وكامل زينتهن ، وقـد زاغت عيونهن • كن مستعدات لكل شيء •• عدا أصغرهن •• فقـد خانتها شجاعتها أمام هذا الرجل الغريب ففرت واختفت تحت السرير •

ثم شرح لي صديقي ما حدث • قال له الأمير • دبر لنا (الحكيمة) ـ يعني فايان ـ وتستطيع أن تختار من تشاء من حريمنا [٣٣] •

كذلك تعطينا الطبيبة الفرنسية لقطة أخرى فتقول : « وهـا نحن للمرة الثانية في الطابق العلوي ، في البيت الكبير • كانت نساء الأمير في غليان وفوران وقد رقدت سيدة عارية فوق احدى السرر الثلاثة ، والقت أخـرى بنفسها في أحضاني وتعلقت برقبتي وهمست في أذني « كونياك » •• طبعا كونياك •• هكذا دائما • وطلب الأمير أن أفحص المريضة ودعا المهندس للدخول الى الغرفة بـل وطلب من المهندس أن يفحص المريضة بعدي : ولم تكن مصابة بشيء على الاطلاق » [٣٤] •

ويشير فؤاد حمزة الى ظاهرةمعاملة المرأة كسلعة في عسير فيقول• «وقد لاحظت أنواعا من الزواج كانت المساومة فيه أساسا له وكان المال سببا لاتمامه • ولم يستكف أهل هذه البلاد عن تزويج بناتهم من الجنود برغم علمهم بقصر مدة اقامتهم بين ظهرانيهم • وهذا التساهل في اختيار

الأزواج أو بالأحرى في بيع النساء للرجال بثمن بخس وبدراهم معدودة قد لفت نظري الى هذه الظاهرة الاجتماعية الخطرة » [٣٥] .

وبالطبع فان معاملة المرأة بهذا الشكل قد جعل النساء وليس لهن الا مشاغل تافهة صغيرة«عواطف سفلية وضيعة . فالرجال يستخدمونهن هنا كسلعة ، سلعة للذة والتسلية أو آلات لانتاج الأطفـال ، والشيء الذي يعامل كسلعة يصبح شيئا وضيعا » [٣٦] .

كذلك بسبب تلك الأوضاع التي كانت تعيشها المرأة ، تجد زوجة أحد قضاة المحكمة العليا في عدن ابان الحكم البريطاني ، والذي كان مسؤولا عن البت في قضايا الزواج والطـلاق ، بموجب (المنهاج) بأن الحقيقة التي لا تصدق تبقى بأن في كل (١٠) حالات زواج في المستعمرة كانت (٧ ــ ٨) حالات طلاق يتم تسجيلها في سجل الطلاق في المحكمة. وأن هذه النسبة العالية تجعل حـالات الزواج والطلاق في هوليود لا شيء يذكر أمامها . ثم تمضي الكاتبة قائلة بأن نسبة الطلاق قد بلغت ذروتها في منتصف الخمسينات عند مجيء فريد الاطرش لاحياء الحفلات الغنائية في عدن . فقد استطاع ذلك الحدث أن يجمع النساء كما لـم يستطع أي شعار آخر ، في طريق تحرير المرأة فقد تدافعن بالمئات لحضور حفلات الأطرش دون رضا أزواجهن أو أقاربهن . وكانت النتيجة ارتفاع نسبة الطلاق آنذاك في المستعمرة [٣٧] .

٥

بالنسبة لاجراء الخطبة واختيار الزوجة فتختلف العادة من مكان لآخر ففي البعض تتم الخطبة بموافقة الفتـاة ، وفي البعض الآخر يتم

اختيار العروس بواسطة الأهل . الا أنه في الكثير من المناطق اليمنية هناك حق الأفضلية لأبن العم في الزواج من ابنة عمه . « ان حقوق بني العم شيء ثابت بموجب الأعراف . فالفتاة يجب أن تتزوج بأقرب أبناء عمومتها كابن عمها . واذا لم يكن لعمها ولد أو لجدها أخوة ينتقل الحق الى أقرب ذرية جدها الأكبر . وحتى اذا لم يطلب ابن عمها الزواج بها، فان موافقته على زواجها بآخر لا بد من الحصول عليه . ولا يسقط حقه الا في حالة تزويج أبيها لها مقابل زوجة جديدة له . واذا ما توفي أبوها وطالب بها ابن عمها فيمكن للفتاة أن تستعطفه لكي يتركها حرة لتختار الزوج الذي تريده الا أنه لا يمكن أن يفرض عليه اعطاؤها حريتها في الاختيار . فاذا رفض فما عليهما والرجل التي اختارته الا أن يهربا ويطلبا حماية رئيس قبيلةقوية أخرى ، ولكنهما سيعيشان في خوف مستمر من أن يثأر بهما، فاذا قتلها ابن عمها فلن يكن ملزما بدفع ديتها، أما اذا قتل الرجل نفسه فعليه أن يدفع نصف الدية فقط » (٣٨) .

وفي عسير السراة أيضا فابناء عم العروس « أولى بها من الغرباء، ولهم عليها حق الأفضلية ، ولذا يجب التثبت من عدم معارضتهم في الزواج أو ارضاؤهم للتخلص عنه قبل اتمامه » (٣٩) .

وعلى أية حال فان الخطبة ـ كأي ظاهرة اجتماعية أخرى ـ ترتبط بظروف المجتمع والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية السائدة فيه ونجد ذلك واضحا في ظاهرة الخطبة في المجتمع اليمني ، فهي ترتبط بالعلاقات الدينية ممثلة في ظاهرة الحجاب وعدم السماح باختلاط الجنسين وخاصة في المدن الرئيسية وترتبط بالتمرتب الاجتماعي والعلاقات الطبقية ، وكذلك ترتبط بالعلاقات الاقتصادية والحاجة الى أيد عاملة (٤٠) .

فالأب في الظاهر هو الذي يقرر في شئون الزواج ولكن الحقيقة أن النساء هن اللائي يقمن بعقد الزواج ، فالشاب يعلق أهمية كبرى على رأي أمه وأخوته لأنهن يعرفن الزوجة المقترحة .. وهكذا يتوقف الزواج على مدى حكمة نساء الأسرة (٤١) .

وهذا وصف أحد الشباب العدنيين المتعلمين لكاتبة أجنبية ، عن كيفية اختيار عروسه بواسطة قريباته من النساء .

« وفي الأخير تجمعت لدي قائمة بتسع مرشحات مع كل تفاصيل وجوهن وهيئاتهن وأصواتهن وشخصياتهن الخ الخ . وبدأت في عملية الاختيار ولك أن تتصوري صعوبة الاختيار طالما أن عيني لم تقع مطلقا على أحد منهن . وعلى كل حال فبغياب الصور ، لأن ذلك كان ممنوعا تماما ، كان علي أن أمتد على فراشي في الظلام وابدأ اتخيل هيئة كل واحدة منهن حسب الأوصاف التي أعطيت لي اني أعرف أن هذا قد يبدو غير معقول . الا أن كل واحدة منهن مع الوقت قد صارت في ذهني شخصا حقيقيا وواضحا » وفي الأخير ينهي هذا الشاب حديثه حول الزواج فيقول « أنه أشبه بالقمار . وما على الانسان الا أن يتقبل مصيره » (٤٢) .

الا أنه في أماكن أخرى من اليمن فان حرية اختيار الزوجة تتم بموافقة الجانبين . فاختيار العروس في عسير السراة ، لا سيما القرويات والبدويات ، يقع كما يقول أحد الرحالة ، في « أحد مكانين السوق أو البئر . وعلى الراغب في الزواج الا أن يرتدي أحسن ثيابه يوم السوق ويشرع في ذرعه ذهابا وجيئة الى أن يقع نظره على فتاة تعجبه ، فيتقدم اليها خاطبا باللغة المعلومة «أنا ميدك» و «أنا ميد» و «أنا ليس ميد »

ويستدل على ولي الفتاة ، وتتم الخطبة في نهار واحد . وهاك المهر ، وهاك الضيفة ، وهاك الشرهة ، وهاك الأستاذ مأذون الزواج ، بسم الله من حلل النكاح وحرم السفاح مبارك يا عريس » (٤٣) .

وفي بعض الأحيان وعوضا عن استعراض الفتيات في السوق فان الراغبين يتصيدون الفتيات من بعيد في طريقهن الى السوق قبل وصولهن اليه حتى لا يزاحمهم مزاحم أو ينافسهم منافس . أو أنهم يذهبون الى البئر الذي يجمع فتيات الحي والقرية حيث هناك الفرصة الحسنة للحديث معهن فيحصل التعارف والاتفاق الضمني على البئر ، ثم يعقب ذلك اجراءات الخطبة الرسمية في البيت (٤٤) .

ويشير ابن المجاور الى وجود عادة شبيهة لذلك في منطقة ذمار ، في أواسط اليمن ، في القرن السابع الهجري . ففي الفصل الموسوم (صفة نكاح أهل هذه الأعمال) يقول ابن المجاور :

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

« اذا خطب زيد بنت عمرو وأنعم له بذلك يقول زيد لعمرو . أريد أشاهد جمال كريمتك . فيقول عمرو : أقدم الى السوق الفلاني فانها تتوعد به . شاهدها في بيعها وجمالها . فيقدم زيد الى السوق الذي دله عمرو فيقعد على قارعة الطريق فتقبل خطيبته وعلى ظهرها كارة قدر شيلها تحط في السوق فتبيع ما معها وتشتري حوائجها ، وترفع كارتها على ظهرها . ويرجع خطيبها ورآها تقطع الجبال والأودية والشعاب والسهل والجبل واللين والوعر . وهذا كله ولم تحط الكارة من ظهرها ولم تسترح . فاذا أعجب الرجل حالها وجمالها وشيلها وبيعها وشراها وقوة صبرها على شيل الثقيل فعند ذلك يملك بها ويدخل عليها وتبقى على شغلها ذلك الى الممات » (٤٥) . وكما هو واضح من هذا

النص فان الاعتبارين الأساسيين هما جمال الفتاة وقدرتها على العمل ، بمعنى قيمتها الاقتصادية •

وفي وسط قبائل القرا في الجنوب فان أبا الفتى الذي ينوي الزواج لأول مرة « لا يتكلم فقط مع أبي الفتاة وانما عادة مع الفتاة ذاتها وأمها مطريا صفات ابنه في نفس الوقتوفي بعض أقسام قبائل المهرة والمناهيل فان الرجل يسمى باسم أمه كأن نقول محمد بن مريم • وفي قبائل المناهيل والحموم وبعض القبائل الجنوبية الأخرى فان الرجل لا يتزوج الا بزوجة واحدة ويقوم الرجل بخطبة الفتاة مباشرة » (٤٦) • ومن الجدير بالذكر أن الأعراف في قبائل الحموم كانت تسمح بما يسمى « التفريخ » وهو أن تحمل الفتاة من غير زوجها • ولا ترى القبيلة في ذلك ضيرا خاصة اذا كان ذاك الرجل معروفا بالشجاعة ، لأن القبائل دائما تريد الفتيان الشجعان •

٦

وكما أن هناك قيود الخطبة التي تحد من عملية اختيار الزوجة ، فان قيود الكفاءة في الزواج لهي أشد وأقسى في بعض المناطق اليمنية كحضرموت التي كان يمارس فيها الى وقت قريب نظام الطبقات • فعموما بينما يمكن للرجل أن يتزوج من أيةطبقة اجتماعية الا أنه لا يمكن للمرأة أن تتزوج من طبقة أدنى من طبقتها (٤٧) •

وكل العلويين في حضرموت متفقون على موضوع الكفاءة في الزواج ، بمعنى أنهم لن يسمعوا بتزويج بناتهم الا لسيد أو شريف• وهم في هذه القضية أكثر صرامة من أبناء عمومتهم زيود شأن اليمن • وقد

نتج عن قضية الكفاءة هذه أن انقسم المجتمع الحضرمي الى فريقين في بداية هذا القرن ، أو بما عرف فيما بعد بالصراع العلوي/الارشادي. وتعود جذور الصراع حول هذه المسألة الى ١٩٠٥ عندما وقف السادة العلويون باصرار في وجه زواج هندي مسلم في سنغفورة بسيدة علوية . وقد أصر العلويون بعدم الكفاءة في الزواج على الرغم من أن رشيد رضا صاحب مجلة المنار المشهورة أفتى بوجوبه لسبب بسيط وهو أن الاسلام يؤمن بالمساواة . وقد نتجت عن هذه القضية المظاهرات في جاوة وهاجم الارشاديون دور السادة في نظام الطبقات وأنهم يستخدمون الدين ليحافظوا على مكانتهم العالية في المجتمع ليبرزوا عدم المساواة المناقضة لروح الاسلام . ثم أضاف الارشاديون بأن «السادة ليس لديهم الحق في أن يمارسوا سياسة الزواج التميزية لأن جميع المسلمين متساوون ويستطيعون الزواج بحرية »(٤٨) .

ويعتقد البروفيسور سارجنت أن الكفاءة في الزواج ، كما تطبق في حضرموت مبنية على المبادىء الجاهلية لطبقة الاشراف قبل الاسلام، كما أنها ــ أي قضية الكفاءة ــ في الاسلام تطبق تطبيقات مختلفة . ثم يضيف سارجنت قائلا : « وفيما بينهم أخبرت بأن السادة يعتبرون عارا اذا ما تزوج أحدهم بفتاة من طبقة أدنى من طبقتهم على الرغم من أن ذلك مسموح به من ناحية الشرع .. وقد عرفت حالة في تريم حيث كانت الأم المسكينة تتكلم عن ابنتها الشريفة »(٤٩) . أما الأم المسكينة المتزوجة فلن يرتفع مركزها الاجتماعي كبقية النساء من السادة وانما أطفالها فقط هم الذين ينتقل اليهم دم السادة العلويين (٥٠) .

ان اطار النسب في حضرموت يقسم الناس الى ثلاث طبقات . فكل شخص يرث نسبه من أبيه ولا يمكن المحافظة على مثل هذا النظام

الا عن طريق نمط من الزواج معروف • وقضية الزواج في حضرموت تعتمد على الكفاءة،بمعنى أن الرجل لا يجوز له أن يتزوج الا من تساويه في النسب ، فان لم يتمكن من ذلك يجوز له عندئذ أن يتزوج من هي أقل منه نسبا • وتبقى الأفضلية دائما للزواج الأفقي من نفس الطبقة [٥١] •

والحقيقة أن تفسير الكفاءة في الزواج في حضرموت بالمفهوم العلوي « أصبح أمرا واقعا وذلك بسبب قوة السادة وثرائهم • فهم لم يرضوا أن يزوجوا بناتهم الى المساكين » كما أن نظام الكفاءة في الزواج «لا يعني أن العرائس داخل الطبقة الواحدة متساويات•فهناك تقسيمات داخلية بحيث تكون الأفضلية للاهل قبل الطبقة لأنهم يفضلون الزواج من العائلات صاحبة الثروة المماثلة ، وهدفهم من هذا هو من أجل ابقاء الثروة داخل العائلة ومن أجل تدعيم وحدة العائلة » [٥٢] •

وتتكون الطبقة الدنيا في حضرموت من الحرثان والأخدام والصبيان • فمن ناحية نظرية ، كل طبقة المساكين لهم مركز واحد ، الا انماط زواجهم تعارض هذا النظام المثالي القاضي بأن جميع الأشخاص ذوي النسب الواحد يمكنهم أن يتزوجوا فيما بينهم • فالواقع يدحض ذلك ، فمثلا زواج الحرثان بامرأة خادمة عمليا يعتبر زواجا رأسيا بين مسكين أدنى (المرأة الخادمة) وبين مسكين أعلى (الزوج المسكين) والسبب في ذلك هو أن كل جماعة من المساكين تحاول أن تدعم مركزها الوظيفي بالمقارنة مع جماعة مساكين أخرى • وتعبر عن هذا « النسب » الجديد بواسطة الزواج •

وبما أن الحرثان كانوا هم الوحيدين من المساكين الذين كان

باستطاعتهم امتلاك الأرض في الماضي فقد كانوا لا يزوجون نساءهم الى بقية طبقة المساكين خوفا من تحويل الوريثة فيما لو تم الزواج . وقد توصل الدكتور البجرة من دراسته الميدانية هذه الى « أن أنماط الزواج تبين أن كلا من مركز النسب والعوامل الأخرى تؤخذ بعين الاعتبار عند اختيار الزوجة ، وما هو الا اعادة بيان للهيكل الاجتماعي ودعما للفروق في الثروة وذلك خوفا من أن تنتقل نتيجة الزواج . كما أن الزواج الأفقي قد حافظ على مر الأجيال في أن تنفرد كل جماعة وتحافظ على كيانها داخل الهيكل الاجتماعي . وفي الحالات التي تم فيها الزواج من أدنى الى أعلى فقد أبقى على التأكيد الرمزي للمركز . فأولاد الزواج في مثل تلك الحالات يأخذون نسب أبيهم . وأما الزوجة فتستمر تعتبر في مركزها الواطيء ، وكيفما كان الأمر فان الزواج الرأسي غير المتساوي لا يساعد بأي حال على الحراك الاجتماعي » (٥٣) .

كذلك في شمال اليمن فان طبقة السادة لم تكن تسمح بأن تزوج بناتها من أبناء الطبقات الأخرى ، وكذلك لم تكن تسمح بزواج ابنائها من هذه الطبقات وان كانت تتساهل فيما تتعلق ببنات المشائخ والعقال ورجال القبائل . ويزداد التمسك بهذه التقاليد في شمال اليمن ويقل في وسطه .

وبالنسبة للقبائل فان « هذه الطبقة لا تسمح لفتياتها بالزواج من غير قبيلي ، وقد تزوج فتياتها من هاشميين ، انما دون ذلك فلا يمكن أن تتزوج الفتاة القبلية من أبناء الأسر التي يمارس أفرادها بعض الأعمال الصناعية كأن يكون الفرد حلاقا أو مغنيا أو صاحب مقهى أو صانع أحذية أو دباغ جلود ـ بنو الخمس الذين سبق أن ذكرناهم ـ أما الأخدام فهم طائفة منبوذة لا يمكن أن يتزوج أي فرد من الطبقات

الأخرى من بناتها أو أن يتزوج أي فرد من فتيات الطبقات الأخرى » (٥٤) •

أما في عسير فلا يهتم أهلها بالكفاءة في النسب فيما عدا عائلات الأفراد والأعيان التي لا تتزوج بناتها لغير الكفء ويقول فؤاد حمزه بأنه قد شاهد حوادث كثيرة قد أغفلت فيها شروط النسب والكفاءة (٥٥) •

وبالطبع فان نتائج تطبيق الكفاءة في الزواج بمثل تلك الصرامة كثيرة وأهمها أن بنات العلويين قد يفوتهن قطار الزواج بسبب عدم توفر الرجال من طبقتهن ويصبحن أرامل أو عوانس • وفي دراسته للتركيب الطبقي في مدينة حريضة في حضرموت يسجل لنا الدكتور البجرة بروز الصراع بين طبقتي السادة والمساكين الى السطح بعد قيام ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ م في صنعاء • وهذا تسجيل لما شاهده •

« وسرعان ما تصلبت المواقف أكثر في حريضة • فمثلا أصبحت مواقف بعض شباب الأخدام أكثر عدوانية ، وبدأوا يندون بالمكشوف بسيطرة الفريق الأول وغلب على نكاتهم الطابع السياسي والاستهزاء الواضح • ومما قيل أن بعض أراملهم يسمعن وهن يتمتمن مرحبات بالثورة عندما تأتي الى حريضة ستحضر معها حرية الزواج » (٥٦) •

٧

ومن الظواهر التي كانت سائدة في المجتمع اليمني هو زواج الفتيات في سن مبكر • وهذا بدوره يعكس اهتمام المرأة بالنواحي الجنسية وذلك « ثمرة نشوئهن في بلاد ألف أهلها تزويج بناتهم في

سن تتراوح بين العاشرة والرابعة عشرة ولم يكن من غير المألوف على أي حال في اليمن أن عجوزا في السبعين من عمره أو يزيد ، يبنى بفتاة في العاشرة لتحول كما يقولون بينه وبين الشيخوخة بما تحمله من نظرة الشباب ويفاعته . ولا تكون الفتاة في هذه البلاد وهي في العاشرة أو حتى الرابعة عشرة من عمرها أكثر نموا بدنيا وعقليا من مثيلاتها في هذا السن في أوربا ولكنها تكون أكثر ثقافة في الناحية الجنسية اذ أنها نشأت على التطلع الى الزواج المبكر .. وذلك لأن الرجال والنساء على حد سواء كثيري الصراحة في الأحاديث الجنسية ولا يتورعون مطلقا على التحدث بجميع دقائق الحياة الجنسية » (٥٧) .

وترى طبيبة أجنبية أخرى أنه لا يوجد ضرر كما يظن من الزواج المبكر وانما ضرره يكمن في تأثيره على اعاقة النمو العقلي المتكامل لدى الفتاة فيما بعد وكذلك على اهتمامها المتزايد بالجوانب الجنسية. « لقد عرفت الكثيرات من صغيرات السن مزوجات ومخطوبات ولم أتبين لذلك ضرر ، ويندر أن تحمل الفتاة خلال المرحلة الأولى لبلوغها. وعسر الولادة ينتجعن سوء التغذية أكثر مما ينتج على النمو الجنسي غير الكامل للام الشابة .. وفي نظام الحريم تعد الفتيات الصغيرات اعدادا نفسيا ممتازا .. ويعرف الأزواج كيف يحصلون على ما يريدونه من متع ولذات » (٥٨) ثم تضيف هذه الطبيبة في مكان آخر قائلة : « وزواج الفتاة الصغيرة ليس فيه خطر من الناحية الجسمية ، بل أنه جانب فتان في غالب الأحوال .. الا أن هناك أمرا في غاية الأهمية ، وذلك أن وضع الفتيات تحت رعاية الرجال وهن في سن مبكرة.. يحول بينهن وبين النمو العقلي المتكامل » .

وظاهرة تعدد الزوجات في اليمن تختلف من منطقة الى اخرى .

فالعظم الذي زار شمال اليمن في العشرينات والثلاثينات قد لاحظ تعدد الزواج فقال : « ويكثر الرجال في اليمن من الزواج وقلما يجد الانسان رجلا متزوجا بأقل من زوجتين أو ثلاثة ، وكثيرا ما يطلق الزوج زوجاته ويتزوج من غيرهن ، وربما بلغ عدد زوجات بعضهم من مطلقات وغير مطلقات الثمانية أو العشرة أو أكثر • وقد روى لي أحدهم عن نفسه أنه تزوج من تسع زوجات طلق منهم ستا وبقي عنده ثلاث • وقد رزقه الله من جميع زوجاته (٢٥) ولدا مات منهم (١٦) وبقي عنده تسعة • فسألته وكيف كان بامكانه أن يعدل بينهم فقال « ان الأمر سهل جدا لأن النساء في اليمن قد ألفن تعدد الزوجات فلا تجد الغيرة اليهن سبيلا ولايؤخذن رجالهن على الزواج ولا يلمنهم وتعيش غالبية زوجات الرجل في منزل واحد دون ان يحدث بينهن شجار أو خصام » (٥٩) •

أما ما لاحظته كلودي فايان حول هذا الموضوع في بداية الخمسينات فكان بدرجة أقل ولكنها أيضا أيدت العظم في استنتاجه حول تأثير تعدد الزوجات فقالت « واذا توفرت الامكانيات فان واحدا من كل رجل تتعدد زوجاته ، اذ أن أرجح الأزواج عقلا وحنكة يشعرون وهم في سن الأربعين بحنين ورغبة الى جسد بعض جديد ، وزوجاتهم يعرفن كل هذا ويتقبلنه كما لا تتقبله المرأة في أي بلد آخر وذلك لأن الاسلام يقره أولا ولأن كرامة الزوجة لن تمس بهذا الزواج تماما كزواجها وهي ليست نتيجة للحب• انها لاتخشى العواصف التي تقلب الحياة العائلية رأسا على عقب في البلاد التي تتعارف فيها الرجال بالنساء • وهي أخيرا ستجد صديقة أجنبية تساعدها وتأخذ عنها جزءا من العمل المنزلي » (٦٠) •

كما أكدت هذه الطبيبة الفرنسية في مكان آخر بأن « تعدد الزوجات يحمي الى حد كبير استقرار البيوت التي يوجد بها أطفال • فلا وجود هنا

للبيوت المنهارة مثل الغرب . ولعل المرأة الغربية التي هجرها زوجها والتي تبحث عبثا عن نفقتها من زوج هارب وليس عندها ما تعيش به ، لعل مثل هذه المرأة تكون أقل تعاسة في مجتمع فيه تعدد الزوجات ولا سيما والأب هو الذي يتكفل دائما بنفقة الأولاد وتنشئتهم » (٦١) .

وفي تريم في حضرموت فقد لاحظ البرفسور سارجنت بأن العلوي اذا ما تزوج بأكثر من واحدة فانه يضع كـلا منهن في بيت مستقل تجنبا لنشوء أية متاعب وأنـه حتى بالنسبة لطبقة المساكين اذا تزوج أحـدهم بأخرى فسيحاول أيضا توفيرها ببيت آخر . ثم يضيف سارجنت قائلا . « أعرف حـالة في مدينة أخـرى حيث كانت الزوجتان تعيشان في منزل واحد ، الا أن الرأي العام كان ضد ذلـك . كما أعـرف علويا ثريا كان متزوجا على الأقل بسبع زوجات . وكن كالآتي . الأولى شريفة ولها عدة أطفال ، والثانية قروية ، والثالثة شيخة من آل بافضل ، والرابعة سيدة شريفة والخامسة قروية من عائلة المشائـخ ، والسادسة شريفة ، والسابعة صينية . وعلى العموم فان الزوجة الأولى في العائلة يكون لها المركز الأول ، الا أنه في حالة زواج العلوي بشيخة أولا ثم بشريفة بعد ذلك فان الشريفة ستكون لها المركز الأول وتكون الأسبقية لأبنها » (٦٢) .

٨

ولا شك أن تعدد الزوجات في اليمن قد قل الآن نتيجـة للتطور الاجتماعي الذي نتج بعد قيام ثورتيه في بدايـة الستينات ، وفي كتاب أخير تعرض لهذه الظاهرة في شمال اليمن يقول مؤلفه « ولا نستطيع الآن ، تحديد مدى انتشار ظاهرة تعدد الزوجـات في المجتمع اليمني ، لأننا في الدراسة الحالية لم نأخذ سوى عينات قليلة في أماكن محدودة لا تصلح

للتعميم ، ومن هذه الدراسة الجزئية أستطيع القول أن تعدد الزوجات غير شائع في المجتمع اليمني بحيث أن نطلق عليها كلمة (ظاهرة اجتماعية) تسود المجتمع ، كما يمكن القول أيضا أن التعدد يوجد في الحضر بأكثر مما يوجد في الريف ويرجع ذلك لزيادة الدخل في المدن عنه في القرى » (٦٣) .

وبسبب تكرر ظاهرة الطلاق فقد كان ينتج عنها الكثير من المآسي وأهمها رمي الأطفال الى الشارع ودخول النساء المطلقات ، خاصة في الموانىء ، عالم البغاء . وتقول جون نوكس ماور أن حوالى ٧٠ ٪ من المطلقات في عدن كن يضطرن الى ممارسة البغاء وذلك لأنهن لم يكن قادرات بأن يتزوجن ثانية كما أنهن لم يكن صالحات للقيام بأي عمل ولذلك كانت ممارستهن للبغاء سبيلا لكسب الرزق (٦٤) . وبالطبع فمما كان يساعد على سهولة ممارسة البغاء في الموانىء والمدن الساحلية السماح بممارسته ابان الاستعمار البريطاني في احياء معروفة من المستعمرة .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وفي أول كتاب رسمي عن مستعمرة عدن ، ألفه مساعد المقيم السياسي البريطاني قبل حوالى مئة عام ، يتعرض الكاتب الى أخلاق سكان المستعمرة ـ وكان معظمهم من الأجانب المستوردين ـ فيقول . « وفي الختام فمن الجدير ملاحظته أن أخلاق السكان ليست من المستوى العالي. وهذا نتيجة الغياب المستمر للازواج المهاجرين كالصوماليين في رحلات تجارية خارج المستعمرة . وعادة لا يحضر الهنود معهم زوجاتهم عندما يأتون الى عدن ، كما انهم لا يستطيعون الزواج بالفتيات العذارى ، وانما بالمطلقات فقط ومثل هذه التغييرات المستمرة في الأزواج بالاضافة الى ما جبلن عليه النساء الصوماليات من حوك الدسائس ، كأن يؤدي دائما الى ممارسة الزنا من جانب الجنس اللطيف » (٦٥) .

كذلك فقد كان من نتائج طلاق الأمهات رمي أطفالهن الى الشارع فقد كان من عادة الرجال المهاجرين في الموانىء أن يطلقوا زوجاتهم بعد عودتهم الى بلدانهم الأصلية مما يضطر الزوجات المطلقات الى الزواج ثانية ولكنهن عموما كن يتركن أطفالهن وهم في سن ٤ ـ ٥ سنوات فيضطر أولئك الأطفال الى أن يقيتوا أنفسهم أما عن طريق الاستجداء أو السرقة أو الخدمة (٦٦) •

٩

ومن المشاكل التي كانت تعترض عملية الزواج المبالغة في المهور وتكاليف الزواج • وبسبب بروز المشكلة فقد كانت هناك محاولات كثيرة للحد منها • فمثلا عقدت اتفاقية في تريم في حضرموت عام ١٨٩٥ بين السادة والمشائخ وأهل الجوف حول ماذا يجب أن يصرف للزواج حسب العادة • كما وقعت اتفاقية مشابهة لذلك في شبام في بداية الخمسينات •

وفي الدولة القعيطية صدر منشور رقم (١٠) لعام ١٩٥٩ من أجل معالجة تكاليف الزواج • وقد جاء في مقدمة ذلك المنشور الديباجة التالية :

«أما بعد نظرا لما هو واقع من الضرر دينيا واقتصاديا وخلقيا بسبب التنافس في مؤن وشؤون الاعراس وتقاليدها من لباس وجهاز وغيرهما من العوائد التقليدية الخارج كل ذلك عن حدود الاعتدال الى حد الاسراف، قرر مولانا صاحب العظمة السلطان في المجلس ما يلي وذلك كقرار مجلس الدولة رقم ١ تاريخ ١٠ شوال الموافق ١٨ أبريل ١٩٥٩ م) وقد حدد

المنشور العادات المتبعة من بداية الخطبة حتى ليلة الزواج بعشرين مرحلة، وحدد لها القواعد والضوابط .

وفي السلطنة العوذلية قننت تكاليف وشروط الزواج عام ١٩٦١ ، كذلك حدثت ترتيبات مماثلة في دثينة . أما في عدن فقد تعرضت الجرائد للمشكلة منذ بداية الخمسينات وهاجمت « مغالات أهل الفتاة في المهور والجهاز » ، كما هاجم الشيخ محمد سالم البيحاني في كتابه « أستاذ المرأة » الصادر في عدن عام ١٩٥٠ أزمة المساكن وأزمة الآثاث وارتفاع المعيشة وارتفاع المهور . وفي عددها رقم ٢٢ بتاريخ ١١ نوفمبر ١٩٦١ نشرت جريدة صوت الجنوب العدنية «أوبريت الدفع» (٦٨) .

١٠

وترتبط الخطبة والزواج في كثير من المناطق اليمنية بالقيمة الاقتصادية للمرأة . فكلما زادت مهارة الفتاة في الريف زاد مهرها . فالمرأة في هذه المناطق تخطب لنشاطها ومهارتها في العمل وليس لجمالها أو حسبها أو نسبها . ان الدافع الأساسي لديهم في تزويج أبنائهم هو الحصول على أيد عاملة فالأسرة تريد شابة تتقاسم مع ربة البيت الأعباء الشاقة التي تضطلع بها .. بل كثيرا ما يتزوج الشاب ثم يسافر للعمل أو الدراسة في المدينة ويترك زوجته تخدم أبويه (٦٩) .

ان الحياة في الريف اليمني في شمال اليمن بالذات قاسية شديدة القسوة فأغلب الزراعة تكون على مدرجات الجبال أو قاع الوديان بوسائل بدائية ، الأمر الذي يتطلب جهودا جبارة في الزراعة والعناية بالمزروعات، ويقع على عاتق المرأة جزء كبير من هذا العمل . وهي بالاضافة الى القيام

بأعمال المنزل العادية تساعد زوجها في الحرث والبذر وخدمة المحاصيل ، وكذلك تقوم برعي مختلف أنوع الماشية والعـناية بها وتربية الدواجـن وأيضا تذهب الى السوق في عمليات البيع والشراء واذا فرغت من اعمال زوجها فقد تعمل بالأجر في حقول الآخرين ، ويصدق ذلك بوجـه خاص على الأسر الفقيرة . . كما أنها تزاول مهنة الخياطة وغزل الكوفيات والطواقي وأيضا بعض الصناعات التي تقوم على الخامات المحلية . . ويختلف مدى مشاركة المرأة اليمنية من منطقة الى أخرى ، ويرجع ذلك أكثر ما يرجع الى طبيعة هذه المناطق ، فهي تقوم بنقل المحاصيل عند تعذر استخدام الدواب، وكثيرا ما تهبط المرأة جبلا بل عدة جبال أحيانا لجلب الماء ثم ترجع تصعد هذا الجبل أو هذه الجبال وهي تحمل المياه وكذلك لجمع الحطب (٧٠) .

ان المرأة في الطبقات الدنيا هي مكسب اقتصادي وليست ترفا ماديا . فالنساء الفقيرات عادة ما يزدن من دخل العائلة عندما يعملن في المزارع ، أو يجمعن ويبعن الأحطاب والماء أو يصنعن الحصر والسلال والأدوات الأخرى . وبعضهن قد يعملن في البيوت ويكونن العائد الرئيسي لأفراد الأسرة « أما زوجات البدو في جنوب الجزيرة فهن اللواتي يرعين الماشية ويغزلن ويحيكن الأصواف ، وهن في أحيان كثيرة لا يكلفن أية مصاريف منزلية ، لأنهن يبقين متجولات في البراري مع بقية أفـراد الأسرة وراء الكلأ والمرعى» (٧١) . وبالنسبة لرجـال القبائل في الماضي فقـد حلوا انتقال الميراث الى خارج القبيلة عن طريق تجريد المتزوجـات الى الخارج من الميراث وذلك بحكم الأعراف أو حكم الطاغوت من القبائل . وكما هو معروف فقد شن الامام يحي حروبه على القبائل القويـة كحاشد وبكيل بحجة عدم توريثهم النساء بسبب اتباعهم حكم الطاغوت بدلا من الشريعة الاسلامية .

وهناك اشارات الى بعض العادات الوحشية التي كانت تلحق بالمرأة ليلة عرسها في بعض المدن اليمنية كزبيد وحرض وعدن • واذا كانت هذه الممارسات تعكس شيئا فهي النظرة الاحتقارية التي كان يكنها المجتمع للمرأة • ففي زبيد وحرض يقول ابن المجاور ما نصه « من يوم تدرك البنت الى يوم تعرس لم يمكنوها من النتف وتربيها الى أن تضفرها دبوقة ، ويقال أنه يدهن ويسرح ويغسل بالسدر والطين فاذا كان ليلة عرسها ظفرت دبوقتان وتشد كل دبوقة منها في احدى فخذها وتجلى على زوجها • فاذا خلا بها وقعد منها مقعد الرجل مع المرأة فحينئذ يمسك الرجل تلك الدبوقتين ولا يزال يمدهما الى أن يقلعهما من الاصل فاذا قلعهما استنفضها بعد ذلك • فاذا أصبحت من الغد يزورنها قرابتها ومع كل واحدة منهن صحن زبد وتداوي الموضع بالزبد ليبرد عنها الالم لأنه يقلع الشعر مع الجلد »(٧٢) • (لم نثبت من النص التعابير النابية جدا)•

أما في عدن فحتى الستينات من هذا القرن كانت هناك عادة قبيحة بدائية تمارس ليلة العرس خاصة بين أفراد الطبقات غير المتعلمة •• ففي ليلة دخول الزوج بزوجته تجلس تحت سرير العروسين (المعروف بالناموسية والمرتفع عن الارض كثيرا) امرأة تكون عادة مسنة تعرف بالمكدية ، ويكون عملها اعطاء الاشارات للعروسة العذراء كيف تتصرف أثناء العملية• ثم تأخذ المنشفة الملطخة ببقع الدم الناتجة عن عملية الافتضاض وتذهب بها الى أقرباء العروسة الذين يكونون مجتمعين في بيت العروسة • ثم تقوم المكدية تغطرف (أي تزغرد) بصوتها كي يسمعها الجيران ويعرفوا أن العريس قد قضى وطره وأن العروسة كانت بكرا بالفعل • وفي الصباح

يأتي الجيران للتهنئة • ويعلق البروفسور سارجنت على هـذه العادة بأنها لا شك أن تكون جاهلية وأن الاسلام يمقتها [٧٣] •

١٢

والحق أنه منذ بداية الثلاثينات وظهور حركة الاصلاح الاجتماعي في عدن قام الكثيرون بالدعوة الى تعليم البنات والى اصلاح أحـوالهن الاجتماعية والثقافية ويدعو أول كتاب فكري صدر في عـدن في العصر الحديث الى المطالبة بمثل هذه الحقوق• وبما أن الحركة التبشيرية المسيحية كانت أول من فتح المدارس للبنات الأجنبيات ، كمـا أن نساء بعض المسؤولين البريطانيين كن هن اللوائي حاولن تشجيع النساء العربيـات على الانخراط في النوادي النسائية ، فقد طلب المصلحون العدنيون في ترقية شؤون المرأة عن طريق المبادرات الأجنبية ففي كتاب (نصيب عدن من الحركة الفكرية الحديثة) يقول مؤلفه الأستاذ الاصنج،والذي كان في الوقت نفسه رئيسا لنادي الاصلاح ، ما نصه : « لا توجد في عدن مدرسة للبنات يعلمن فيها القراءة والكتابة والدين ، كما يتعلمن الخياطة والتطريز والنسيج • ولهذه المناسبة انتهزت الفرصة جميعة التبشير بالدين المسيحي وفتحت مدرسة لبنات المسلمين يتعلمن فيها الخياطة والتطريز،وهناك يتشربن المبادىء المسيحية شيئا فشيئا ويتثقفن فـي التمدن المعكوس على الطراز الأوربي وهـو التبرج والذهـاب الى المنتزهـات والتطلع على لوحـة السينما » [٧٤] •

وفي مكانين آخرين من نفس الكتاب الى تعليم البنت ، والى ضرورة الالتزام بالحقوق الزوجية من كلا الجانبين [٧٥] • وفي عام ١٩٤٣ هاجم بعض الكتاب العدنيين الطريـقة التي يتم بهـا الزواج وهـذه المجموعة

ومعظمهم من الصحفيين والأدباء تكلمت عن الاصلاح الاجتماعي . وفي جمعية مخيم ابي الطيب الأدبيــة أدان الأستاذ محمد علي لقمان ، تعــدد الزوجات ، كما اتهم عبد الرزاق فكري العدنيين لعــدم معرفتهم الحقيقة لمعنى الزواج [٧٦] .

وفي عام ١٩٥٠ أصدر الشيخ محمد سالم البيحــاني أحد رجال الدين المشهورين ، كتابا أسماه (أستاذ المرأة) وضع فيه القواعد السلوكية للمرأة المسلمة بما يتناسب مع الظروف السائدة آنــذاك ولكن على ضوء المبادىء الاسلامية . فمثلا استنكر عادة عـــدم صهور الخطيــب على المخطوبة ، بل وعدم معرفته لها ، الا ليلة العرس واعتمــاده الكــلي في معلوماته عنها على أمه أو الماشطة (أو المكدية التي سبق أن تكلمنا عنها) والتي لايهمها الا المسحة والعطايا التي تحصل عليها من أهل العروسة .

وفي عام ١٩٦٠ أصدر الصحفي محمد شفيق كتيبا بعنوان (ثــورة المرأة على الحجاب).والحقيقة أنه نتيجة لتعليم البنات في الداخل والخارج والى الحملات الصحفية التي كانت تشن ضد الحجاب في اواخر الخمسينات وضرره على الجسم والعقل معا ، فقد ثار جدل عام حول الموضوع بــين الداعين له من الشباب والمتنورين ، وبين خصومه من رجال الدين كالشيخ باحميش . وقد أدى الأمر في النهاية الى أن سارت ست فتيات بقــيادة رضية احسان في مظاهرة في شوارع عــدن وهن سافرات فــي ملابس غريبة وكان أقاربهن من الرجال يرافقوهن في مسيرتهن . وقد زرن دور الصحف العدنية وأعلن عن رمــي الحجاب نهائيا [٧٧] . وتعتقد كاتــبة بريطانية أن حكومة المستعمرة كانت تود منذ مدة الغاء الحجاب وادخال السفور ولكنها لم تتجرأ أن تفعل ذلك لخوفها من أن تتهم بهجومــها على

الشريعة الاسلامية (٧٨) . ولهذا كانت المرأة العدنية الى قبيل الاستقلال تسافر في جواز بدون صورة لها .

وبالمقارنة مع بقية المناطق اليمنية فـان المرأة في عدن قـد دخلت المدارس في تاريخ مبكر . ففي منتصف الثلاثينات كانت هناك مـدرسة مزدهرة للبنات ، كما بدء وقتذاك في انشاء مدرسة ثانوية . وكانت هناك مدرسة تبشيرية فيها عدد لا بأس به من البنات اليمنيات ، الا انه على الرغم من ذلك ــ كما تقـول المسز انجرامز ــ « فـلم تتجرأ على الخروج الى الشارع بدون حجاب في منتصف الثلاثينات سوى واحدة أو اثنتين وحتى اولئك لم يتجرأن على اسقاط الخمار الأسود كـله وانما ذاك الجزء فقط الذي كان على وجوهن » ثم تضيف السيدة انجرامز قائلة :

«ان النساء المتحررات في المستعمرة كن آل حسنعلي وبنات عمومتهن من آل جعفر وهؤلاء أنفسهن كن ذوات أصول فارسية . وواحدة منهن بالذات هي نبيهة كانت أول النساء الرائدات في العمل الاجتماعي في عدن. فقد التحقت بعدة جمعيات خيرية ، واستطاعت مع رحيمة جعفر وأخواتها بأن تساعدني في تجميع عـدد لا بأس به مـن النساء لصنع الضمادات للمرضى من الجرحى . كما ان المجلس البريطاني فتح ناديا للنساء العربيات بهدف زيادة مشاركتهن في الأعمال الاجتماعية الا أن المشروع أثبت فشله لأن القليل من الرجال كانوا يسمحون لنسائهم بمثل تلك الحرية كالالتحاق بالنوادي » (٧٩) وبمساعدة رحيمة جعفر أيضا حاولت زوجـة المستشار البريطاني تشجيع نساء المكلا لتكوين نـادي للنساء والمساهمة فـي عمل الضمادات لجرحى الحرب العالمية الثانية أو فتـح صفوف لتعليم الكبار . وكانت أول مدرسة للبنات تفتح في المكلا يديرها الشيخ عبد الله الناخبي

الذي استطاع أن يقنع عددا من الآبـاء بأن يرسلوا ببناتهم ليقوم هو وزوجته وابنته بتعليمهن (٨٠) •

١٣

وعلى اختلاف اختها المرأة في الخليج العربي والجزيرة العربية ، فان المرأة اليمنية تقاسي باستمرار فراغا نفسيا وعاطفيا من جراء هجرة زوجها الى مختلف بقاع العالم جريا وراء الرزق منذ أمد طويل • وفيما عـدا المنطقة الشمالية من صنعاء فتكاد تكون الهجرة عامة في كل المناطق• وكل ما في الأمر أن اتجاهات الهجرات اليمنية هي التي تغيرت وهي الآن مركزة أكثر في المملكة العربية السعودية ومنطقة الخليج العربي بدلا من بلدان الشرق الأقصى والهند وشرق أفريقـيا وأمريكا وبريطانيا كما كانت عليه في السابق •

وفي الماضي كان الزوج المهاجر قد يبقى بعيدا عن زوجته أو أطفاله في بعض الأحيان ما بين ١٥ ـ ٢٠ سنة ، وبعضهم كانوا يضطرون للزواج في مهاجرهم ثم يعودون الى زوجاتهم الأصليات بعد كل تلك المدة • ومثل هذا الفراق بين الزوجة وزوجها لا شك وأنه كان يولد الفـراغ العاطفي عند كليهما وبالذات عند الزوجة • ولقد لاحظت ذلك الآنسة فرياستارك في منتصف الثلاثينات في وادي دوعن في حضرموت « جاءت الينا امرأة جميلة اسمها عطية من القرية السفلى وكان زوجها ، الذي تزوجته قريبا ، قد غادرها الى بلاد الصومال •• وبدأت تغني لنا قصيدة من تأليفها تتمنى لزوجها أن يعود لها بالسلامة • وفيها تقول عد فابنة عمك وحيدة كل ليلة وضحكت البنات اللواتي كن جالسات حوالينا • فمدت عطية يديها وقالت وعيناها تلمعان برقة • هل ما قلته خطأ ؟ أليس هو زوجي ؟ الا يجوز لي

أن أدعو له بالعودة ؟ ولكن كم سيبقى بعيدا عنك ؟ فأجابت . آه من يدري ربما عشر سنوات اذا أراد الله ثم تنهدن جميعا . وهذا هو حزن جميع من يعيش في هذه الأودية » (٨١) .

ويزخر الشعر اليمني بالقصائد المؤثرة حول الهجرة ومردوداتها النفسية بل وهناك من القصائد حول هذا الموضوع ما تعتبر من روائع الشعر العربي والانساني كقصائد الشاعر اليمني محمد أنعم غالب وبالذات قصائد (الغريب) و (الطريق) و (قطرة بن) (٨٢) . وهذه بعض الأبيات الشعرية في اللغة العامية من اليمن الاسفل والتي لا يعرف قائلها ولكنها جميعا تعبر عما يختلج في صدور زوجات المهاجرين من حزن وأسى وتشوق . وهذه الأبيات مما ترددها النساء ويغنينها أثناء عملهن في الحقول أو البيوت :

ليلي أهيم أحصي النجوم وحدي
والدمع تشوي مهجتي وخدي

العيد أتى كل من حزب وعيد
وانا بحبسك واحبيب مقيد

خرجت نص الليل ولا معك صوت
فرق الأحبة مثل نزعة الموت

خلي سرح مدينة خلف مدينة
شأرزم على قلبي حجر وطينة

ليتك ترى حبيبي بحالي
شتبكي النهار وشتقهد الليالي

بالله عليك يا شمس لا تغيبي
توقعي حينا شصل حبيبي

الا أنه نتيجة لهذا الفراغ العاطفي من جراء افتراق الزوج عن الزوجة في المهجر لمدة طويلة فقد وجدت زوجة مستشار بريطاني سابق ، كانت لها علاقات وطيدة مع بعض النساء في منطقة حضرموت ، لقد وجدت هذه الزوجة أن الفراق يؤدي عادة الى انشاء علاقات جنسية بين النساء ذاتهن كتعويض لما فقدنه بسبب عدم وجود الأزواج .

« في حضرموت يعتقد الرجل أنه ما دام ليست هناك فرص للنساء في أن يقابلن الرجال فانهن سيحيين حياة عفاف .. ولكن عندما تثار عواطف البنات عن طريق الزواج المبكر وبعدها يصد من نتيجة الطلاق أو هجرة أزواجهن ، فليس من المستغرب ، ما دام ليس أمامهن أي مخرج حتى ولو كان غزلا بسيطا مع الرجال ، الا أن يتجهن نحو بنات جنسهن » (٨٣) .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وفي مكان آخر من كتابها ، تصف لنا هذه الكاتبة أن ذلك ما كان يحدث لاثنتين تعرفهما تماما فهذه الأولى « ذات النظرات التي تخلب الألباب كأنها نجمة سينمائية ، والتي يمكنها أن تكون كذلك فيما لو نشأت وترعرت في بيئةاخرى لقد كنت اشاهدها وانا مشدوهة بجمالها وصفاء قسماتها والتي كانت تخفي تحت طياتها ذكاء واهتماما بالعالم الذي حولها لربما كان بلا شك قادها الى حياة غنية ترضي بها اكثر فيما لو كانت تعلمت وتحررت . ولكنها كانت تضيع مواهبها ، غير المشكوك فيها ، في المزاح مع الحريم . لقد كانت مثل الاخرى تعزى نفسها بسبب فقدانها لزوجها الذي ذهب الى المهجر ، في عشق النساء الأخريات . (٨٤) .

الا ان الهجرة من ناحية ايجابية قد ساعدت المرأة اليمنية في أن تأخذ على عاتقها بعض المسؤوليات التي كانت من مهام الرجل. فالهجرة الكبيرة للرجال قد جعلت المرأة الممثل البالغ الوحيد للاسرة . فرحيل رب الأسرة وغيره من رجالها البالغين يلقي على عاتق الزوجة أيضا مسؤوليات جديدة. فكونها رب الاسرة المؤقت يجعلها تلتزم بمهام جديدة تخلى عنها رب الاسرة المهاجر . وتنطوي احد هذه المهام على قدر كبير من مسؤولية اتخاذ القرارات التي كانت وقفا على الرجل . وهكذا فأن الدور التي تلعبه المرأة في اقتصاد الاسرة قد توسع بشكل جوهري .. وبهذا الشكل تصبح الزوجة أثناء غياب زوجها في مرتبة اجتماعية مساوية على الاقل لمرتبة الابن الاكبر في الاسرة اذا كان دون سن الزواج من حيث السلطة ضمن العائلة . (٨٥) .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ومما ساعد المرأة على القيام بالواجبات التي كانت اساسا من مهام الرجل كالزراعة ، هو انه بفضل ادخال بعض المكتشفات الحديثة من الآلات كمكائن طحن الحبوب والقوارير الخوائية ، ومكائن الخياطة والسيارات قد قلص كثيرا من وقتها الذي كانت تصرفه يوميا لانجاز تلك المهام التقليدية اليومية الواجب عليها انجازها .

وبالمقارنة مع ما أحدثته الهجرة بالنسبة للمرأة في الريف العماني في هذا المجال فاننا نجد ان دورها لم يتغير كثيرا هناك كدور شقيقتها في اليمن وذلك بسبب ان الهجرة في اليمن أقدم وأشمل ، هذا من جهة ومن جهة ثانية لأن أي تغير يحدث في عمان يكون بخطوات رتيبة بسبب المذهب الاباضي المتزمت هناك نوعا ما . ففي دراسة ميدانية اخيرة اجريت

في عمان عن أثر الهجرة في تغيير دور المرأة في الريف هناك ، يخلص الباحثان الى انه على الرغم من اتساع آفاق النشاطات التي تشارك فيها المرأة فما زالت هناك قيود واضحة أمامها .

«ان دور المرأة في المجتمع العماني في الريف مازال محدودا للغاية، ومع ذلك فان هناك اتجاها تدريجيا نحو تخطي القيود اذ تأخذ المرأة على عاتقها الآن وبشكل متزايد ، بعض المسؤوليات المنزلية ، الخاصة برب الأسرة الغائب عن المنزل وهذا بالضرورة لا يعني توقف المرأة عن اداء مهامها التقليدية لكي تقوم بالمهام الجديدة بل يعني احتواء هذه المسؤوليات الجديدة . غير ان هذا التوسع في دور المرأة لم يؤد الى ارتفاع مكانتها وذلك لان القبول العرفي بالمكانة الاجتماعية المتدنية ما زال سائدا ، وهو يمثل عقبة رئيسية في وجه توسيع دور المرأة في حياة المجتمع ومساهمتها الفعلية في الحياة الاقتصادية للمناطق الريفية . ومن غير المستطاع التغلب على هذه العقبة خلال جيل واحد . وما لم يقتنع المجتمع بأن باستطاعة النساء المشاركة في الحياة العامة بشكل كامل ، فلن يستطعن تقديم المساهمة التي بمقدورهن » (٨٦) .

اما في اليمن فان دور المرأة في العمل بارز للعيان وهو ناتج عن أسباب موضوعية كثيرة منها الهجرة ذاتها . وهذه ملاحظة احد الرحالين العرب الذين زاروا أواسط اليمن قبل حوالى اربعين عاما بشأن مشاركة المرأة الفعالة في أعمال الرجل :

« وفي أثناء الطريق كان يمر بنا كثيرا من النساء القرويات ذاهبات بمفردهن أو مع رجالهن الى الحقول والجبال لقضاء الاعمال المختلفة . والنساء القرويات في اليمن يقمن بمعظم اعمال الرجال من زراعة وحراثة

ونقل وذهاب الى الاسواق لبيع الحاصلات وجلب البن وتقشيره الى غير ذلك من الاعمال الخشنة • وعلاوة على مشاركتهن في هذه الاعمال فانهن يقمن بأعمال منزلهن خير قيام ويعنين« بتربية أطفالهن • وقد لاحظت أنهن نشيطات جدا على العمل ويشتغلن ليل نهار دون كلل أو ملل ولا يتناولن من الراحة الا قسطا يسيرا » (٨٧) •

١٥

لقد قامت ثورةالسادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢ م في شمال اليمن واطاحت بالنظام الامامي الكهنوتي الذي استمر حوالي الالف عام وأقامت على أنقاضه حكما جمهوريا أعلن عن أهدافه العصرية كأي نظام جمهوري آخر في الوطن العربي ويهمنافي هذا المجال ان نذكر ان الفتاة والمرأة في شمال اليمن بدأت منذ قيام الثورة تعرف طريقها الى المدرسة والمصنع • فقد اصبحت مدارس البنات تغطي الآن كل مراحل التعليم • والفتاة اليوم تلتحق بالجامعات خارج اليمن وفي جامعة صنعاء ذاتها جنبا الى جنب مع زميلها الطالب اليمني • فقد بدأت ظاهرة الحجاب تختفي ايضا في المدن اليمنية ذاتها ، كما ان برامج محو الامية قد قطعت أشواطا لا بأس بهافي طريق تحرير المرأة من الجهل • أما في مجال العمل فان معظم عمال مصنع الغزل والنسيج في صنعاء هم من النساء العاملات • فالمرأة تعمل الان في التدريس والتمريض والاعمال الكتابية وفي الاذاعة والتلفزيون • وفي حكومة المقدم ابراهيم الحمدي بدأ التفكير في معالجة قضايا الزواج والمهور بما يتناسب وضع المرأة الجديد بعد قيام الثورة • الا ان التطور الاجتماعي والثقافي والسياسي للمرأة في شمال اليمن ليس بنفس الدرجة الذي هو عليه في جنوب اليمن كما سنرى •

وذلك لأسباب كثيرة منها أن تعليم المرأة واطلالها على المدينة الحديثة كان أسبق في الجنوب منه في الشمال هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فهناك اختلاف بين النظامين السياسيين في شمال اليمن وجنوبه ، ونظرة كل منها الى الدور الحقيقي للمرأة اليمنية في المجتمع الجديد .

أما في جنوب اليمن فعندما قامت ثورة الرابع عشر من أكتوبر ١٩٦٣ م بكفاحها المسلح ضد الوجود البريطاني فان شوطا لابأس به من تعليم المرأة كان قد قطع في هذا المضمار . ففي أواخر الخمسينات كان التعليم الثانوي للبنات قد ترسخ نوعا ما ، كما أن عددا من النساء كن يعملن في التدريس والتمريض . وقد شاركت أعداد منهن في الحركة الوطنية في ذلك الوقت وأرسلت بعضهن للدراسة في الخارج . ولم يقتصر تعليم البنات على فتيات مستعمرة عدن وانما شمل أيضا بعض مدن محمية عدن الشرقية في حضرموت .

وقد سبق أن رأينا أن المناداة في اصلاح أوضاع المرأة والبنات في عدن قد بدأ في الثلاثينات ، وأن الحركة انتهت الى المناداة الصريحة للسفور في أواخر الخمسينات وخروج بعض الفتيات بالفعل في مظاهرة لذلك الغرض .

وعند قيام حركة الكفاح المسلح نجد أن بعض النساء كن يشاركن مشاركة فعالة في المظاهرات ، وتهريب الاسلحة ، وايواء الثوار ، بعد قيامهم بعملياتهم الفدائية ، في البيوت في عدن .. وحتى في جبال ردفان حيث كانت بداية الثورة المسلحة نجد أن المرأة تشارك أخاها في حمل البندقية لمحاربة جنود الانجليز ، ومن أشهر الاضرابات التي قامت بها الفتاة اليمنية اضراب طالبات كلية البنات في عدن والذي أدى الى انتشار

الاضرابات الطلابية التي استمرت منتشرة الى أن خرج الانجليز من عدن واستقل الجزء الجنوبي من اليمن •

وبعد الاستقلال مباشرة لم تحدث أية تطورات جذرية في وضع المرأة وانما ازدادت مشاركتها بشكل ملحوظ في الأعمال المكتبية والطباعية وذلك بسبب ان كثيرا من تلك الوظائف كانت تشغل من قبل الأجنبيات قبيل الاستقلال • وبسفر تلك الأجنبيات ، ثم ادخال اللغة العربية بدلا من الانجليزية في تلك الأعمال ، أصبح المجال مفتوحا لاستيعاب عدد كبير من النساء والفتيات في هذه الوظائف • كما أن الفرص للدراسة الجامعية في الخارج بعد الاستقلال أصبحت متوفرة فذهبت اعداد منهن للتحصيل العلمي •

١٦

ان التطورات الجذرية لحقوق المرأة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية قد حدث بعد حركة ٢٢ يونيو ١٩٦٩ م التصحيحية ، وبالذات بعد صدور برنامج مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية ، والدستور الوطني الديمقراطي الصادر في نوفمبر ١٩٧٠ م حول المساواة بين الرجل والمرأة• فقد جاء في البرنامج ما يلي :

« ان التغيير الجذري لطبيعة الحياة المختلفة التي تعيشها المرأة اليمنية ومساواتها بالرجل ، والدفع بها لأن تأخذ مكانها الطبيعي في الحياة العامة والسياسية والاجتماعية الجديدة ، وكذلك مشاركتها في عملية الانتاج ودعم وتشجيع منظمة الاتحاد العام لنساء اليمن وحركة المرأة اليمنية في الاقليم وما تطرحه في نشاطاتها الاجتماعية من برامج

ومخططات تهدف الى تطوير المرأة والأسرة اليمنية ، سوف يضيف قوى جديدة عاملة الى صفوف الثورة تساهم بامكانيات كبيرة في خدمة الثورة وتطورها » •

كما أن المادة (٣٦) من الدستور قد نصت بأن «تضمن الدولة حقوقا متساوية للرجال والنساء وتوفر بشكل تقدمي الشروط اللازمة لتحقيق تلك المساواة » (٨٨) ومنذ عام ١٩٧١ م وضعت مسودة قانون الأسرة للمناقشة بين صفوف التنظيم واللجان الشعبية والمستشارين القانونيين وفي الصحافة • ثم شكلت وزارة العدل لجنة مهمتها أن تحمل مشروع قانون الأسرة وتطوف به على الناس في مختلف أرجاء البلاد • وقد ضمت اللجنة مأذونين شرعيين وأئمة مساجد ومسؤولين من وزارة العدل ، ثم انضم الى هذه اللجنة ممثلات عن اتحاد نساء اليمن • واشترك في مناقشة القانون المحافظون ونقابات العمال والطلاب وبقية المؤسسات الجماهيرية • وكانت هذه المناقشات تتم في اجتماعات جماهيرية مفتوحة مع اللجنة •

ومن الجدير بالذكر أنه قبل مناقشة مسودة الدستور واصداره في عام ١٩٧٤م قام المسؤولون في المحافظة الثالثة في منطقة زنجبار باصدار منشور قبل حوالى ثلاثة أعوام تقريبا من صدور القانون وأصبحوا يسيرون بموجب بنوده في المحاكم الشرعية بالنسبة لقضايا الزواج والطلاق • وسنجد أن كثيرا من بنود هذا المنشور المستحدثة ستكون من المواد الجديدة في قانون الأسرة الذي سيصدر عام ١٩٧٤ م •

فمثلا حدد المنشور أن المهر يجب ان لا يزيد عن (٢٠٠) دينار وبضرورة موافقة الفتاة على الزواج ، وان سن الرشد «١٥» عاما ، وان الطلاق يجب أن لا يتم الا في المحكمة وأن تكون الأسباب وجيهة لذلك •

كذلك جعل المنشور الزواج من زوجة واحدة ، الا في حالات استثنائية، كما خول للمحكمة الطلاق في حالة غياب الزوج أكثر من عامين وبعد أن ينذر في ذلك [٨٩] .

ان الهدف السياسي والاجتماعي من صدور قانون الأسرة رقم (١) لعام ١٩٧٤ بشأن الأسرة في اليمن الديمقراطية واضح وهو تحقيق المهام السياسية والاجتماعية التي يطمح لتحقيقها النظام الجديد والتي سبق أن حددها برنامج مرحلة الثورة الديمقراطية والدستور الوطني كما ذكرنا أعلاه . « لقد عمد القانون أولا الى رفض التقاليد السائدة في المجتمعات القبلية والعشائرية ، كما عمد ثانيا الى استحداث نصوص من شأنها أن تحقق المساواة بين المرأة والرجل . والقصد الأساسي من ذلك كله هو أن خطط التنمية والتغيير التي تقصد السلطة اليمـنية الى تحقيقها لا يمكن أن تنجز الا بتحرير نصف قوى الشعـب العاملة من قيود الحجـاب . فارتفع القانون بالمرأة الى مستويات لم يسبق أن حققها أي مجتمع لـه خلفيات تاريخية مماثلة للمجتمع اليمني . وحكمة القانون من ذلك كله ، هي أن ينتقل باليمن من مجتمع منفصل الى مجتمع متكامل يتساوى فيه الناس من ذكور واناث » [٩٠] .

وهذه أهم ميزات قانون الأسرة :

١ ــ لم يشترط القانون الكفاءة في الزواج ، وانمـــا نص بأن « الزواج عقد بين رجل وامرأة متساويـين في الحقوق والواجبـات » المادة (٢) .

٢ ــ منع القانون أهل الفتاة المراد خطبتهـا من الانفراد بالموافقة على الخطبة دون استشارتها وأخذ موافقتها . المادة (٣) .

٣ ـ الغى القانون التمييز بين المرأة والرجل في الشهادة في عقد الزواج ، وكل مايتطلبه القانون هو حضور شخصين عاقلين بالغين ولم يشترط الذكورة أو الانوثة المادة (٨) [٩١] •

٤ ـ وضع القانون سنا محددا لاهلية الزواج لكل من الرجل والمرأة ـ ١٨ سنة للرجل و١٦ سنة للمرأة ـ كما أنه وضع حدا لفارق السن بين الرجل والمرأة وهو عشرون عاما الا اذا بلغت المرأة (٣٥) سنة من العمر • المادة (٩) •

٥ ـ جعل القانون الزواج من زوجة واحدة هي القاعدة العامة ، وجعل الزواج من ثانية الاستثناء ، وقيده بضرورة الحصول على اذن كتابي من المحكمة المختصة اذا ثبت لها عقم الزوجة ومرضها مرضا مزمنا أو معديا وذلك بتقرير طبي المادة (١١) •

٦ ـ نص القانون على اشتراك الزوجين في تحمل نفقات الزواج، وتوفير متطلبات الحياة الزوجية ، وتحمل تكاليف حياتها المشتركة بعد الزواج فاذا كان أحدهما غير قادر على ذلك كان الآخر ملزما بالانفاق وبحمل أعباء الحياة الزوجية • المادتان (١٧) ، (٢٠) • [٩٢]

٧ ـ وضع القانون حدا أعلى للمهر لايجوز أن يزيد بشطريه المعجل والمؤجل عن مائة دينار • المادة (١٨) •

٨ ـ منع القانون الطلاق من طرف واحد وبأن لايعتد بالطلاق الا بعد الحصول على اذن من المحكمة الجزئية ، والتي لن تصدر الاذن الا بعد احالة القضية الى اللجنة الشعبية ، كما أنه لايجوز للمحكمة أن تأذن بأكثر من طلقة واحدة في كل مرة ، واعتبر القانون كل طلاق رجعيا الا المكمل للثلاث طلقات المتفرقات المأذون بها من قبل المحكمة ، وباستطاعة الرجل والمرأة على حد سواء التقدم للمحكمة بطلب انهاء

العلاقة الزوجية • وحدد القانون الاسباب التي تبرز الطلاق والتفريق القضائي كالاصابة بمرض غير قابل للشفاء ، وغياب احدهما عن الآخر لمدة تزيد عن ثلاث سنوات ، وامتناع القادر منهما عن الانفاق على الآخر ، أو تفاقم الشقاق بينهما • المواد (٢٥) (٢٦) (٢٧) (٢٩) •

٩ ــ نص القانون أنه في حالة ان وجدت المحكمة أن الزوج هو المتسبب في الشقاق الذي أدى الى الطلاق جاز لها أن تحكم للمطلقة بتعويض مناسب لايزيد في كل الاحوال عن نفقة سنة • المادة (٣٠) •

١٧

وبعد صدور قانون الاسرة انعقد المؤتمر العام الاول لاتحاد نساء اليمن • كما انعقد مؤتمر ثان في شهر اكتوبر ١٩٧٨م ، وفي كلا المؤتمرين اتخذت القرارات المؤيدة لضرورة ممارسة المرأة كل حقوقها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية سواء بسواء مع الرجل • والواقع أن المرأة الآن تشارك مشاركة فعالة في كل مجالات الحياة في اليمن الديمقراطية • فسياسيا هي منخرطة في صفوف الحزب من مرتبة عضوة في المنظمة القاعدية الى مرتبة عضوة في اللجنة المركزية • كما أن المرأة ممثلة أيضا في أعلى هيئة تشريعية هو مجلس الشعب الاعلى وفي هيئة رئاسة المجلس ولجانه الدائمة • فللمرأة الآن حق الانتخاب والترشيح لمجالس الشعب المحلية ولمجلس الشعب الاعلى الذي تم انتخابه لاول مرة عن طريق الانتخابات المباشرة في ديسمبر ١٩٧٨ م •

وفي مجال الانتاج والعمل فهي تكون في بعض المصانع ، كمصانع الغزل والنسيج وغيره ، الجزء الاكبر من العمال • كما أنها تعمل بجنب

الرجل في التعاونيات ومزارع الدولة بل وحتى في البناء ، وقد عملت المرأة منذ بداية السبعينات قاضية في المحاكم ولربما تكون في هذا المضمار أول قاضية في الوطن العربي • وهناك الآن الطبيبة والمستشارة القانونية ، والمحاضرة في الكليات ، والكاتبة والاديبة • وحتى النساء الاميات اللواتي لم يعرفن العمل قبل الاستقلال ، أو عرفن فقط الخدمة في بيوت الموسرين والاجانب أصبحن الآن ـ خاصة بعد تحررهن من الامية ـ يعملن في الاماكن التي تناسبهن • فنتيجة لخطط التنمية فلم تعد هناك عطالة بأي شكل من الاشكال وانما هناك الحاجة الى أيدي عاملة أكثر من التي هي موجودة • وتشارك المرأة أيضا في المجالات العسكرية ، فهي تعمل في الجيش وفي الشرطة الشعبية ، فهناك فرق خاصة من ميليشيا النساء • وفي المدرسة لم يعد الاختلاط فقط في المرحلة الجامعية وانما أصبح معمولا به الآن في كل المراحل الابتدائية، والاعدادية والثانوية والجامعية •

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

وبالطبع فانه على الرغم من محاولة تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة في اليمن الديمقراطية ، الا أنه وجب القول بأن على المرأة أن تناضل من أجل رفع وعيها وممارسة حقوقها الباقية التي عملت الدولة على اعطائها اياها • أن تقدم أي مجتمع يقاس بمدى حرية المرأة وبطبيعة نظرة الرجل اليها، وأن العلاقات الاقتصادية الاجتماعية السائدة تكشف جانبا كبيرا وهاما من جانب حرية المرأة وطبيعة النظرة اليها عمليا على صعيد الواقع • ومن الخطأ النظر الى الحرية الاجتماعية أو معالجتها بمعزل عن الحرية الاقتصادية والسياسية •

وبديهي أن العمل هو من حق المرأة والرجل على حد سواء ، وأن تحرير المرأة اقتصاديا شرط أساسي لتحررها اجتماعيا وسياسيا، فاذا لم

تتح الفرصة للمرأة للدخول الى ميادين العمل الانتاجي ومشاركتها الفعلية في الجبهة الاقتصادية وفي كل مناحي الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية ، فان تبعية المرأة للرجل في كل شيء تظل قائمة وتظل خضوعها له أمرا واردا لا مفر منه مهما كانت هذه التبعية وهذا الخضوع غير ظاهرين للعيان وعندئذ يصبح الحديث عن حرية المرأة مجرد ثرثرة فارغة وغير ذي موضوع • (٩٣)

وفي المؤتمر الأول للحزب الاشتراكي اليمني المنعقد في ١١-١٣ اكتوبر ١٩٧٨م جاء في برنامج الحزب مايلي بشأن المرأة •.

« ان الاتحاد العام لنساء اليمن مدعو الى زيادة دوره في النضال لحل القضايا المشتركة مع جميع المنظمات الجماهيرية اليمنية والمسائل الخاصة بالحركة النسائية على حد سواء • ويتمثل الاتجاه الاساسي لنشاط الاتحاد في الظروف الراهنة في اشراك النساء اليمنيات على نطاق واسع في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للبلاد وفي النضال الدؤوب من أجل تثبيت وتحقيق وصيانة الحقوق التي منحت للمرأة وتطوير امكانياتها وكفاءاتها واشتراكها في مجال بناء الحياة الجديدة » • (٩٤)

الهوامش والمصادر :

١ ــ انظر الدكتور محمود الغول . **حفيدات بلقيس** .مجلة العربي ، العدد ٦٢ ، ١٩٦٤ ، ص ٢٤ ــ ٣١ .

٢ ــ انظر عبدالله الحبشي . **دراسات في التراث اليمني** ، دار العودة ، بيروت ١٩٧٧ ، ص ٧٣ ــ ٨٣ .

٣ ــ سعيد عوض باوزير . **الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي** . ١٩٦١ ص ٩٩ .

٤ ــ محمد بن محمد زبارة . **نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الالف**،القاهرة، ١٣٥٩ هـ . القسم الاول ، ص ٧٠٩ ــ ٧١٩ .

* د . عبد العزيز المقالح . **شعر العامية في اليمن** . دار العودة ، بيروت ١٩٧٨ ، ص ٤٠١ ــ ٤٠٢ .

٥ ــ عمر الحاوي ، **حديث مع المستشرق التقدمي مكسيم رودنسون** ، مجلة الحكمة ، عدن ، العدد (٢٥) ديسمبر ١٩٧٣ م ، ص ٩ .

٦ ــ Knox - Mawer . *The Sultans cam . to tea* . Jhon Murray , 1961 . P. 56 .

٧ ــ Naval Intelligence Div . *Western Arabia and the Red Sea* . (for official only) . London, 1946 . P. 436 .

٨ ــ G. H. Brown . *Social and Economic Conditions and possible* Development *in Socotra* . (in stencil) 1966 . Beduin p. 2 .

٩ ــ R. B. Serjeant . *The White Dune at Abyan . An Ancient Place of Pilgrimage in Southern Arabia* . J. S. S. 1971 , Vol. 16 . pp. 80 - 1 .

١٠ ــ *Ibid* p. 82 .

١١ ــ *Ibid* . pp. 76 - 80 .

١٢ ــ فؤاد حمزة . **في بلاد عسير** ، مطبعة دار الكتاب العربي ، ١٩٥١ ، ص ٨٠ ــ ٨١ .

١٣ ــ **المصدر ذاتــه** . ص ١٣١ .

١٤ ــ الدكتورة ايفاهويك .**سنوات في اليمن وحضرموت** . ترجمة خيري حمـاد ، دار الطليعة ، ١٩٦٢ ص ١٥٧ .

١٥ ــ نزيه مؤيد العظم .**رحلة في بلاد العرب السعيدة** . ج ١ ، مطبـعة عيسى البابي ط ١٩٣٧ ، ص ٤٧ ــ ٩١ .

١٦ ــ Knox - Mawer . The Sultans came to tea . p. 140 .

١٧ ــ د . عبد العزيز المقالح . **شعر العامية في اليمن** (رسالة دكتوراه) دار العودة ، ١٩٧٨ ، ص ٣٩٩ .

١٨ ــ د . محمد مصطفى الشعيني ، **اليمن الدولة والمجتمع** . النهضة ، ١٩٧٥ ، ص ٨٠ .

١٩ ــ *Western Arabia and the Red Sea . pp. 436 - 7* .

٢٠ ــ R. B. Serjeant . *Recent Marriage Legislation from Mukalla with Notes* on Marriage Customs. 1962. pp. 493-4.

٢١ ــ دكتورة ايفاهويك . **سنوات في اليمن وحضرموت** . ص ٣٦ .

٢٢ ــ Doreen Ingrams . *A time in Arabia* . Jhon Murray , 1970 . p. 24 .

٢٣ ــ دكتورة كلودي فايان . **كنت طبيبة في اليمــن** . دار الطليعــة ، ١٩٦٠ ، ص ١٤١ .

٢٤ ــ Doreen Ingrams . *op. cit* . pp. 28 - 29 .

٢٥ ــ عبد الرزاق الهلالي . **حقائق وطرائف من تاريخ التعليم في العراق**. مجلة آفاق عربية ، العدد ١١ تموز ١٩٧٨ ، ص ٩٨ ــ ١٠٥ .

٢٦ ــ Doreen Ingrams . *op. cit* . p. 26 .

٢٧ ــ *Ibid* . p. 62 .

٢٨ ـ د . كلودي فايان . **كنت طبيبة في اليمن** . ص ١٧١ ـ ١٧٢ .

٢٩ ـ محمد عبد القادر بامطرف . **الشهداء السبعة** . بغداد ١٩٧٤ ، ص ٣٣ .

٣٠ ـ ابن المجاور . **صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز** . تحقيق اوسكر لوففرين ليدن ، ١٩٥١ ، ج ١ ، ١٤٥ .

٣١ ـ ابن المجاور . **المصدر ذاته** . ج ١ ، ص ١٤٦ .

٣٢ ـ ابن المجاور . **المصدر ذاته** . ج ١ ، ص ١٣٤ ـ ٥ .

٣٣ ـ د . كلودي فايان . **كنت طبيبة في اليمن** . ص ١٨٧ .

٣٤ ـ **المصدر ذاته** . ص ١٧٩ .

٣٥ ـ فؤاد حمزه . **في بلاد عسير** . ص ١٣١ .

٣٦ ـ فايان . **المصدر ذاته** . ص ١٩٥ ـ ١٩٦ .

٣٧ ـ Knox - Mawer . *op. cit* , p. 92 .

٣٨ ـ *Western Arabia and the Red Sea* . p. 434 .

٣٩ ـ فؤاد حمزه . **في بلاد عسير** . ص ١٣٣ ـ ١٣٤ .

٤٠ ـ الشعيني . **اليمن الدولة والمجتمع** . ص ٨٠ .

٤١ ـ د . كلودي فايان . **كنت طبيبة في اليمن** . ص ١٩٠ .

٤٢ ـ Knox - Mawer . *op. cit* . pp. 95 - 7 .

٤٣ ـ فؤاد حمزه . **في بلاد عسير** . ص ١٣٢ .

٤٤ ـ المصدر ذاته ، ص ١٣٣ .

٤٥ ـ ابن المجاور . **صفة بلاد اليمن** . ج ٢ . ص ١٩١ ـ ١٩٢ .

٤٦ ـ *Western Arabia and the Red Sea* . p. 436 .

٤٧ ـ Ibid . p. 431 .

٤٨ ـ A.S. Bujra . *The politics of Stratification* . (ph. d. thesis) Oxford , 1971 , p. 131 .

٤٩ — R.B. Serjeant . *The Saiyids of Hadhramawt* . London , 1957 , pp. 21 - 22 .

٥٠ — R.B. Serjeant . *Recent Marriage Legislation* .... p. 494 .

٥١ — A.S. Bujra . *Op. cit* . p. 93 .

٥٢ — *Ibid* . p. 95 .

٥٣ — *Ibid* . p. 104 .

٥٤ — محمد الشعيني . **اليمن الدولة والمجتمع** . ص ٨١ .

٥٥ — فؤاد حمزه . **في بلاد عسير** . ص ٨١ .

٥٦ — A.S. Bujra . op. cit . p. 181 .

٥٧ — دكتوره ايفاهويك . **سنوات في اليمن وحضرموت** . ص ٢٥ .

٥٨ — دكتورة كلودي فايان . **كنت طبيبة في اليمن** . ص ١٩ .

٥٩ — نزيه العظم . **رحلة في العربية السعيدة** . ص ٩٠ .

٦٠ — د. كلودي فايان . **كنت طبيبة في اليمن** . ص ١٩٢ .

٦١ — **المصدر ذاته** . ص ١٩٥ .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

٦٢ — R.B. Serjeant . *Recent Marriage Legislation* .... pp. 496-7 .

٦٣ — د. محمد الشعيني . **اليمن الدولة والمجتمع** . ص ٧٤ .

٦٤ — Knox - Mawer . *op. cit* . pp. 92 - 3 .

٦٥ — F. M. Hunter . *An Account of the settlement of Aden* . London , 1877 , p. 43 .

٦٦ — *Ibid* p. 42 .

٦٧ — See text in Sergeant's . *Recent Marriage Legislation* .... pp. 472 - 98 .

٦٨ — *Ibid* .

٦٩ — الشعيني . **اليمن الدولة والمجتمع** . ص ٨١ .

٧٠ **المصدر ذاته** • ص ٧٩ •

٧١ – *Western Arabia and the Red Sea* . p. 433 .

٧٢ – ابن المجاور . **صفة بلاد اليمن** ج ١ ، ص ٥٦ •

٧٣ – R.B. Serjeant . *Recent Marriage Legislation* .... p. 495 .

٧٤ –احمد محمد سعيد الأصنج.**نصيب عدن من الحركة الفكرية الحديثة.**
١٩٣٤ مطبعة الثورى بمصر ص ٢٨ – ٢٩ •

٧٥ – **المصدر ذاته** . انظر ص ٩ – ١٤ ، ٨٣ – ٨٩ •

٧٦ – Serjeant . *op. cit* . pp. 490 - 8 .

٧٧ – Faroul Luqman . *Local Customs* . in Welcome to Aden .
1963 p. 208 .

٧٨ – Knox - Mawer . *op. cit* . p. 92 .

٧٩ – Doreen Ingrams . *op. cit* . p. 126 .

٨٠ – *Ibid* . pp. 127 - 8 .

٨١ – Frya Stark. *The Southern Gates of Arabia.* 1957, p. 126 .

٨٢ – محمد انعم غالب . **غريب على الطريق** (ديوان شعر . مؤسسة ١٤
اكتوبر ، ١٩٧٤ ، عدن •

٨٣ – Doreen Ingrams . *op. cit* . 62 - 63 .

٨٤ – *Ibid* . p. 26 .

٨٥ – س. ليتس ،د. بيركس . **دور المرأة في الريف العماني** ، مجلة
دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ١٠ ، ابريل ١٩٧٧ ، ص
١٠٥ – ١٠٦ •

٨٦ – الانسة س . ليتس ود . بيركس . **دور المرأة في الريف العماني** .
مجلة دراسات الخليج العربي ص ١١١ •

٨٧ – نزيه مؤيد العظم . **رحلة في بلاد العربية السعيدة** • ص ٨٩ •

٨٨ ــ في الدستور المعدل الصادر في ١٢ / ١٩٧٨ م ، أضيفت الى المادة «وتعمل الدولة كذلك على خلق الظروف التي تمكن المرأة من الجمع بين المشاركة في العمل الانتاجي ودورها في نطاق الحياة العائلية وتعطي للمرأة العاملة رعاية خاصة للتأهيل المهني » .

٨٩ ــ أنظر سليم زبال . **تحقيق حول دلتا أبين** . مجلة العربي ، العــدد ١٦٢ ، مايو ١٩٧٢ م ، ص ١٠٨ ــ ١٣٠ .

٩٠ ــ د. انيس فوزي قاسم . **تقرير** . مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٢٨ ، أكتوبر ١٩٧٦ م ، ص ١٩٨ .

٩١ ــ **المصدر ذاته** . ص ١٩٩ تعتبر هذه المادة « انعطافا جذريا في مجال التشريع في الاحوال الشخصية » .

٩٢ ــ See. I. Ghanem . A note on Law No. 1 . of 1974 . Arabian Studies . III . 1976 . p. 195 .

حيث يقول عن هذه المادة ما ترجمته بأن لها نكهة اشتراكية مميزة لأن النفقة في التشريع الاسلامي محتمة على الزوج .

٩٣ ــ **حول بعض مايكتب وما يقال عن تحرير المرأة** . صحيفة ١٤ أكتوبر ، عدن ص ٥٥٤ يناير ١٩٧٩ م

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

٩٤ ــ **برنامج الحزب الاشتراكي اليمني** . المؤتمر الأول ١١ ــ ١٣ اكتوبر ١٩٧٨ م ، ص ٣٤ .

القرن ١٦ وحركة التعليم في تمبكتو
مركز التبادل الثقافي الأول مع العرب

الدكتور عبد القادر زبادية
أستاذ التاريخ الافريقي الحديث
جامعة الجزائر

١ ـ نحو الأوج

كان القرن السادس عشر ، هو الفترة التي بلغت خلالها الحضارة العربية الاسلامية أوجها بالسودان الغربي ، أما الحقبة الممتدة بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر ، فقد كانت فترة تطورات متلاحقة لبلوغ مرحلة الأوج هذه (١) .

---

١ ـ بدات اول محاولة استطلاعية قام بها العرب لتبليغ رسالة الاسلام الى غرب السودان في القرن السابع الميلادي فقد ذكر ابن عبد الحكم ان عقبه بن نافع الفهري ارسل فرقة صغيرة من جيشه الى الجنوب الغربي ، وذلك حينما بلغ برقة في حدود ٦٧٦م . وقد وصل رجال تلك الفرقة الى جبال الطومو ، وتوقفوا عند مكان يدعى (ماء الفرس) ، وموقع ذلك المكان في الوقت الراهن عند حدود فزان النيجر .

ولا نميل الى الاعتقاد بأن هجومات المرابطين في القرن الحادي عشر على بعض المناطق المحاذية لنهر السنغال من ناحية الشمال ،

ومنذ استقرار الاسلام بالمنطقة مع نهاية القرن التاسع الميــلادي ، بدأت تتكون بها عــدة تنظيمات حكومية ، ظلت تتخطى الشكل القــبلي القديم بالتدريج ، وقد وصلت الى المرحلة الوطنية مع نهاية القرن الخامس عشر (٢) .

كان لها اثر كبير في حمل الناس على الاسلام ، لان المرابطين مالبثت عنايتهم ان تعلقت بالشمال ، ولم تبق منهــم بالجنوب الا جماعــة صغيرة ، ما لبثت أن توقفت عن النشاط هي الاخرى، وذلك حينما وصلت منطقة (كمبى صالح) في حدود سنة ١٠٧٦م .

ولعل الأثر الاكثر اهمية في اعتناق السودانيين للاسلام كان قد حصل نتيجة لاسلام المغاربة، فقد كان هؤلاء على اتصال منذ القديم بغرب افريقيا ، ولما ازدادت تلك الصلة قوة عن طريق التجارة خلال العصور الوسطى ، كان من اثرها المباشر اقبــال امراء وسلاطين السودان على اعتناق الاسلام ، وكان رعاياهم يتبعونهــم بصورة تلقائية تقريبــا .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٣ ـ خلال العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة، تكونت في السودان الغربي ثلاث ممالك كبرى ، فقد ظهرت في البداية مملكــة غانــا (في منطقة شمال السنغال وجنوب موريتانيا حاليا) ، وقد اثبتت دراسات الاستاذ (بازل دافدسن) ، انها قامت منذ البــداية في شكل قبلي صرف ، طغت فيه قبيلة على مجموعــة من القبائل ، وفرضت عليها الخضوع لحكمها . وبنفس الطريقة اقامــت قبائل الماندينغ مملكة مالي التي بلغت قوتها خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ولكن نوعا من الكونفدرالية ظهر على مالي منذ القرن الثالث عشر ، فكان في ذلك جمع بين الصورة القبليــة السابقة والصورة الوطنية المقبلة .

ثم قامت مملكة سنغاي في عهدها الاول في شكل قبلي ايضا ، الا ان الاسقيا محمد الاول (١٤٩٣ ـ ١٥٢٨) ادخل عليهــا تعديلات

وقد اعتمد استقرار الاسلام منذ البداية على عنصرين أساسيين ، هما : التجارة والتعليم ، وظلت المظاهر الحضارية في كل السودان الغربي انما تزداد ازدهارا في كل حقبة بالمدن التي تتلاءم مواقعها مع توارد قوافل الشمال عليها ، بالدرجة الاولى (٣) .

جوهرية ، فأبعدها عن الشكل القبلي وأعطاها صبغة وطنية ، بحيث أصبحت تشترك في تسيير المملكة معظم القبائل المنضوية تحت لوائها . وقد اضطر من اجل الوصول لذلك الهدف الى خوض معارك حامية ضد زعماء قبيلة سنغاي الذين لم يرضوا مشاركة بقية القبائل لهم في الحكم ، ولما انتصر عليهم ، كان ذلك ايذانا بتخطي الاشكال القبلية القديمة، وذلك لأول مرة في تاريخ السودان الغربي حتى القرن السادس عشر .

لزيادة التفاصيل ، يمكن مراجعة المصادر التالية بصورة خاصة، وهي :

- دافيدسن ، بازل ، افريقيا تحت اضواء جديدة ، دار الثقافة بيروت ، ١٩٦٣ ، (ترجمة م. أحمد) .
- قداح ، نعيم ، افريقيا الغربية في ظل الاسلام ، مطبعة الوحدة ، دمشق (دون تاريخ) .
- عبد القادر ، زبادية ، مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين ، الجزائر ، ١٩٧٣ .
- J. FAGE . *Introduction to the history of West Africa* , Cambridge , 1955 .
- A. DIOP , *L'Afrique Noire , pré-coloniale* . Paris . 1960 .
- J. Suret-Canale , *Afrique Noire , Géog . Civilisations* , Histoire , Paris , 1961 .

٣ ــ ظلت المراكز الحضارية بالسودان الغربي حتى القرن السادس عشر، هي المدن التي كان يأتي اليها او يقطنها كثير من تجار الشمال ، أما البوادي والقرى ، فقد ظلت تعيش على الاساليب البدائية القديمة. ويرى الاستاذ (ديبوا) أنه لا يوجد في تاريخ السودان الغربي اثر

وكان القرن السادس عشر قد قيض خلاله لمدينة تمبكتو ان تصبح محطة القوافل الاولى في كل بلاد السودان ، فسكنها كثير من التجار وقصدها جم غفير من العلماء والطلاب ، مما بوأها اثناءه مكانة المدينة الاولى للعلم والثقافة في السودان الغربي كله [٤] . وفي تلك الحقبة

حضاري وثقافي الا في المدن التي كانت تتوارد عليها القوافل ، وبهذه الصورة قامت (والاتا) في البداية كمركز ثقافي وحضاري كبير ، ولما ظهرت الاضطرابات في منطقتها كنتيجة لتوسع مالي خلال القرن الثالث عشر ، ضعفت والاتا بسرعة منذ ذلك الحين ، وهاجرها العلماء الى (تمبكتو) التي اتخذها التجار من جديد محطة لنزولهم ، انظر

F. Dubois , *Tombouctou la mystérieuse* Paris , (Flammarion) , 1897 . p. 263 .

٤ ـ يعود تأسيس مدينة تمبكتو الى القرن الحادي عشر ، وقد أسسها طوارق (ايمغراشن) حينما اتخذوا من مكانها مشتى لهم في حدود ذلك التاريخ . اما خلال الصيف فانهم يعودون الى (أروان) حيث مرابعهم الاصلية، ويقال ان اسمها أخذته من اسم العجوز التي كان الطوارق قد عهدوا اليها بالبقاء في ذلك المكان ، حينما يغادرونه في رحلتهم الصيفية ، وكانت تحرس لهم فيه بعض المخازن والبيوت . ثم ما لبث بعض التجار ان عقدوا سوقا في ذلك المكان واتخذوا فيه مستودعات للبضائع ، وبذلك اخذت المدينة طريقها الى النمو التدريجي ، ولكن دون نظام ، وفي أيام كنكان موسى ملك مالي (القرن الرابع عشر) بنى له فيها قصر فخم ، كما اسس أول مساجدها المسمى (دنقريبر) ، وقد بناهما الشاعر الساحلي ، وهو مهندس غرناطي استقدمه كنكان موسى معه حين عاد من الحج حوالي سنة ١٣٢٦م . وفي تلك الاثناء هاجر عدد من العلماء مدينة والاتا (المركز الثقافي الاول في غرب السودان حتى ذلك الحين)، وسكنوا تمبكتو ، فزادها ذلك ازدهارا ، اما التجارة فقد اخذوا

وصفت بأم مدائن السودانيين سواء في العلم والحضارة أو في العمران والتجارة (٥) .

٢ - من مظاهر الازدهار

خلال القرن السادس عشر أصبح سكان تمبكتو يزيدون على خمسة وثلاثين ألف ساكن ، وربما لم تعد تفوقها آنذاك في كثرة السكان مدينة سودانية أخرى في غرب افريقيا ، غير غاو العاصمة السياسية للامبراطورية السنغائية التي كانت تمبكتو آنذاك احدى مدنها الهامة (٦) .

يستعيضون بها عن والاتا بالتدريج ، وما أن أطل القرن السادس عشر حتى جمعت تمبكتو بين التجارة الواسعة والنشاط الثقافي المتزايد ، وقد بلغت فيهما مرحلة الاوج خلال الفترة ١٤٩٦ و ١٥٩١ وفي تلك الاثناء انتظمت شوارع المدينة ، واكتسبت معظم أبنيتها شكلها الهندسي على النمط المغربي - الاندلسي ، كما نقله اليها الساحلي يقول السعدي : « وما تكامل البناء (في تمبكتو) في الالتصاق والالتئام الا في أواسط القرن العاشر ، في مدة اسقيا داود) . انظر :

- السعدي : عبد الرحمن ، تاريخ السودان ، (ميزوناف) باريس ، ١٩٤٦ . (تحقيق هوداس وبونوا) ، ص ٢٢ .

- Dubois , F., *op.cit.*, pp. 313 - 318 .

٥ - *Ibid* , p. 252 .

٦ - جرت محاورة لطيفة في ذلك الوقت بين جماعة من سكان تمبكتو وجماعة من سكان غاو ، وقد احتد النقاش بين الفريقين حول أي من المدينتين أكثر بيوتا ، مما أدى بهما الى عد بيوت كل من المدينتين على حدة ، وقد استدل من ذلك على أن سكان تمبكتو يزيدون على الثلاثين ألف ساكن ، انظر :

- كعت ، محمود ، تاريخ الفتاش ، ميزوناف ، باريس ، ١٩٦٤ (تحقيق هوداس) ص ١٤٥ .

Mauny R., *Tableau géographique de L'Ouest African* , Dakar . 1961 p. 491 .

وفي تلك الاثناء أصبحت تمبكتو العاصمة الثانية للامبراطورية في ميداني الاقتصاد والثقافة معا (٧) . وقد انتظمت شوارعها ، واحيطت المدينة بسور ، اما المنازل فقد ازدانت نسبة كبيرة من بينها بواجهات في شكل زرائب أو حدائق صغيرة تربطها الى حيطان البيوت سياجات (٨) . وقد احتوت تمبكتو في تلك الأثناء على ثلاث مساجد كبيرة (جوامع)، مما لم يتهيأ لغيرها من كبريات مدن السودان الغربي آنذاك(٩). وأخذت

---

٧ ـ في ميدان الثقافة تتفق مراجع تلك الفترة على ان تمبكتو لم يكن يجاريها في ذلك الوقت مدينة اخرى ، لكثرة العلماء والطلاب بها ونشاطهم المتزايد . اما في ميدان الاقتصاد فان امراء سنغاي ، كانوا حينما يحتاجون للمال في اوقات الشدة يلجأون للاقتراض من تجار تمبكتو ، كما ان بعضهم زوج بناته بأغنياء التجار في تمبكتو ، ولم يحصل هذا مع غيرهم ، وقد تأثر الحسن بن محمد الفاسي الوزاني بالنشاط التجاري الذي كانت عليه المدينة ، وكثرة بضائعها ، مما جعله يعتبرها امارة قائمة بذاتها ، انظر :

ـ السعدي ، عبد الرحمن ، نفس المصدر ، ص ٢٢ .

ـ احمد بابا ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، فاس ، ١٣٧١ هـ ، ص ٤١ .

- Jean Léon l'African . *Description de L'Afrique* Trad . Schefer et Cordier , Paris . (Burdin) , 1898 , T. 3, p. 292 .

٨ ـ يذكر السعدي ، نفس المصدر ، ص ١٨ ، ان تمبكتو كانت حين نشأتها الاولى لا سور لها والواقف خارجها يستطيع مشاهدة داخلها ، وفي أيام الاساقي أصبحت تتوفر على ذلك السور كما أن البيوت لم تعد مكشوفة ، ثم يذكر انه في عهد الطوارق لم يكن لبيوتها نظام ، اما في القرن السادس عشر ، فقد انتظمت بيوتها ودكاكينها ووجدت بينها ممرات في شكل شوارع .

٩ ـ وجود المساجد الكبيرة في مدينة ما ، كان يشير الى نشاط التعليم وتكاثر السكان واتساع الاحياء ، والمدن الكبيرة بالسودان الغربي في تلك الحقبة ، هي : غاو ، جنى وتمبكتو . اما جنى فقد كان بها مسجدان احدهما صغير، وربما لم يكن في غاو غير جامع واحد،

أسواقها طابعها الاسلامي ، (١٠) كما كانت ترى توارد العديد من القوافل الكبيرة عليها، (١١) وسكنتها جماعة من التجار الاغنياء،أما حركة التبادل، فانها كانت تمر بفترة من النشاط معتبرة (١٢) . واذا كان القرن السادس عشر قد ظهرت خلاله تمبكتو مدينة السودان الاولى في علاقاتها التجارية مع بلدان المغرب ومصر ، فان ذلك القرن ، هو الذي أصبحت خلاله تلك المدينة أيضا ، مركزا هاما من مراكز الانتاج الثقافي ضمن ميدان الحضارة الاسلامية الفسيح ، وبذلك لم يقتصر دورها في هذا الجانب على مجرد التبادل مع جزء من العالم الاسلامي وانما تجاوزه الى استيعاب ما انتجه العالم الاسلامي ككل ، والمشاركة في تنميته ونشره

→

واما تمبكتو فقد كان بها ثلاثة مساجد كبيرة هي : أ) مسجد الونكريين (دنكربير) ب) مسجد سنكري ـ ج) مسجد سيدي يحيى .

١٠ ـ كان يغلب على نظام الاسواق في المدن الاسلامية الكبرى ، تقسيمها الى اقسام ، ويختص كل قسم بنوعية معينة من البضائع ، مما مكن الفاطميين من اتخاذ عرفاء على تجار كل نوع من البضائع ، في شكل نقابيات ، ينظر : حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

١١ ـ لانستطيع تقدير عدد القوافل التي كانت تجهز بين شمال افريقيا والسودان في القرن السادس عشر ، اما في القرن الرابع عشر ، وكان اقلّ من السادس عشر نشاطا بدون شك، فقد قدر ابن خلدون في (التاريخ ج ٧ ، ص ٤٣٥ ط. بيروت ، ١٩٦٣) حجم كلّ قافلة بما لا يقل عن اثني عشر جملا ، وذهب الى ان كل القرى والمدن الواقعة على مشارف الصحراء الشمالية كانت تشترك في تجهيز تلك القوافل باتجاه السودان .

١٢ ـ Cf. J. L. l'African . *op. cit.*. pp. 292 - 96 ; Dubois . *op. cit.*. chap. XIII .

بين أمم السودان الغربي وشعوبه (١٣) .

٣ ـ حركة التعليم

رأت تمبكتو في القرن السادس عشر نشاطا فيما يختص بحركة التدريس ، وقد ضمت مدارسها العديد من الطلاب والاساتذة ، كما رأت لأول مرة في تاريخ السودان الغربي ، اتساع التعليم الجامعي ، وتوارد عليها في تلك الأثناء عدد من الاساتذة من بلدان المغرب ، فساهموا في تنشيط التعليم وتعميقه (١٤) ، وفي تلك الفترة بدأ العلماء السودانيون في الانتاج ، فكتبوا شروحا لعدد من المؤلفات الهامة التي الفت خارج السودان ، وقد صاحب ذلك انتظام مراحل التعليم ، واخذه طابعا عاما ، كانت له مميزاته وخصائصه (١٥) .

---

١٣ ـ Incyclopédie de l'Islam. T. IV (S - Z). Leyde. 1934, p. 816
غير أن صاحب الدراسة يذكر أن تمبكتو قد احتلت من قبل المغاربة في أيام الاسقيا داود ، والواقع غير هذا ، لان المغاربة لم يدخلوا المدينة كفاتحين الا في اخر عهد الاسقيا اسحاق الثاني ١٥٩١ .

١٤ كان من أبرز من وفد عليها من علماء المغرب واكتسبوا بها شهرة في تلك الاثناء : محمد بن عبد الكريم المغيلي ، سيدي يحيى التادلسي ، مخلوف البلبالي وابراهيم الزلفي ، وكذا عدد هام من علماء توات .
ـ ينظر السعدي ، المصدر المذكور ، صفحات ٢١ ـ ٤٥ ، وعن المغيلي خاصة ينظر تحقيقنا لاسئلة الاسقيا واجوبة المغيلي ، الجزائر ، ١٩٧٤ .

١٥ ـ من الجدير بالذكر هنا أن كل التأثيرات الخارجية التي عرفها السودان الغربي في ميدان الحضارة ، حتى نهاية القرن السابع عشر ، كان الفضل فيها يعود للمغاربة وللمصريين بالدرجة الاولى، وبالنظر للعوامل الجغرافية ، فان المغاربة كانوا أكثر تأثيرا من المصريين . أما الاوروبيون فأنهم حتى القرن الثامن عشر كانوا لم يتجاوزوا السواحل ، وحتى نهاية القرن السابع عشر ، ظلت معلوماتهم عن الداخل نظرية بحتة ، وحتى نهاية القرن الرابع عشر

أ) مراحل التعليم

كان التعليم في تمبكتو خلال القرن السادس عشر ، يقسم الى ابتدائي وثانوي وعال ، وكان التعليم الابتدائي تتجسم فيه المرحلة الاولى الاساسية لكل الطلاب ، (١٦) هذا بالاضافة الى ان مرحلته هي الوحيدة التي يبدو انه كان يراعى فيها الى حد ما ، مستوى السن ، فكان التلاميذ في السلك الابتدائي لا يتجاوزون في أغلبيتهم مرحلة الصبا (١٧) .

→

بقي اكتشاف داخل القارة الافريقية عموما ، والسودان الغربي بشكل خاص ، للعرب وحدهم ، ولعل أول محاولة اوروبية للوصول الى المناطق الواقعة جنوب المغرب الاقصى، كانت هي رحلة الاخوين (فيفالدي) من جنوى، اللذين حاولا الوصول الى ريو دي اور (وادي الذهب) سنة ١٢٩١م ولكن غابت اخبارهما من ساعتئذ . وفي ١٤٤٧ حاول الرحالة (مالفانت) الايطالي الوصول الى تمبكتو عن طريق توات ، ولكنه لم يتمكن فبقي أياما في تلك الواحة ثم عاد ، ومن هنا ، فاننا نميل الى الاعتقاد بأن كل تقدم أحرزه السودان الغربي في ميدان التعليم ، ظل اسلاميا وبتأثير من الحضارة العربية وحدها ، وهذا حتى بداية القرن العشرين .

لزيادة التفاصيل ، يراجع بصورة خاصة :

Coquery . Catherine . La *découverte de l'Afrique* . Paris , 1915 .

De Zuraca, C.E., *Chronique de Guinée* (Trade. Bourdon). Paris, 1841, Chap. 9, p. 56 .

Ca de Mosto, *Relation de voyage à la Côte occidentale de l'Afrique*, (Trad. Schefer), Paris. 1895. pp. 49 - 51 .

De Baross. J.. De Asia. *Lisbonne 1778.* T. I. Chap. 2 .

١٦ ـ كان الاساتذة في المرحلتين الثانوية والعالية ، لا يتعاطون تعليم القراءة والكتابة ، ولذا كان على كل طالب أن يدخل المدرسة الابتدائية أولا ، ليتزود بما يمكنه من معرفة القراءة والتسجيل وهذا قبل ان يجلس في حلقة أي استاذ كان .

١٧ ـ لا يشير المؤرخون السودانيون من تلك الفترة لتلاميذ المرحلة

←

وبعد ان ينهي الطالب مرحلة التعليم الابتدائي ، يدخل مرحلة التعليم الثانوي والعالي ، ولم يكن لهاتين المرحلتين عرف معين في السن ، كما أن الفروق بينهما لم تكن واضحة ، ولعل مرد ذلك الى ان هاتين المرحلتين كان التعليم فيهما حرا بالنسبة لانخراط الطلبة [١٨] ، أما في المرحلة الابتدائية ، فلا شك أن الآباء هم الذين كانوا يقودون أبناءهم الى معلمي الصبيان ، ويجبرونهم على الدوام ، كما يراقبون مدى استيعابهم [١٩] .
وكانت مرحلة التعليم الثانوي تمتاز بأن الكتب التي تدرس فيها ، هي الكتب المبسطة ، وكان يتولى تدريسها غالبا من يسمون بـ (الاشياخ)[٢٠]

الابتدائية الا بعبارة (الصبيان) . ينظر مثلا :
ـ كعت ، نفس المصدر ، صفحات ٩٥ ـ ١٧٨ ـ ١٨٠ .
ـ السعدي ، نفس المصدر ، صفحات ١٩ ـ ٢٢ ـ ١٣٠ .. الخ .

١٨ ـ كان الاساتذة في هاتين المرحلتين يجلسون للتدريس ، ويتحلق حولهم الطلاب ، ويجلس الطالب في حلقة ما ، حسب رغبته في المادة التي يكون الاستاذ بصدد تدريسها أولا ، ثم حسب قدرته على الفهم والاستيعاب .

١٩ ـ تحدث ابن بطوطة (القرن الرابع عشر) عن حرص السودانيين على تحفيظ ابنائهم القرآن وتعليمهم الاخلاق منذ الصغر ، ويذكر من أمثلة ذلك عن أحدهم أنه كتف ابنه بحبل يوم العيد ، ولم يفك وثاقه رغم توسل البعض اليه في ذلك ، حتى لحفظ الجزء الذي يطلب منه . ولم يؤثر لنا شيء عن تغير تلك العادة لديهم ، فيما بعد .

٢٠ ـ تحدث محمود كعت مثلا عن مدرس كان يشرح رسالة ابن ابي زيد القيرواني الاسقيا داود فسماه بـ (الشيخ) ، وتحدث كل من السعدي وأحمد بابا عن عدد ممن أخذوا عليهم ، فوصفا من درسوهما الكتب المفصلة الكبيرة في مادة ما ، مثل الفية ابن مالك والعاصمية بـ (الاساتذة) . ووصفا اللذين كانا قد اخذا عليهم مثل الرسالة وابن عاشر والاجرومية بـ (الاشياخ) . وهناك فريق ثالث كانا قد أخذا عليهم ، مثل الاجرومية والالفية معا، أو الرسالة

ويبدو أن الأشياخ في العرف العام آنذاك ، كانوا متوسطي الثقافة بالنسبة للاستاذة ، ولكن عددا من الاساتـذة تعاطوا ايضا تدريس مثل هـذه المؤلفات ، وهذا مما يجعل الانفصال بين المرحلتين واضحا للباحث ، لأن أولئك الاساتذة في نفس الوقت كانوا يجمعون الى ذلك ، تدريس أمهات الكتب المفصلة في نفس الموضوع ، ويبدو أنهم كانوا يقسمون أوقاتهم خلال النهار ، فيدرسون مثلا في الصباح لطلاب في مستوى الثانوي ، ثم يجلسون بعد الظهر لطلاب المرحلة العليا أو العكس (٢١) ومن هنا يبدو الانتظام في المراحل التي يمر بها الطالب من حيث التدرج في مستويات التعليم بين المراحل ، ووجود منهج قار لكل مرحلة .

ب) المنـاهج

رأت مناهج التدريس منحى وحدويا بين كل البلدان الاسلامية ، وخاصة في القرن الرابع الهجري (٢٢) . وكان العرف السائد والجاري به العمل ، هو ان التلميذ يدخل الكتاب اولا ، لتعلم القراءة والكتابة والخط ويحفظ شيئا من القرآن ، وقد تساعد امكانيات المعلم علـى تلقينه أوليات في الفرائض والحساب واللغة أيضـا . على أن امكانيات هذا كان قليل الحصول في بلاد المغرب على ما يظهر ، وظل يغلب على منهج المغاربة في المرحلة الابتدائية الاقتصار على تحفيظ القرآن مـع تعليم الكتابة والخط (٢٣) .

وخليل ، فوصفاهما بـ (شيخي واستاذي) . ينظر :
ـ السعدي ، نفس المصدر ، صفحات ٢٠ ـ ٣٣ ـ ٩٤ .
ـ احمد بابا ، نفس المصدر ، ص ١٧٩ .

٢١ ـ احمد بابا ، المصدر نفسه ، والسعدي ، المصدر السابق ، ص ٤٤.

٢٢ ـ ينظر شلبي ، أحمد ، تاريخ التربية الاسلاميـة ، دار الكشـاف ، بيروت ، ١٩٥٤ صفحات ١١٧ ـ ١٨٦ .

٢٣ ـ يذكر العلامة ابن خلدون في تاريخه اختلافا بين المغاربة والمشارقة في هذا الميدان ، فحواه ان المغاربة يبداون بتحفيظ القرآن قبل اي

وبما أن السودانيين أخذوا أساليب التعليم مباشرة عن المغاربة فان منهج هؤلاء هو الذي يبدو أنه ظل يجري به العمل لديهم (٢٤) .

أما مناهج المرحلتين : الثانوية والعالية ، فقد كانت واسعة حقا ، وكانت المواد الاساسية فيها ، هي : النحو وفقه اللغة ، الحديث والفقه ، التفسير والتجويد، التوحيد والمنطق، ثم الحساب وشيء من العروض[٢٥] . وكانت المناهج في المرحلتين مرتبطة ببعضها غالبا ، بمعنى أن الطالب يدرس المؤلفات المبسطة في موضوع ما ، خلال المرحلة الاولى (الثانوية)، ثم يتدرج الى دراسة المؤلفات المفصلة مع شروحها وحواشيها بعد ذلك وفي نفس الموضوع . (٢٦)

شيء آخر ، في حين كان المشارقة يجمعون الى ذلك بقية الفعاليات التي توصل التلميذ الى الفهم .

٢٤ ـ يذكر عبد الرحمن السعدي ان كل معلمي الكتاب في تمبكتو حين قدوم محلة الباشا جودار سنة ١٥٩١م . كانوا مجرد (معلمي قرآن) ـ انظر ، السعدي ، نفس المصدر ، ص ١٨٠ .

٢٥ ـ أحمد بابا ، نفس المصدر ص ١٧٩، والسعدي ، نفس المصدر، ص ٢٠ . هذا وان المصادر لم تسعفنا بما يؤكد أو ينفي الافتراض بان الطب كان من المواد التي تحتويها المناهج ، مع وجود اشارات الى تداول كتاب السيوطي في الطب بين الناس ، كما ان عددا من مرضى العيون كانوا يقصدون الاساتذة المشهورين ب (قدح العيون) على حد تعبير محمود كعت ، وكانوا حينما يجدون على أيديهم الشفاء يقدمون لهم كثيرا من الهدايا ، اما العروض فبالرغم من انه كان من المواد التي تدرس ، الا ان انتاج السودانيين في ميدان الشعر ظل ضعيفا في تلك الفترة . ولعل مرد ذلك الى أن أساس الانتاج الشعري لا تكفي فيه معرفة القواعد وحدها .

٢٦ ـ مما يلفت النظر أن عددا من المؤلفات المغربية عرفت في تمبكتو خلال تلك الفترة ، ولم تعرف في المشرق ، مثل جامع المعيار للونشريسي وأرجوزة المغيلي في المنطق ، فقد كانا من بين المصنفات التي كان يتناولها المدرسون بالشرح لطلابهم في مساجد تمبكتو ،

ومن المؤكد أن المناهج كانت تشمل صفوة ما بلغته الحضارة الاسلامية في ميدان المعارف ، غير أنه لا يبدو أن تلك المناهج قد عصمت بالناس من بعض الانحراف ، ذلك أن المتتبع لسيرة غالبية المدرسين في تمبكتو خلال تلك الفترة ، يجد لديهم نوعا من الصوفية المبالغ فيها ، مما جعل الكثيرين من بينهم يعتقدون بالغيبيات ، ويعملون لحمل الناس على تصديقهم ، وكان المتخرجون على أيديهم يتطبعون بتلك الروح في الغالب . (٢٧)

د) أمكنة التدريس

كانت أمكنة التدريس الاساسية هي المساجد والجوامع ، وكان من أشهرها وأكثرها اكتظاظا بجموع الطلبة والمدرسين ، خلال القرن

في حين أن كتب المشارقة عرفت كلها ، سواء في المغرب أو في السودان الغربي . ينظر أحمد بابا ، المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

٢٧ ـ زخرت كتابات كل من أحمد بابا وعبد الرحمن السعدي ومحمود كعت ، أثناء الحديث عن اشياخهم واساتذتهم ، بذكر كل ما كان يدعى معظمهم الانصاف به من (معرفة الغيب) و (انطباق مايرونه في النام على واقع المستقبل) ، و (توقيفهم لنزول المطر عن طلابهم حين يجتمعون بهم في العراء) ، أو ك (انفتاح باب قبر الرسول على مصراعيه لأحدهم حين الحج) ، و (انشقاق مياه النيجر الى شطرين اثناء عبور آخر النهر) ، وغير ذلك ، وهم يفسرون هذا دائما بكون اولئك العلماء الذين تتفق لهم مثل تلك الخوارق من (أولياء الله) . ولعل مرد ذلك كله الى بقاء الروح الاسطورية القديمة في النفوس، وليس لما ذهب اليه الاسقيا محمد في رسالته الى المغيلي مثلا ، من أن العلماء في بلاده لا يفهمون العربية فهما جيدا ، ثم يؤدي بهم الادعاء الى القول بما ليس في القرآن ، لان اولئك المدرسين كان يبدو من أعمالهم التضلع الكافي بما يدرسون ، وقد ترك أغلبهم شروحا وحواشي للمواد التي كانوا يدرسونها وقد قيدها عليهم طلابهم ، وبقيت موجودة حتى الان وهي تؤكد تضلعهم في العربية وفي المواد التي كانوا يدرسونها .

السادس عشر ، جامع (سنكورى) (٢٨) وهو يقع في القسم الشمالي من مدينة تمبكتو ، وقد بنته سيدة فاضلة ، قيل أنها كانت من الموسرات ، (٢٩) ثم جامع (دنفربير) ، وكان قد بناه في الاصل أحد الاندلسيين لكانكان موسى صاحب مالي ، (٣٠) ثم أدخلت عليه تحسينات ووسعت مساحته مرتين خلال القرن السادس عشر ، وذلك لكي يسع جموع قاصديه من الطلبة والمصلين ، ويبدو أن تكاثر الازدحام عليه ، هو الذي كان يدعو باستمرار الى العمل على

---

٢٨ ـ أصبح جامع سنكوري في تلك الفترة ، بمثابة جامعة للسودان الغربي كله ، وقد توارد عليها جماعة من الاساتذة اللامعين ، وكانت المواد التي تدرس فيها بتعمق . ينظر بصورة خاصة :

- Delafosse. *M.. Haut Sénégal-Niger.* Paris, 1912, T. 2, p. 346 .
- Péfontan (Lieut.) « Histoire de Tombouctou » *in Bull. de l'Afrique occidentale, 1922,* (Tirage à part) .

٢٩ ـ بناء السيدات الموسرات للجوامع كان قاعدة مرعية لدى المسلمين على ما يظهر ، ويمكن أن نذكر من أمثلة ذلك أيضا ، بناء السيدة فاطمة الفهرية لجامعة القرويين ، كما ان عددا من الخاتونات هي اللائي كن بنين عددا من المساجد في العراق والشام ومصر ، ويلاحظ بهذا مدى تأثر التمبكتيين بالتقاليد الاسلامية من المشرق او المغرب على السواء .

٣٠ ـ الاندلسي ، هو ابو عبد الله الساحلي أحد شعراء غرناطة ، وكان معماريا ، ثم التقى في موسم الحج بالسلطان موسى الاول ، فاستقدمه معه الى السودان الغربي حوالى ١٣٢٦م وقد بنى في تمبكتو جامعا وقصرا للملك ، كما بنى في (يني) عاصمة مملكة مالي انذاك ، قصرا اخر ، ويقال انه منذ ذلك الوقت اخذ الاسلوب المغربي ـ الاندلسي في فن البناء ينتشر بغرب السودان .

توسيعه. (٣١) ويأتي بعد هذين مسجد سيدي يحيى ، وقد بني تخليدا لأحد علماء المغرب الذين باشروا التعليم في تمبكتو خلال النصف الاول من القرن السادس عشر ، فاجتهدوا في تعليمهم وأفادوا النـاس . (٣٢) والى جانب هذه المساجد الثلاث ، كان يوجد جامع خالـــد، وهو كما يدل اطلاق اسم الجامع عليه ، كان كبيرا نسبيا ، الا أن الدراســة فيه ربما كانت مقتصرة على المرحلة الثانوية فقط . (٣٣)

وقد كانت بعض الجوامع تحتوي على مراحل التعليم الثـلاث ، فيجلس في جانب من الجامع طلبة القرآن مع تلاميـــذهم ، ويجلس في

---

٣١ ــ وسع جامع سنكوري مرتين خلال القرن السادس عشر وكانت المرة الاخيرة حوالى ١٤٨٥ وقد قام بذلك القاضي (العاقب) الذي تناهى الينا انه كان يصرف على الاشغال من ماله الخـاص ، ولم يقبل من بعض الموسرين رغم الحاحهم عليه مشاركتهم له في الانفاق، الا أشياء رمزية فقط ، ومهما يكن فان اعمال التوسيع في حـد ذاتها تشير الى تكاثر الطلبة وازدهار التعليم في سنكوري ، مما جعلـــه يحتل المرتبة المولى بين جوامع تمبكتو في تلك الاثناء . انظر كعت ، نفس المصدر ، ص ٤١ .

٣٢ ــ هو يحيى التادلسي ، وقد سكن تمبكتو ، وكان في حياته قد اتخذ في مكان ذلك المسجد بيتا صغيرا للتدريس . ويقول كعت : ان أهل تمبكتو (كانوا يعتقدون فيه) . فلما مات بنوا على قبره ذلك المسجد. وقد تحول سريعا الى جامع كما يبدو لتكاثر سكـان الحي الموجود به ، ولازدهار التدريس في المدينة ككـــل ، مما جعــــل الطلبة والمدرسين يملأون كل الرحاب .

٣٣ ــ لا يذكره محمود كعت الا كجامع صغير ، ورغم ذلك فقد كان يتوارد عليه الطلبة والمعلمون ، ويفهم من كلامه انه كـــان يوجد بالمدينـــة آنذاك ، كثير من المساجد الصغيرة غيره ، ينظر كعـــت ، المصدر السابق ، ص ٣٨ .

فنائه وقاعاته غالبا اشياخ التعليم الثانوي وأساتذة التعليم العالي • (٣٤) ولكن طلبة القرآن في الغالب ، كانوا يتخذون دكاكين خاصة لعملهم أو يلتصقون بجنبات المساجد الصغيرة ، (٣٥) كما أن بعض الاساتذة وكذلك الاشياخ ، كانوا أحيانا يتعاطون التدريس في منازلهم ، الا أن هذا كان في حالات قليلة ، أما غالب جلوسهم ، فقد كان في رحاب المساجد والجوامع • (٣٦)

هـ) طريقة التدريس

كانت المناقشة بين الاستاذ وطلابه جاريا بها العمل ، (٣٦) أما التواضع ولين الجانب للطلبة ، فقد كانا من شيم الاساتذة اللامعين بتمبكتو في تلك الفترة ، (٣٧) وكان صبر الاستاذ على تفهيم طلبته

---

٣٤ ـ هذا ما يفهم من كلام السعدي أثناء الحديث عن تمبكتو في عهد الاسقيا داود ، انظر السعدي ، نفس المصدر ، ص ٤٧ •

٣٥ ـ كانت المدارس الابتدائية الخاصة بمعلمي الكتاب (خارج المساجد) قد تراوحت في تلك الفترة بين مائة وخمسين ، الى مائة وثمانين مكتبا ، وكان معظمها يحتوي على العديد من التلاميذ ، وقد ذكر عن واحد من بينها، وهو مكتب المعلم (علي تكريا) انه كان يضم في سنة ١٥٩١م أكثر من ١٢٣ تلميذا • (ينظر كعت، المصدر السابق ، ص ١٨٠) •

٣٦ ـ يشير الى ذلك بوضوح كل من احمد بابا والسعدي ، أثناء الحديث عن أساتذتهما وأشياخهما • (انظر السعدي ، المصدر السابق ، صفحات ١٩ ـ ٤٦ ، وأحمد بابا ، المصدر السابق ، ص ٢٧٩)•

٣٦ ـ السعدي ، المصدر المذكور ، ص ٤٦ •

٣٧ ـ المصدر نفسه •

يعتبره الناس من صفات الاساتذة الناجحين في مهنتهم ، (٣٨) وكانت الطريقة الشائعة في الدرس ، هي أن يبدأ الاستاذ بامـلاء رأيه في المسائل على طلبته ، وبعدها يقرأ الطلاب درسهم من الكتاب المقرر بحضور الاستاذ ، ثم يطلب كل منهم توضيح ما يشكل عليه، وأثناء ذلك يقيد الطلبة التفاسير التي يعطيها الاستاذ كجواب على استفساراتهم . (٣٩)

ويبدو أنه أثناء الشرح كان الاساتذة يختارون العبارات المبسطة لكي يتمكن طلابهم من استيعاب ما يقولون . (٤٠) ولعلنا اذا أردنا أن نوجز معالم الطريقة المثلى في اعتبار الناس آنذاك ، فاننا ربما نجد في أبيات المرثية التالية ، وهي من تلك الفترة ، خير معبر عن ذلك : (٤١)

أطلاب علم الفقه تدرون ما الذي يثير هموم القلب من كل وافد ؟
يثير هموم القلب فقد سميدع فقيه حليم حامل للفرائد
بحسن تعليم مقرب فهمه وفتاق تهذيب بحسن الفوائد
محمد الاستاذ مؤدب ذي النهى رباطا صبارا أمره في التزايد

ويضاف الى هذا أن المدرسين على اختلاف مستوياتهم، لم يكونوا

---

٣٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٤ .

٣٩ ـ احمد بابا ، المصدر السابق ، ص ٣٧٦ .

٤٠ ـ المصدر نفسه ،والسعدي ، المصدر السابق ، ص ٤٦ .

٤١ ـ الابيات للشيخ يحيى التادلسي ، الذي كان أحد المدرسين اللامعين بتمبكتو آنذاك ، اما المرثي، فهو محمد الكابري احد المدرسين الكبار في جامعة (سنكري) في تلك الاثناء . وقد اقتصرنا هنا على ايراد الابيات المتعلقة منها بتبيين طريقة الكابري في التدريس ، وقد أورد المرثية كاملة السعدي ، المصدر السابق ، ص ٤٩ .

يلتزمون بالتوقف عند مادة بعينها، بل انهم كانوا يتصدون غالبا لتدريس مواد عديدة ، ولكنهم لا يدرسون الا المواد التي يكونون قد اتقنوها وأجيزوا فيها • (٤٢)

و) الاجازات

عرف المدرسون والطلاب في تمبكتو خلال القرن السادس عشر نظام الشهادات ، كما عرفته البلاد الاسلامية الاخرى ، وبما أن طلب العلم كان يتصف بالحرية التامة ، فيما يتصل بالطلاب ، فانه يبدو أن الاساتذة ايضا ، كانوا لا يجيزون الطلاب الا بعد التأكد من تمكنهم في المواد التي يدرسونها لهم • (٤٣)

أما طريقة الاجازة ، فقد كانت بسيطة ، ولكنها كانت مما يتلاءم والطريقة الحصيفة التي تستند الى تأكد الاستاذ من أن الطالب يكون قد أحرز على التمكن الكافي في مادة بعينها ، ذلك أن الاستاذ لا يراعي أية شكليات في منح الاجازة لطالب العلم على يديه ، ولكنه يراعي

---

٤٢ ـ لعل مما يجدر ذكره هنا ، ان طريقة الاختصاص بمادة واحدة ، لم يكن يعرفها العالم قبل القرون الثلاثة الاخيرة من تاريخه • أما في السابق فان اسلوب (الموسوعات) هو الذي كان يجري به العمل عند كل الامم •

٤٣ ـ ذكر كل من احمد بابا والسعدي عديدا من الاساتذة والاشياخ الذين كانا قد اخذا عليهم العلم ، ولكنهما لايشيران لمن اجازوهما من بين اولئك الاساتذة ، على كثرتهم ، الا للقليل ، بحيث لايتجاوز عددهم اثنين او ثلاثة فقط •

بدقة ، مدى الكفاءة التي يكون الطالب قد حصل عليها [٤٤] وقد كانت الشهادات تعطى فردية ، بمعنى أن الطالب يستطيع الحصول على شهادة من الاستاذ ، في المواد التي يتقنها ذلك الاستاذ ويتعاطى تدريسها ، ولكنه يبقى طالبا في مواد أخرى . وبناء على هذا ، فان الشهادات كانت في شكل انطباع يسجله الاستاذ على مذكرات الطالب في مادة أو أكثر ، بعد أن يكون هذا الاخير ، قد اطلع على كل المؤلفات الكبيرة والصغيرة في موضوعها ، وايجاد تحصيل المعلومات الموجودة بها . [٤٥]

ومن ناحية أخرى ، فقد كان الاساتذة يتحرون في العبارات التي

---

٤٤ ـ يجد المتتبع لحالات الاجازات في ذلك الوقت ، ان الطلبة الذين يكونون قد لازموا مجلس الاستاذ لفترة طويلة ، وأصبحوا حجة في المواد التي يدرسها استاذهم هم وحدهم الذين اعطيت لهم الاجازة في تلك المواد ، وبعض الذين اعطيت لهم شهادات ، كانوا قد بلغوا درجة من التحصيل والتمكن ، جعلت استاذهم يضطر احيانا لنقل بعض تعليقاتهم على المسائل واجتهاداتهم فيها ، ويدرسها لطلاب آخرين بمحضر منهم .
ينظر أحمد بابا ، (نفس المصدر ، ص ٧٩ ، والسعدي ، نفس المصدر ، ص ٤٦) .

٤٥ ـ يقول احمد بابا عن أحد الاساتذة الذين أجازوه : « حضرت انا عليه أشياء عدة ، وأجازني في جميع ما يجوز له وعنه ، وكتب لي بخط يده » ، نيل الاتهاج ، ص ٧٩ . ولعل بهذا تثبت امامنا صورة الشهادة كما كانت تعطى . أما عبد الرحمن السعدي ، فيقول عن استاذه الذي أعطاه اجازة : « باحثته كثيرا في المشكلات، وراجعته في المهمات ، وبالجملة فهو شيخي واستاذي ، ما نفعني احد كنفعه وبكتبه .. وأجازني بخطه جميع ما يجوز له وعنه »، تاريخ السودان ص ٤٦.

يكتبون بها الشهادات للطلاب ، بحيث ينحصر محتواهـــا في نطـاق المعلومات التي يتقنها الاستاذ المدرس ، ولا يتجاوزها لغيرها [٤٦]. ومن هنا يتضح مدى الدقة في نظام تلك الاجازات ، رغم بساطته .

ز) تنقلات الاساتذة والطلاب

كان توارد الاساتذة من بلدان المغرب على تمبكتو قد أخذ شكلا أوسع خلال القرن السادس عشر . وكانت نسبة كبيـرة من المدرسـين بتلك المدينة من بلدان المغرب . [٤٧] أما الطلبة فقد كانت لهـم خلال القرن السادس عشر حركة نشيطة وراء طلب العلم ، وأكثر الذين كانوا يردون على تمبكتو كانوا من المناطق الغربية . [٤٨] وكثير من الطلبـة

---

٤٦ ـ المصدر نفسه ، صفحات ٢٠ ـ ٤٨ .

٤٧ ـ منذ القرن الثالث عشر ايتقل عدد من علماء (والاتا) الـى تمبكتو ، كنتيجة لانتقال مركز التجارة بين المغرب والسودان الغربي ، الـى تلك المدينة ، وكانوا في اغلبهم من صنهاجة ومسوفــة ، وهمـا قبيلتان مغربيتان سكنتا مشارف الصحراء في عصور سابقة. والى قبيلة صنهاجة ينتسب احمد بابا، ويقال أن نهر السنغال أخذ اسمه من اسم صنهاجة . اما خلال القرنين الرابع والخامس عشـر ، فقد كان كثير من التجار الذين وفدوا على تمبكتو يطيب لهم البقاء بـين أهلها ، ويباشرون التعليم فيجدون اقبالا كبيــرا على دروسهم ، وحينما زار ابن بطوطة تلك المنطقة في القرن الرابع عشـر وجـد جماعة من معارفه مقيمين هناك ويتعاطون التدريس ، اما في القرن السادس عشر ، فان معظم من ذكرهم أحمد بابا والسعدي كأساتذة لامعين في تمبكتو كانوا من أصول مغربية ، ويسجل محمود كعـت وجود كثير من العلماء جاءوا من توات ، وأقاموا بتمبكتو خلال ذلك القرن .

٤٨ ـ كعت ، نفس المصدر ، ص ١٨٠ .

كانوا حينما ينهون دراستهم في تمبكتو ، ينتقلون الى المغرب الاقصى أو المشرق . أما الى المغرب ، فانهم كانوا يذهبون الى مدينة مراكش بالدرجة الاولى ، وبعضهم كان يقصد فاس .(٤٩) كما كان العديد من الحجيج يغتنمون الفرصة أثناء ذهابهم الى المشرق ، فيجالسون العلماء اللامعين بمصر والحجاز ، وقد تطول اقامة بعضهم عدة سنين فلا يعودون الى تمبكتو الا بعد أن يكونوا قد حصلوا على عدد من الاجازات (٥٠). وقد عرف عن سكان تمبكتو حرصهم على تهيئة كل ما يمكن لهم تقديمه من أنواع المساعدات للطلبة الذين كانوا يقصدون مدينتهم (٥١) ، وقد كان لأولئك الطلبة مشاركة اجتماعية واسعة في ولائم الافراح والجنائز . (٥٢)

ن) التعليم المهني

لا يوجد في كتابات المؤرخين من تلك الفترة ما يشير الى وجود تعليم مهني منظم في تمبكتو الا في ميدان الخياطة . (٥٣) وهذا بالرغم من وجود دكاكين يبدو أنها كانت عديدة ومتنوعة يشغلها اصحاب

---

٤٩ ـ احمد بابا ، نفس المصدر ، صفحات ٨٤ ـ ٧٩ ـ ٢٧٣ .

٥٠ ـ السعدي ، المصدر السابق صفحات ٢٠ ـ ٤٣ .

٥١ ـ نفس المصدر .

٥٢ ـ كعت ، المصدر السابق ، ص ١٧٩ ، والسعدي ، المصدر السابق، ص ٢٢ .

٥٣ ـ عرفت بلاد المغرب في تلك الفترة تعليما حرفيا كان يشمل الحياكة والخياطة والنجارة وبعض الحرف الاخرى المشابهة لها . ـ ينظر (ابن مريم ، المديوني ـ البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان ـ تحقيق ابن أبي شنب) (م. الثعالبية) الجزائر ١٩٠٨ ص ٦٣.

الحرف المختلفة في تلك المدينة .(٥٤) أما في ميدان الخياطة ، فانه يبدو أن المدينة كان بها تعليم منظم الى حد ما ، وكان طلابه كثيرين ، فقد ذكر كعت أنه كان يوجد بها حوالى (ستة وعشرون بيتا من بيوت الخياطين) ، وكلها من النوع المتخصص في تعليم مهنة الخياطة ، وكانت تسمى باللهجة المحلية (تند) بكسر الاول والاخير وسكون الوسط ، (٥٥) وكان كل بيت من بينها يتراوح عدد الطلبة فيه بين خمسين الى سبعين طالبا ، ويتولى التدريس في كل بيت من بينها معلمون متخصصون في تعليم تلك المهنة، يدعى كل واحد منهم (الشيخ الرئيس) . (٥٦) ولا ندري كيف كان يقبل الطلبة في كل مدرسة من تلك المدارس ، غير اننا اذا قارنا بما كان يوجد في الجزائر آنذاك ، لان تمبكتو كانت كثيرا ما تقلد المغاربة ، نجد أنهم ربما كانوا يدخلون تلك المدارس المهنية ليشتغلوا بدون أجرة ، وذلك حتى يتقنوا الحرفة ويحذقونها . أما قبل الوصول الى مثل هذه الغاية ، فان أجرتهم انما تقابل في العادة بما يتعلمونه مجانا . (٥٧)

خاتمة

لقد حظيت مدينة تمبكتو خلال القرن السادس عشر ، بما لم تحظ

---

٥٤ — J. Léon l'Africian, *op. cit.*, p. 293 .

٥٥ — كعت ، المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

٥٦ — لا ندري أصل هذه التسمية ، غير أن المعروف عن ابن سينا ، الفيلسوف الطبيب ، انه كان قد لقب بمثل هذه العبارة ، ولعل اطلاقها كان يختص بمن يتقنون حرفة ما ، ويعلمونها للناس .

٥٧ — ابن مريم ، نفس المصدر ، ص ٦٣ — ١٦٩ .

به مدينة أخرى في غرب أفريقيا في ذلك الوقت • وكـــان من أبـرز العوامل التي هيأت لها ذلك ، ازدهار الحركة التعليمية بهـــا في المقام الاول • (٥٨) ولـــذا أخـــذت نوعـا من (القداســة) في نظــر الناس ، (٥٩) مما حمل الحكومة على اسناد جميع امور النــاس فيهـا للقاضي • (٦٠) وقد بلغت شهرتها الآفاق فقصدها الطـــلاب من جميع بلاد السودان ، كما توارد عليها بعض الطلبـة من مراكش أيضا • (٦١) اما الاساتذة فقد كان عدد كبير من بينهم مغاربة ، (٦٢) وبهذه الصورة قامت تلك المدينة بدور كبير فيما يتعلق بنشـــر الثقـــافة في سهوب السودان الغربي كلها ، كما أصبحت من بين المراكز الهــامة في العالم الاسلامي جميعه وأسفر ذلك عن تحضر السكان بها ولـــين عريكتهم وصلاح حالهم • (٦٣) ولكن الباحث رغم ذلك كله ، لايستطيع اجـلاء

---

٥٨ ــ يقول كعت انها أي تمبكتو كانت « يومئذ (١٥٩١م) لا نظير لها في البلدان ، من بلاد السودان الى أقصى بـــلاد المغرب » ، ثم يقرن ذلك بالحركة الثقافية فيقول عن أهلها ، انهم كانوا من أكثر النـاس (تلطفا بطالبة العلم واعانتهم ... كثر قراؤها وادباؤها من كوكي الى جنى) (المصدر السابق ، ص ١٧٩) •

٥٩ ــ W. R. Juiy, *A History of the African people*, London (Faber), 1970, p. 68 .

٦٠ ــ كعت ، نفس المصدر ، ص ١٨٠ •

٦١ ــ السعدي ، نفس المصدر ، ص ٤٤ •

٦٢ ــ واعتمادا على هذا يقول السعدي ابن تنبكت الذي أحبهـــا من كل قلبه : (ما أتتها العمارة الا من المغرب ، ســواء في الديانـــات أو المعاملات) ، نفس المصدر ، ص ٢١ •

٦٣ ــ يقول كعت في هذا المعنى : (الا من خص الله به أهــــل تمبكتو ، ونرى من بينهم مائة رجل ليس لأحد منهـــم حريش ولا سيف ولا مدية) • نفس المصدر ، ص ١٨٠ •

كل المعلومات الكافية حول الازدهار الاكيد الذي عرفته المدينة في حقل التعليم ، ولا يعود ذلك فقط لشح المصادر الموجـــودة حول هـــذا الموضوع ، وانما يعود أيضا لندرتها • ولنا الامل في أن يسفر النشاط الواسع الذي يقوم به الباحثون حاليـا في مختلف جامعـات العـالم ومؤسسات البحث المنتشرة في أرجائه ، عن نتائج طيبـة في موضوعات التاريخ الافريقي جميعها ، وكلها لا يزال الغموض يكتنف العـديد من جوانبها حتى الآن •

د • عبد القادر زباديـة

استاذ بقسم التاريخ
معهد العلوم الاجتماعية ـ جامعة الجزائر

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

سجلات "يوميات مقيمية البصرة"

١٧٩٨ - ١٨١١

الدكتور عبد الأمير محمد أمين
كلية التربية - جامعة بغداد

تحتفظ دار السجلات الحكومية في بومباي بعدد كبير جدا من السجلات ذات الصلة بتاريخ العراق والجزيرة العربية والخليج العربي (١) • ولعل تلك السجلات الموسومة بـ « يوميات البصرة Bussora Diaries » هي من اكثرها تميزا من حيث وفرة المادة وغزارتها (٢) • وهناك صنفان من هذه اليوميات هما :
« يوميات مقر البصرة التجاري Bussora Factory Diaries
« ويوميات مقيمية البصرة Bussora Residency Diaries » •

وتغطي مجلدات الصنف الاول ، البالغ عددها أحد عشر مجلدا مرقمة ١٩٣ ــ ٢٠٣ ، الفترة من ١٧٦٣ الى عام ١٧٧٧ ، وهي فترة تميزت بازدياد نشاط القبائل العربية في الخليج العربي وشط العرب ، وبرزت فيها قبيلة كعب كأقوى قبيلة بحرية عربية في المنطقة • وكانت الحرب سجالا بين تلك القبيلة العربية الشديدة البأس من جهة وأساطيل

شركة الهند الشرقية الانكليزية والجيوش العثمانية والايرانية من جهة اخرى • وجاءت « يوميات مقر البصرة التجاري » طافحة بالمعلومات عن تلك القبيلة وعن صلاتها الحربية والسلمية بالانكليز والعثمانيين والايرانيين • كما احتوت تلك اليوميات على معلومات أخرى كثيرة تخص بقية القبائل العربية والاقطار المحيطة بالخليج ، بالاضافة الى تلك المعلومات الخاصة بالتجارة وبنواحي النشاط البشري الاخرى •

أما الصنف الثاني من سجلات « يوميات البصرة » وهو « يوميات مقيمية البصرة » والتعريف بها هو هدف هذا البحث ، فيبلغ عدد مجلداتها تسعة ، تغطي الفترة من عام ١٧٩٨ الى عام ١٨١١ • وهذه اليوميات منتظمة بشكل عام • فكل مجلد من المجلدات التسعة يبدأ في اليوم الاول من كانون الثاني وينغلق في الواحد والثلاثين من كانون الاول من العام نفسه ، مع وجود بعض الاستثناءات لهذا الانتظام • منها ان المجلد رقم ٢٠٥ يضم يوميات عامين كاملين فيبدأ في الاول من كانون الثاني عام ١٧٩٩ في الواحد والثلاثين من كانون الاول عام ١٨٠٠ (٣) • كما أن المجلد رقم ٢٠٨ يبدأ في اليوم الاول من كانون الثاني عام ١٨٠٣ وينتهي في الواحد والثلاثين من كانون الاول عام ١٨٠٦ اذ توجد فجوات في يومياته • فهناك فجوة تبدأ في ٥ نيسان عام ١٨٠٣ وتمتد الى الاول من كانون الثاني عام ١٨٠٤ • ثم هناك فجوة أخرى تبدأ من ٢٦ كانون الثاني عام ١٨٠٤ وتمتد الى ٨ أيلول عام ١٨٠٦(٤) • ويلاحظ هناك تقديم وتأخير في المجلد رقم ٢١٠ خاصة بالنسبة ليوميات الاشهر : تشرين الاول وتشرين الثاني وكانون الاول(٥) • كما أن يوميات المجلد رقم ٢١١ تبدأ في الاول من شهر كانون الثاني عام ١٨١٠ وتنتهي في ١٢ كانون الثاني عام ١٨١١(٦) •

ومما تجدر الاشارة اليه أن مجلدات مقيمية البصـــرة ، بصورة خاصة ، في حالة رديئة للغاية وقد عملت الرطوبـــة والحرارة وفقدان وسائل الصيانة الحديثة عملها في تهرئة الاوراق وتمزقها وطمس بعضـــ معالم الكتابة فيها • لذا فان مبادرة مركز دراسات الخليـــج العربي في تصوير اليوميات والاحتفاظ بها ، لهي خطوة هامة لضمان الاستفادة من معلوماتها الغزيرة ومن مادتها الوفيرة •

والحقيقة ان للفترة التي تغطيها « يوميـــات مقيمية البصـــرة » (١٧٨٩ ــ ١٨١١) أهمية خاصة في تاريخ منطقة الخليج العربي • فهـــي من ناحية تميزت بازدياد النشاط السياسي والعسكري البريطاني بشكل لم يسبق له مثيل • وقد كان ذلك رد فعل للحملة الفرنسية على مصـــر وتحركات الفرنسيين المريبة في الشرق • فتوالت البعثـــات السياسيـــة البريطانية الى ايران ومسقط وبغداد ، وفتحت المقيميـــات البريطانية هنا وهناك ، وازدادت تحركات الاساطيل البريطانية في ميـــاه المحيط الهندي والبحر الاحمر والخليج العربي (٧) •

وباضافة الى ذلك النشاط الاوروبي خلال الفترة الآنفـــة الذكر ، فان القبائل العربية استمرت في اظهار حيويتها وفعاليتهـــا في الخليج العربي ، بل ان تلك السنين بالذات شهدت أول مراحل المجابهة الطويلة والمريرة بين البريطانيين وقبائل القواسم القوية الشكيمـــة والشديدة البـــأس •

والى جانب كل تلك النشاطات السياسية والعسكرية العربية منها والاوروبية فقد شهدت منطقة الخليج العربي ازدهارا تجاريا ملموســا خلال العقد الاخير من القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشـــر •

ان التقارير المفصلة التي كتبها بعض البريطانيين عن حالة التجارة في أقطار الخليج العربي والاقتراحات الكثيرة التي تقدموا بها لتشجيع التجارة البريطانية هناك ، والفصول الطويلة التي كتبها الرحالة الاوروبيون عن التجارة خلال هذه الفترة انما هي أدلة على ازدهار التجارة وانتعاشها وعلى ازدياد اهتمام الاوروبيين بها (٨) • وكان لاستقرار الاوضاع في ايران في عهد القاجاريين من جهة ، وتمتع العراق بشيء من الامن والهدوء في عهد سليمان باشا الكبير من جهة أخرى ، الجوانب أثرهما في تحسن وضع التجارة في منطقة الخليج •

وسجلات « يوميات مقيمية البصرة » توفر المعلومات الكثيرة عن كل جانب من الجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية الآنفة الذكر • فقد سبق أن بينا في بحث سابق اهتمام شركة الهند الشرقية الانكليزية الكبير بالحفاظ على سجلاتها وولعها الشديد بجمع المعلومات التي تخص كل جزء من أجزاء الشرق كانت قد امتدت تجارتها اليه وكانت لها مصلحة فيه • لقد كانت الشركة تصر على مستخدميها بتدوين كل شأن من شؤونها على الورق (٩) • وبلغ هذا الامر حدا وصفت الشركة معه بانها « حكومة أوراق » • وكثيرا ما حثت الشركة مستخدميها على تزويدها بالمعلومات وبمزيد من المعلومات عن كل موقع وعن كل حدث يقع في أماكن تواجدهم مهما كانت صلة ذلك كبيرة أم صغيرة مباشرة أم غير مباشرة بأعمالهم • ولعل النص الذي نورده هنا وهو جزء من تعليمات جهز بها هارفرد جونز عندما عين مقيما في بغداد عام ١٧٩٨ خير نموذج لسياسة الشركة في هذا المجال •

وعليك أن تحاول الاهتمام بكل الوسائل المتوفرة لديك أن تجمع كل المعلومات الخاصة بعدد السكان والقوة العسكرية وموارد الثروة

والتجارة في كل البلاد التابعة لباشا بغداد أو لأي شيخ أو أمير تابع له. وكذلك عليك أن تبعث لنا بمثل تلك المعلومات عن البلاد الخاضعة للحكومتين الايرانية والمصرية ، أو تلك التابعة لأي أمير مستقل يقطن الجزيرة العربية أو يحكم بلدا في الشرق يحتمل أن تتعرض الهند الى غارة عن طريقه . سواء كان مصدر تلك الغارة قوة محلية شرقية أم أوروبية أجنبية .

وخلاصة الأمر ، يتحتم عليك جمع شتى أنواع المعلومات التي ترى أنها قد تكون مفيدة بأي شكل من الاشكال أو لأي شأن من الشؤون سواء كانت تلك الفائدة تخص شركة الهند الشرقية أم أنهما تخص حكومة جلالته (١٠) .

ومثل هذا الاهتمام بجمع المعلومات يفسر المادة الغزيرة التي يجدها الباحث في سجلات شركة الهند الشرقية الانكليزية اينما وجدت وبكل أصنافها ولا تشذ سجلات « يوميات مقيمية البصرة » عن ذلك . فجاءت طافحة بالمعلومات التي تخص كل جانب من جوانب النشاط البشري في العراق والخليج العربي والجزيرة العربية .

وتحتل أخبار البريد المار بالبصرة حيزا مهما في جميع تلك اليوميات (١١) . والحقيقة أن تاريخ طريق البريد البري المارة بالبصرة يرجع الى ما قبل هذه الفترة بزمن طويل . على الرغم من أن الاتصال بين أوروبا والهند كان يتم عادة عبر الطريق الطويل والبطيء حول رأس الرجاء الصالح . ومن بين أسرع الطرق التي كان يسلكها أحيانا الاوروبيون ـ البرتغاليون والهولنديون والفرنسيون والانكليز ـ الطريق الذي كان يمر برا عبر بلاد الرافدين (١٢) . فقد كان هذا الطريق

ولا يزال اقصر الطرق التي تربط البحر الابيض المتوسط بالخليج العربي ، أو بعبارة اخرى ، اوروبا بالهند والشرق الاقصى • وقد صار هذا الطريق في الواقع طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر البديل السريع والامين الوحيد للطريق البحري عبر رأس الرجاء الصالح • وغدا هذا الطريق البري مهما بشكل خاص للبريطانيين وذلك بعد قيام امبراطوريتهم في الهند، وكانت أهميته لهم تزداد ابان صراعهم وحروبهم مع الهولنديين والفرنسيين • ومن ذلك ما حدث خلال حرب الوراثة الاسبانية ، وحرب الوراثة النمساوية وحرب السبع سنوات وحرب الاستقلال الاميركية • حيث كان للانباء المبكرة تأثير كبير على سير العمليات العسكرية • أما في وقت السلم فان الاخبار المبكرة حول وضع السوق والطلب المتوقع ورحيل السفن وايابها كلها أمور مهمة للتجارة ونجاحها (١٣) • ولذا طور البريطانيون خلال القرن الثامن عشر وسائل أمنية نسبيا لنقل البريد ، وصار نقل الرسائل بين البصرة وحلب وساحل البحر الابيض المتوسط وبين البصرة والهند اكثر دقة وانتظاما • لقد نظمت المراحل عبر طول الطريق واحسن اختيار السعاة وصار المقيم الانكليزي في البصرة مسؤولا ، بالاضافة الى واجباته التجارية ، عن الاشراف على البريد وذلك باختيار السعاة وتوفير أفضل السبل لنقل الرسائل وحمايتها (١٤) • وخلال الحرب النابليونية ، وفي خضم ذلك الصراع المصيري الذي كان يخوضه البريطانيون ضد اعدائهم الفرنسيين ، صار للطريق البري ، وللبصرة بشكل خاص ، أهمية تفوق كل ما كان لهما من قبل • لقد كانت الرسائل ترد الى البصرة من حلب واسطنبول وبغداد وطهران وبوشهر ومسقط وبومباي وكلكتا ومن قادة الاساطيل البريطانية وربابنة السفن في الخليج العربي والبحر

الاحمر والمحيط الهندي والبحر الابيض المتوسط ومنها توزع الى كل تلك الاماكن والاشخاص (١٥) • وكان المقيم الانكليـــزي في البصرة منهمكا في تدبير شؤون هذا البريد • والواقع أن « يوميـــات مقيمية البصرة » هي السجل الدقيق لكل الرسائل المتبادلة بين أوروبا والشرق والسالكة طريق البر • وهناك معلومات عن كل رسالة تقريبـا من حيث طبيعتها ومصدرها ووجهتها والطريقة التي سلمت بها وتلك التي سترسل بواسطتها الى الجهة المعنية •

وتحوي « يوميات مقيمية البصرة » الى جانب أنباء البريد البري، معلومات سياسية وعسكرية واقتصادية مستفيضة سواء منها تلك الخاصة بتحركات الفرنسيين وردود الفعل البريطانية لها أم فعاليـــات القبائل العربية في الخليج العربي أو النشاطات التجارية هناك •

فمنذ عام ١٧٩٨ صارت منطقة الخليج العربي والمحيط الهندي أحد ميادين الصراع بين البريطانيين والفرنسيين • وكانـــت جزر موريشيوس قاعدة للفرنسيين في المياه الشرقية • ومنها انطلقت التهديدات الفرنسية لخطوط المواصلات البريطانية ، بل لقد وصلت السفن الفرنسيـــة الى مياه الخليج العربي نفسه • واضطر البريطانيون الى ابقـــاء جزء من اسطولهم في باب المندب والبحر الاحمر وسواحل الهند الغربية لحماية خطوط مواصلاتهم • واستمر ظهور السفن الفرنسية في هـــذه المياه واستمرت الاجراءات البريطانية ضدها حتى أواخر عام ١٨١٠ ، حيث استولى البريطانيون على جزر موريشيوس وحيث اثبتـــت الجهـود الدبلوماسية الفرنسية فشلها في طهران واسطنبول وكابل ، بل وفي كل مكان آخر في الشرق • ولكن الجهـود الدبلوماسيـــة والعسكريـــة

البريطانية كانت مكثفة في كل تلك الاماكن وطيلة الفترة التي تغطيها « يوميات مقيمية البصرة » (١٦).

ففي عام ١٧٩٨ بادر البريطانيون الى فتح مقيمية لهم في بغداد واسند منصب المقيم فيها الى شخصية هامة هو هارفرد جونز (الذي حصل على لقب سير بعد ذلك) . وهذه الخطوة بحد ذاتها تمثل توجها جديدا يوضح ازدياد الاهمية السياسية والاستراتيجية لمنطقة الخليج العربي بشكل عام والعراق بشكل خاص بالنسبة للبريطانيين .

لقد اقتصر اهتمام الانكليز في منطقة الخليج العربي طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر على الناحية التجارية . وكان بيع الاقمشة الصوفية الانكليزية هو الهدف الاساس لشركة الهند الشرقية الانكليزية . وعندما تدهورت التجارة في أواخر القرن الثامن عشر لم تتردد الشركة من اتخاذ قرار في عام ١٧٧٧ يقضي بالانسحاب من منطقة الخليج . ووصل هذا القرار الى الشرق في الوقت الذي كانت فيه انكلترا متورطة بحرب مع فرنسا وذلك بسبب حرب الاستقلال الاميركية . فقرر مستخدمو الشركة في الشرق الابقاء على وجود لهم في الخليج ، وذلك لحاجتهم الماسة الى الاحتفاظ بمقرهم بالبصرة لما لهذه المدينة من أهمية كاحدى المحطات الرئيسية لبريدهم البري. ولكنهم في الوقت نفسه خفضوا درجة مقرهم التجاري من وكالة الى مقيمية وأبقوا فيه مستخدما بريطانيا واحدا فقط (١٧) . أما بالنسبة الى بغداد فلم يسبق لشركة الهند الشرقية أن كان لها أي نوع من التمثيل في هذه المدينة ، عدا فترة قصيرة في عام ١٧٦٥ وذلك عندما أقدم مستخدمو الشركة في الشرق على تأسيس مقيمية في بغداد . وقد اعترض مدراء الشركة في لندن على هذه الخطوة وأمروا مستخدميهم بغلق المقيمية

نظرا لقلة الفوائد التجارية المرجوة منها من ناحية وللاحتجاجات الشديدة التي تقدمت بها شركة The Levant Company من ناحية اخرى [١٨] . وفي عام ١٧٨٣ أقرت الشركة تكليف أحد سكان بغداد بالاشراف على شؤون الشركة التجارية لقاء أجر شهري محدد . وجـــاءت الآن هذه الخطوة التي تضمنت اقامة مقيمية بريطانية في بغـــداد وتعيين شخص بريطاني ذي خبرة معروفة بشؤون المنطقة . وجاء التعيين بعد مفاوضات طويلة وتنسيق تام بين شركة الهند الشرقية والحكومـــة البريطانية . وأعلن عن هذا التعيين في لندن في ٥ تموز عام ١٧٩٨ . وجاء في كتاب التكليف :

« انه لسبب الاحوال الراهنة والاشاعـات التي انتشـــرت بان الفرنسيين يحاولون أن ينفذوا الى الهند اما عن طريق البحر الاحمر أو عن طريق الخليج العربي فانه يجب تعيين شخص في بلاط باشا بغداد . وقد تم اختيارك لهذا الغرض » .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وتمثل التعليمات التي صدرت الى هارفرد جونز السياسة البريطانية الجديدة خير تمثيل :

عليك أن تبلغ الباشا خبر وصولك الى بغـــداد باسلوب مناسب . وعليك أن تقدم له الهدايا الملائمة . وبعد أن يتم هذا يتحتم عليـــك أن تعلمه بان شركة الهند الشرقية قد أوفدتك الـــى عاصمتـــه لتعزز أواصر الصداقة التي كانت قائمة دائما بين سعادته والشـــركة . وتـــحذره في الوقت نفسه من العواقب الوخيمة التي ستصيب اراضي باشويتـــه بل ، أراضي الامبراطورية العثمانية كلها في حالة افساحه المجال للفرنسيـــين للتغلل في أي جـــزء من أجزاء تلـــك الامبراطوريـــة ، وفي حـــالة

السماح باتخاذ موطن قدم لهم فيها عليك أن تبذل كل ما في وسعك لاحباط المحاولات الفرنسية الرامية الى التغلغل والتوسع • وعليك أن تقنع الباشا بتقديم التعهدات اللازمة بمنع تلك المحاولات بكل الوسائل المتوفرة له (١٩) •

ويتضح من كل ما سبق الاهمية السياسية والاستراتيجية التي أخذ البريطانيون ينظرون اليها نحو العراق • فلم تعد التجارة هي الرائد الاساسي • ولم يعد بيع الاقمشة الصوفية الانكليزية في بغداد والبصرة هو الهدف الرئيسي لوجودهم في المنطقة • هذا وتغطي « يوميات مقيمية البصرة » أنباء المقيمية والظروف المحيطة بها وفعاليات المقيم هارفرد جونز (٢٠) •

وتحرك البريطانيون في جهة اخرى • فقد أرسلت السلطات البريطانية في الهند مهدي علي خان مندوبا عنها الى منطقة الخليج العربي• وقد عهد اليه تشجيع التجارة البريطانية في المنطقة واحباط مؤامرات الفرنسيين في ايران والحيلولة دون قيام الافغانيين بتهديد حدود الهند • ونجح مهدي علي خان في ابرام معاهدة مع امام عمان في تشرين الاول عام ١٧٩٨ • تعهد فيها الامام بالوقوف في صف البريطانيين ضد اعدائهم الفرنسيين •

ولم تكتف السلطات البريطانية في الهند بالنجاح الذي حققته بعثة مهدي علي خان ، بل عمدت الى ارسال بعثة أخرى ، كان على رأسها الكابتن جون مالكولم وهو شخصية مرموقة في حكومة الهند • واستطاع الكابتن مالكولم في كانون الثاني عام ١٨٠١ تجديد الاتفاقية السابقة التي عقدها مهدي علي خان مع امام عمان • كما استطاع في

كانون الثاني عام ١٨٠١ عقد معاهدة مع شاه ايران ، تعهد الاخير بعدم السماح للفرنسيين باتخاذ أية قاعدة لهم في ايران والتعاون مع البريطانيين للتصدي لهم في بلاده. وقد مر مالكولم بالعراق ولقي ترحيبا من باشا بغداد (٢١) .

ولم يكن الحماس والاندفاع لينقص الفرنسيين في هذا الوقت . فقد كانت مراسلاتهم مستمرة مع الشاه . وقام نابليون بونابرت في ١٨٠٥ في ارسال عدة مبعوثين الى طهران . كما أرسل الشاه من ناحيته مبعوثا الى باريس . وقد عقدت فعلا معاهدة فنكنشتين بين الطرفين في أيار عام ١٨٠٧ . وكان غرض الشاه من هذا التقارب مع الفرنسيين هو ضمان مساعدتهم ضد الروس أعدائه التقليديين .

كما وصل الى مسقط في عام ١٨٠٣ مندوبا فرنسيا كان غرضه اقناع الامام في الموافقة على فتح قنصلية فرنسية في مسقط . ولم يوفق المندوب الفرنسي في مسعاه هذا . واستمرت محاولات الفرنسيين في هذا الاتجاه . ونجحوا في عام ١٨٠٨ في اقناع الامام بعقد معاهدة صداقة معهم ، افتتحت بموجبها قنصلية فرنسية . وقد أثار هذا النجاح الفرنسي حفيظة البريطانيين وجدد مخاوفهم .

وعلى أثر النجاح الذي حققه الفرنسيون في ايران وعمان ، أرسلت بعثتان بريطانيتان في آن واحد الى المنطقة . فقد قامت السلطات البريطانية في لندن بارسال السير هارفرد جونز الى الخليج . وفي الوقت نفسه قامت حكومة الهند بارسال جون مالكولم (وقد صار الآن جنرالا) على رأس بعثة جديدة الى منطقة الخليج العربي . وقد نشب صراع وتنافس شديد بين البعثتين . ووصل جون مالكولم مسقط

في أوائل عام ١٨٠٨ ثم نزل في بوشهر في أيار من نفس العام • وكـان النفوذ الفرنسي على أشده في ايران في هذا الوقـت • ولم يوفق في ازلة ذلك النفوذ أو في تقليله • وكانت الحكومة الايرانيـة على علم بمخطط السلطات البريطانية في الهند الخاصـة باحتـلال بعض جزر الخليج العربي ، الامر الذي أثار مخاوفها وشكوكها تجـاه الجنرال مالكولم • ولم يستطع الجنرال مالكولم تحمل هذا الجو المتوتر ، فعاد الى الهند في تموز عام ١٨٠٨ •

وفي أوائل عام ١٨٠٩ وصلت بعثة سير هارفرد جونز الى ايران • وكان الجو قد تغير في صالح البريطانيين هناك ، فقـد تضاءلت امام الشاه فرص التعاون مع الفرنسيين ضد اعدائـه الروس • وأصبحت فرنسا وروسيا حليفتين حميمتين في أوروبا بعد عقد معاهدة تيلست • وأيقن الشاه ان الفرنسيين يضللونه ، وانه لا فائدة ترتجى منهم •

ونجح جونز حيث فشل مالكـولم • وفي آذار عام ١٨٠٩ وقع الشاه معاهدة مع البريطانيين ، ألغى الشاه بموجبها كل تعهداته السابقة تجاه الامم الاوروبية الاخرى • وتعهد بالحيلولة دون غزو الهنـد عن طريق ايران • وحصل الشاه لقاء كل ذلك على تعهدات بريطـانية ببعض المساعدات المالية والعسكرية • وفي نيسان عام ١٨٠٩ غـادر آخر دبلوماسي فرنسي طهران، وأخذ النفوذ الفرنسي يتضاءل بسرعـة من المنطقة كلها • وفي أواخر عام ١٨١٠ اغلقت القنصليـة الفرنسيـة في مسقط •

ولم تكتف حكومة الهند بكل هذا النجاح ، بل عمدت الى ارسال الجنرال مالكولم مرة أخرى في عام ١٨١٠ على رأس بعثـة كبيرة الى

منطقة الخليج العربي ، ولم يكن هدف حكومة الهند الحقيقي هذه المرة التصدي للفرنسيين الذين لم يعد لهم نفوذ يذكر ، بل لاستعادة هيبتها وكرامتها التي جرحت بفشل بعثة مالكولم السابقة والنجاح الكبير الذي حققه منافسه السير هارفرد جونز مبعوث السلطات البريطانية في لندن. وأحاطت حكومة الهند بعثة مالكولم الجديدة بكل مظاهر الأبهة . وقد عهدت اليه بمهمة القيام بدراسة جغرافية واقتصادية شاملة لمنطقة الخليج العربي اضافة الى مهمته السياسية التي يفترض أنه جاء من أجلها . وصحب الجنرال مالكولم هذه المرة نخبة من الضباط الاكفاء والخبراء المرموقين ولم تحقق بعثة مالكولم هذه شيئا معينا . وقد شغلت بالرسميات والمجاملات واكتفت بحرارة الاستقبال وحفاوة التوديع .

تمثل الصفحات السابقة عرضا موجزا للتحديات الفرنسية والمواقف البريطانية . وهي ما عنيت به ، الى حد كبير « يوميات مقيمية البصرة »، والشيء نفسه يمكن أن يقال عن نشاطات القوى المحلية المتمثلة بالقبائل العربية والايرانيين والعثمانيين ، وردود الفعل لبريطانيا لها . فانه مما يميز تاريخ الخليج العربي خلال الفترة التي تغطيها تلك اليوميات هو استمرار حيوية القبائل العربية وازدياد فعاليتها واشتداد مقاومتها للسيطرة الاوروبية المتمثلة بالبريطانيين والهيمنة المحلية المتمثلة بالايرانيين والعثمانيين . لقد كانت القبائل العربية فعالة ومندفعة في كل زاوية من زوايا المنطقة : في حوض نهر كارون وشط العرب حيث قبيلة كعب . وفي البحرين والكويت . وفي عمان وعلى امتداد الساحل العماني وعلى طول الساحل الشرقي للخليج ، برزت قبائل القواسم في هذه الفترة بالذات ، أكثر الجميع قوة وأشدها بأسا .

لقد ظهرت قوة القواسم ، لأول مرة في منتصف القرن الثامن عشر

حيث كانت قد غنمت بعض قطعات من الاسطول الكبير الذي أسسه نادر شاه[٢٢]. واستمرت قوة هذه القبائل في النمو خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، ووصلت تلك القوة ذروتها في أواخر القرن الذي تلاه . وكانت الحرب سجالا بين القواسم والعمانيين . فبينما اهتم الاخيرون بالتجارة ، وتوسعوا في عملياتهم التجارية في كل اجزاء الخليج العربي والبحر الاحمر وشرق أفريقيا والهند ، اندفع القواسم الى الحرب والنضال .

وحدث تطور هام كان له أبعد الأثر في تاريخ الخليج العربي ، عندما اعتنق القواسم الدعوة الوهابية . فقد زادتهم هذه قوة واندفاعا . وقد وجد فيهم السعوديون خير حلفاء لهم ، وصار امام عمان في وضع لا يحسد عليه ، فبينما كانت القوات السعودية تهاجمه وتضيق الخناق عليه من البر ، كان القواسم يشددون الخناق عليه من البحر .. وقد وجد هذا حلفاء له في الانكليز . فان تعاظم قوة القواسم وتحالفهم مع السعوديين وازدياد نفوذهم في الخليج العربي ، أثار مخاوف الانكليز ودفعهم الى التحالف مع خصومهم العمانيين . وتعرض القواسم لبعض السفن الانكليزية . فاتخذ الانكليز من ذلك ذريعة لشن الحرب عليهم وتحطيم قواتهم البحرية ، تلك القوة التي كانت تخيف الانكليز وحلفاءهم العمانيين أكثر من أي شيء آخر .

لقد كان الصراع بين القواسم والانكليز صراعا طويلا وقاسيا[٢٣]. وقد تمثل في قيام الانكليز بارسال عدة حملات برية وبحرية الى منطقة الخليج وفي استماتة القواسم وبلاءهم بلاء حسنا في الدفاع عن أنفسهم وأوطانهم وسيادتهم ، وفي حزيران عام ١٨٠٥ بدأت الحرب بين الطرفين وقامت حملة انكليزية عمانية بشن تلك الحرب ، واستطاعت هذه

محاصرة جزء كبير من اسطول القواسم قرب جزيرة قشم . ولكن لم يقع صدام حاسم بين الفريقين وانتهى الامر بتوقيع معاهدة بينهما في ٦ شباط عام ١٨٠٦ . تعهد القواسم بموجبها بعدم التعرض للسفن الانكليزية في المستقبل .

ولم تنه الحملة البريطانية الآنفة الذكر ولا معاهدة الصلح التي تلتها ، الصراع وسرعان ما تردت العلاقات وتجددت الحرب [٢٤]. وقام القواسم بالمهاجمة والاستيلاء على عدد كبير من السفن العمانية والانكليزية والهندية . وكان اسطول القواسم مؤلفا في هذا الوقت من ٦٣ سفينة مسلحة تسليحا جيدا وعدد كبير من السفن الصغيرة التي تحمل كل منها بضع مدافع ، وقدر عدد محاربي القواسم بـ (١٩٫٠٠٠) رجل . وقام الانكليز في عام ١٨٠٩ ـ ١٨١٠ بحملتهم البحرية الثانية ضد القواسم ، وقد اشتركت في هذه الحملة قطع مهمة من الاسطول الملكي البريطاني الى جانب اسطول شركة الهند الشرقية . وكانت رأس الخيمة ، الهدف الرئيسي للحملة . وقد قصفت في يوم ١٢ تشرين الثاني وسقطت في اليوم التالي . ودار قتال عنيف انتقل من بيت الى بيت واحرقت ثلاثون سفينة من سفن القواسم كانت راسية في الميناء . وفي ١٤ منه علم البريطانيون أن قوة سعودية تتجه نحو الساحل فسارعوا الى الانسحاب من رأس الخيمة فعاد القواسم لاحتلال مدينتهم. وتجول الاسطول البريطاني في الخليج باحثا عن سفن القواسم ، مدمرا كل ما يعثر عليه منها ثم عاد الى الهند دون أن يحقق نصرا حاسما ودون أن يستطيع تحقيق هدفه الرئيسي ، وهو تدمير قوة القواسم . ولم يكترث القواسم كثيرا بما لحق بهم من أذى ولم يعترفوا بالهزيمة كما أنهم لم يقدموا هذه المرة ، أي تعهد بشأن سلوكهم في المستقبل .

وتنتهي الانباء الخاصة بالقواسم وبغيرهم من قبائل الخليج وباحداث الخليج والمنطقة عامة في « يوميات مقيمية البصرة » عند هذا الحد .

يتضح لنا مما تقدم الاهمية الكبيرة لـ « يوميات مقيمية البصرة » كمصدر للتاريخ الدبلوماسي والسياسي والعسكري لمنطقة الخليج العربي للفترة بين عامي ١٧٩٨ و١٨١١ . ولكن أهمية اليوميات لا تقف في الواقع ، عند هذا الحد ، بل تعداها الى المجالين الاقتصادي والاجتماعي . فالمعلومات الاقتصادية والاجتماعية المبعثرة بين طياتها غزيرة جدا . وهي تصلح لتكون أساسا لكثير من الدراسات الاقتصادية والاجتماعية لمنطقة الخليج العربي عامة وللعراق بشكل خاص .

فالتجارة ، وما يتصل بها ، بشكل مباشر او غير مباشر، تحتل حيزا واسعا في مجلدات تلك اليوميات . فهناك المعلومات السنوية الدقيقة في أغلب الاحيان ، الخاصة بالتجارة الاوروبية عامة وبالتجارة البريطانية بشكل خاص مع اقطار الخليج اذ كثيرا ما تتوفر جداول سنوية مفصلة بالصادرات البريطانية وعلى رأسها الاقمشة الصوفية الانكليزية . مع وصنف دقيق لتلك الاقمشة من حيث الكميات والالوان والانواع ، ويصح القول عن بقية الصادرات الانكليزية وعن وارداتهم من منطقة الخليج العربي (٢٥) .

واذا تركنا التجارة الانكليزية والاوروبية جانبا ، وهي لم تكن في تلك الازمنة الا جزءا ضئيلا من تجارة الخليج العامة ، فهناك أنباء التجارة الكبيرة والمهمة بين الهند والصين وغيرهما من أقطار شرق آسيا وبين أقطار حوض البحر الابيض المتوسط واوروبا عبر العراق والخليج العربي (٢٦) . هذا الممر التجاري الحيوي الذي احتل مركز الصدارة

بين طرق الاتصال التجاري والحضاري بين الشرق والغرب عبر جميع عصور التاريخ .

وبالاضافة الى كل ما سبق ، فيوميات البصرة طافحة بالمعلومات عن التجارة المحلية ونعني بها التجارة بين أقطار الخليج بعضها مع بعض والحركة التجارية النشطة بين موانيه وعلى رأسها البصرة ومسقط وبوشهر والكويت والبحرين والمحمرة (٢٧) .

والمعلومات الآنفة الذكر تتناول ، في الواقع ، كل جانب من الجوانب . فهناك أنباء السلع التجارية الرئيسية ، مثل السكر والشاي والقهوة والتوابل بأنواعها والاقمشة الاوروبية والمعادن من حيث واردات المنطقة والتمور واللؤلؤ من حيث صادراتها الى جانب المئات من السلع التجارية الاخرى التي كانت تدخل في النطاق التجاري . وكثيرا ما نجد المعلومات الخاصة بكميات تلك السلع وأنواعها وأسعارها (٢٨).

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ثم هناك الاخبار المتعلقة بأحوال السوق وتقلباته والعوامل التي كانت تتحكم فيه والتجار وأصنافهم وانتماءاتهم العنصرية (عرب ، فرس ، أرمن اوروبيين) والدينية : (مسلمون ، مسيحيون ، يهود ، هندوس) (٢٩).

واذا تجاوزنا أخبار السلع والصادرات والواردات والتجارة ، فهناك أنباء السفن وتحركاتها وأنواعها وأثمانها وأسعار الشحن فيها ، وأسماء ربابنتها والشيء الكثير عن حياة ملاحيها (٣٠) .

ثم هناك المعاملات التجارية ووسائلها وأساليبها، وموقف السلطات الحاكمة في كل ميناء من التجارة والتجار ، هل هي متسامحة ومتعاونة،

أم أنها جائرة ومتعسفة وما هو أثر كل من هـــذا وذاك في الحركـة التجارية ؟ (٣١).

ويجد الباحث معلومات مبعثرة هنا وهناك عن الضـــرائب التي تفرض على التجارة والتجار في الموانىء ومن تلك الضرائب ما تكون ، من وجهة نظر التجار طبعا عادلة ومقبولة ، ومنهـــا ما تكون كثيـرة وظالمة . والشيء نفسه يقال عن الموازين والمكاييل والمقاييس والنقود ، ففي منطقة الخليج العربي ، وفي موانيه خليط عجيـــب من كل هذه . ويستطيع الباحث أن يستخلص المعلومات المفيـــدة والثمينـة من كل ذلك (٣٢) .

وتبقى هناك امور اخرى جديرة بالاهتمام يمكن أن يلتقطها المرء من « يوميات مقيمية البصرة » ، فهناك الاشارات العابرة الـتي ترد في تلك اليوميات ذات الصلة بقضايا النقل النهـــري في شط العرب ونهر الكارون ودجلة والفرات(٣٣) .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

لقد كان للنقل في هذه الانهر أهمية بالغة تفوق أهميتها الحاضرة. وكانت القوارب والسفن بأنواعها المختلفة شيدت بشكـــل يتلاءم مع الملاحة في الأنهر الآنفة الذكر . وقد اكتسبت بعض الاماكن في وسط وجنوب العراق سمعة خاصة ببناء تلك السفن والقوارب .

لقد كان الجزء الاكبر من السلع التجارية والمسافرين بين البصـرة وبغداد والمدن الاخرى يتم نقلها بواسطة النقل النهري وبواسطـة سفن كبيرة نسبيا ، كما كانت هناك قوارب خاصة تقوم بنقل الركـــاب بين البصرة وقراها الكثيرة وضواحيها ، بل بين أجزاء مدينة البصرة نفسهـا ـ بين البصرة والعشار ـ ويعرف القـــارب من هـــذا النوع بالبلم

العشاري . وهكذا كانت القوارب والسفن تقوم مقام السيارات والعربات والشاحنات والقاطرات في هذه الايام .

وأسماء القوارب والسفن ، والاجور التي يتقاضاها أصحابها والعاملين بها ، كل ذلك يرد ذكره بهذا الشكل أو ذاك في تلك الصفحات من اليوميات .

ولا تقل أهمية من أنباء النقل النهري تلك الانباء الخاصة بتحركات القوافل ، تلك القوافل التي تقدم الى البصرة ، والتي تنطلق منها . فالسلع الهندية تصل الى البصرة في أشهر معينة ، وذلك وفقا لهبوب الرياح الموسمية . ومن البصرة توزع تلك السلع في اتجاهات متعددة. وتقوم القوافل بنقل جزء كبير منها . وتذهب أغلب السلع الهندية الى بغداد ، ومن بغداد يبدأ التوزيع على نطاق واسع . فتغادرها القوافل الى بلاد الشام عن طريق البادية لتذهب الى حلب أو الى دمشق ، وهناك قوافل كبيرة تتجه الى أصفهان وجورجيا وكردستان والاناضول. ويصل قسم كبير من البضائع الهندية عن طريق هذه القوافل الى الاسكندرونة والقسطنطينية ، ومن هناك تنقل برا وبحرا الى أقطار حوض البحر الابيض المتوسط وأوروبا .

ولعل أكثر القوافل اثارة للخيال والشوق تلك القوافل التي تخترق الصحراء من البصرة الى حلب بشكل مباشر ، دون أن تقترب من الفرات ، ودون أن تمر باماكن السكنى بأي شكل من الاشكال ، ويعرف هذا الطريق : بطريق ــ الصحراء الكبير ــ ويتميز بأنه أقصر الطرق وأسرعها ، ولا تسير القوافل فيه الا في أوقات معينة ومحدودة من السنة (٣٤). كما تتميز القوافل التي تسلكه بكبرها وبكثرة الابل

التي تستخدم فيها وبمهارة الأدلاء الذين يتولون تسييرهـا وتقاليدها وأعرافها الخاصة التي نمت وتكونت عبر القرون • وبالاضافـة الى طريق ــ الصحراء الكبير ــ هناك طريق اخرى للقوافل بـين البصرة وحلب تسير عادة محاذية ومتقاربة لمجرى الفرات ، وتمر بكثير مـن المدن ومواطن السكنى •

وتستقبل البصرة في الوقت نفسه القوافل القـادمة من بغـداد وحلب ، وتحمل مثل هذه القوافل مختلف أنواع السلـع من أقطـار حوض البحر الابيض المتوسط وأوروبا وبلاد الاناضول وبلاد الشـام وايران •

وتبقى هناك معلومات كثيرة ترد بشكل عرضـي في اليوميات ، وباستطاعة الباحث استخلاص مادة لها غاية الاهمية في مجالـي البحث الاقتصادي والاجتماعي • وسنكتفي بايراد بعض الأمثلة :

فهناك الجداول الخاصة بتجهيزات السفن الراسية في شط العرب. فقـد اعتادت المقيمية البريطانية فـي البصرة تجهيز سفن شركـة الهند الشرقية الانكليزية القادمة الى البصرة بما تحتاج اليه من المواد الغذائية وغيرها ، واعتادت المقيمية اعداد جداول مفصلة بتلك المواد وبكمياتها وأسعارها [٣٥] • ومن تلك المواد على سبيل المثال : الـرز واللحـوم والماشية والملح والخضروات والشعير والدقيق •• الخ •

واستعراض هذه الجداول الكثيرة جدا في « يوميات مقر البصرة التجاري » و « يوميات مقيمية البصرة » والتي تغطي فترة نصف قرن، تساعد الباحث ، من غير شك على تتبع تطورات الاسعـار بمثل تلك المواد • وهذا أمر لا يستغني الباحث الاقتصادي عن معرفته •

وما يقال عن جداول تجهيزات السفن يمكـن أن يقال عن تلك الجداول الخاصة بهيئة موظفي المقيمية في البصـرة وفي المؤسسـات الانكليزية الاخرى في الخليج العربي [٣٦] • فقد اعتادت المقيمية اعداد جداول مفصلة بالموظفين والمستخدمين من الانكليز وغيرهم من السكان المحليين ــ في البصرة وبوشهر وبغداد ومسقط ــ ويجـد الباحث في تلك الجـداول المرتبـات والعلاوات السنويـة لأولئـك الموظفـين والمستخدمين • كما يجد فيها معلومات اخرى مفيدة وطريفـة كالمبالغ المدفوعة لايجار بعض الدور وأجور بعض صغار المستخدمين ــ القهوجي والبستاني والسقا والحارس والبلام ••• الخ ــ ، وهـذه المعلومات وأمثالها تلقي من غير شك شيئا من الضوء على بعض جوانـب الحيـاة الاقتصادية والاجتماعية وعلى مستويات المعيشة بشكل خاص •

ثم هناك المعلومات المتعلقة بما يعرف بـ « الرسوم القنصلية »[٣٧] (The Consulaye) ، وهذه ضريبة خاصة تأخذهـا شركـة الهنـد الشرقية الانكليزية بنسبة مئوية معينة • وتفرض على جميـع التجار الانكليز الذين يقيمون بالمتاجرة لحسابهم الخاص • وذلك لقـاء سماح الشركة لهم بممارسة هذه التجارة من جهة وللحماية التي توفرها لهم من جهة أخرى •

ومن تلك « الرسوم القنصلية » الـتي تعطى سنويـا عـادة في « يوميات البصرة » يمكن معرفة مقدار التجارة الانكليزيـة الخاصة • وكانت مثل هذه التجارة تكون الجزء الأعظم من التجـارة الاجمالية لمنطقة الخليج العربي خلال الفترة التي تغطيها « يوميات البصرة » لـذا فان « الرسوم القنصلية » ذات فائدة كبيـرة للباحث في التاريـخ الاقتصادي لتلك الحقبة من الزمن •

واخيرا ما هو دور « يوميات البصرة » بشكل عـــام بالنسبـة للدراسات الاجتماعية وللجواب على هذا السؤال ، يمــكن القول : ان المعلومات المتنوعة والكثيرة التي توفرها اليوميات والتي تتنــاول كل جانب من جوانب النشاط البشري والتي فيها ذكرا عرضيــا لمعامــلات وممارسات الافراد والجماعات في مختلف المجالات والميادين وعلى كل المستويات [٣٨]. كل هذه تجهز الباحث المختص ، من غير شـــك ، بمادة غزيرة ونادرة للدراسات الاجتماعية لمنطقة الخليج العربي عامة والعراق خاصة لتلك الفترات الغامضة والمظلمة التي تعوزنـا فيهــا المصــادر التاريخية الاخرى .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الهوامش

١ ـ لمعرفة المزيد عن هذه الدار وعن سجلاتها أنظر :
الدكتور عبد الامير محمد أمين والدكتور مصطفى عبد القادر النجار، دور السجلات الهندية ومحفوظاتها من وثائق العراق وبقية اقطار الخليج العربي والجزيرة العربية ، منشورات مركز دراسات الخليج العربي (٢٠) بغداد : ١٩٧٨ .

٢ ـ لقد قام الباحث بالاشتراك مع الدكتور مصطفى عبد القادر النجار والسيد عبد الوحيد خان بفهرسة هذه اليوميات . وكتاب الفهرسة في مرحلة الطبع الان . وسيكون في جزءين الاول منهما يخص « يوميات مقر البصرة التجاري ١٧٦٣ ـ ١٧٧٧ » والثاني يخص « يوميات مقيمية البصرة ١٧٩٨ ـ ١٨١١ » .

(3) See Bombay Government Records , Records of Factories and Residencies . Bussora Residency Diaries , Vol. 205 .

(4) Ibid . Vol . 208 .

(5) Ibid . Vol . 210 .

(6) Ibid . Vol . 211 .

٧ ـ انظر صالح محمد جاسم العابد ، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨ ـ ١٨١٠ ، رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة الى كلية الاداب جامعة بغداد ، ١٩٧٨ .

٨ ـ انظر على سبيل المثال India Office Library , Marine Records Vol 89 Aug . 15 , 1790 .
تقرير حول تجارة الجزيرة العربية وفارس وضعه كل من صاموئيل مونستي وهارفرد جونز ، G. A. olivier , Voyage dans l'Empire ottoman, l'Egypte , et la perse . 3 Vols . 1801 .

٩ ـ الدكتور عبد الامير محمد أمين « مصادر تاريخ العراق والخليج العربي في دار السجلات الحكومية الهندية في بومباي » مجلة المؤرخ العربي ، العدد التاسع .

(10) J. G. Lorimer , Gazetteer of the Persian Gulf , Oman , and Centeral Arabia , 2 Vols . calcutta : 1908 , Vol , 1 Part 1 , p. 1621 .

(11) Bussora Residency Diaries Vols . 204 - 212 .

١٢ ـ للمزيد من المعلومات عن هذه الطريق انظر :

H. Furber « The overland route to India in the Seventeenth and Eighteenth Centuries » . Journal of Indian History , Vol . XXIV , 1951 .

عبد الامير محمد امين : المصالح البريطانية في الخليج العربي ، بغداد : ١٩٧٧ .

١٣ ـ نفس المصدر

١٤ ـ نفس المصدر .

(15) Bussora Residency Diaries , Vols . 204 - 212 .

١٦ ـ العابد ، نفس المصدر .

١٧ ـ محمد أمين ، المصالح البريطانية في الخليج العربي ، ص ١٩٠ ـ ١٩١ .

١٨ ـ انظر : عبد الامير محمد امين « التنافس بين الشركات التجارية الانكليزية في منطقة الخليج العربي والاقطار المجاورة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر » مجلة كلية الاداب العدد ٦ سنة ١٩٦٣. كانت الشركة المذكورة تؤكد أن بغداد تقع ضمن مجالها التجاري وانه لا يحق لشركة الهند الشرقية المتاجرة معها .

(19) Lorimer , op. cit . p. 1621 .

(20) Bussora Residency Diaries , Vols . 204 - 212 .

(21) Ibid .

٢٢ ـ عبد الامير محمد أمين ، القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر ، بغداد : ١٩٦٦ .

٢٣ ـ انظر صالح محمد العابد ، دور القواسم في الخليج العربي ، ١٧٤٧ ـ ١٨٢٠ ، بغداد : ١٩٧٦ .

٢٤ ـ نفس المصدر .

(25) Bussora Residency Diaries , Vols 204 - 212 .

(26) Ibid .

(27) Ibid .

(28) Ibid .

(29) Ibid .

(30) Ibid .

(31) Ibid .

(32) Ibid .

(33) Ibid .

٣٤ ـ للتفاصيل عن هذه الطريق انظر D. Carruthors (ed.) : The Desert route to India . London , 1929 ; C. P. Grant : Syrian Desert . London : 1937 .

(35) Bussora Residency Diaries , Vols 204 - 212 .
انظر الجداول الخاصة بتجهيزات السفن .

(36) Ibid . انظر الجداول الخاصة بموظفي الشركة ومستخدميها .

(37) Ibid . انظر الجداول الخاصة بالرسوم القنصلية .

(38) Ibid , Vols . 204 - 212 .

بدء تحديث السودان عام ١٨٢١

سعاد عبد العزيز أحمد
كلية الآداب - قسم التاريخ
جامعة الخرطوم

نعني بالتحديث الخروج من المجتمع المحلي الضيق والانفتاح على العالم الخارجي العريض ، كما نعني به استخدام طرق ووسائل جديدة في الاقتصاد ، والسياسة ، وطرق الانتاج ، والمواصلات والنقل، مستمدة من تلك التي تستعمل في الدول الاوروبية والتي تحسن طرق المعيشة التي كانت سائدة في المجتمع التقليدي المتخلف • أما السودان فنعني به الاجزاء التي تكون السودان الحالي • وعملية التحديث تمت في فترة مبكرة كانت نتيجة مباشرة للفتح التركي المصري ١٨٢٠–١٨٢٢ وكانت عناصر التغيير في هذه الفترة العثمانيين والاتراك والناطقين بالعربية في أملاك محمد علي • أما في المرحلة الثانية والتي كانت بين حكم اسماعيل وتفجير الثورة المهدية ، فكانوا أوروبيين •

لنبدأ بالمجتمع السوداني التقليدي قبل فتح محمد علي للسودان نجده غاية في البساطة ويضم عدة مجموعات تختلف بعضها عن بعض في طرق الحياة واللغة والعادات والدين • ومن حيث الأثر الاسلامي نجد

مجتمعين مختلفين أحدهم في الجنوب والآخر في الشمال ونلاحظ أن فصائل المجتمع الشمالي كانت تتمتع بنصيب من المعرفة وأبجديات الثقافة ونجد تأثير لحضارة العرب الاسلامية من الشرق الاوسط عليها كان أعظم من تأثيرها على المجتمعات في الجنوب فهم قد تعربوا كثيرا وكان هناك زواج بين البدو والعرب والسكان الاصليين والنوبة والبجا في البحر الاحمر وأصبحت اللغة العربية هي السائدة على اللغات الاصلية في الشمال ما عدا البجا (١) . والنفوذ العربي واضح من ادعاء الفونج وحتى البجا بأنهم أصلا من سلالة الرسول . الروابط الاسلامية القوية ربطت الناس في شمال السودان بصورة فعلية أكثر من أي تنظيم سياسي . والولاءات الاقليمية والقبلية كانت قوية . وكان انتشار الاسلام تدريجيا . أما المناطق الجنوبية فقد انتشرت بها الوثنية . يشمل هذا الفونج أنفسهم . وانتشار الاسلام كان على يد رجال الدين الذين أقاموا المذهب المالكي والطريقة القادرية . أسس هؤلاء العلماء «كتاتيب القرى» وأصبح لها نفوذ روحي وسياسي مما أضاف عاملا آخر للاستقرار . وكان اتباعهم مخلصين ومطيعين . ثم ادخلت السمانية والختمية في القرن الثامن عشر ولكنهما سرعان ما ذابتا في التركيب والطبقات الصوفية التقليدية . كان الاقتصاد في المجموعتين معيشي . وقد ربطت الطرق التجارية الهامة بين افريقيا والاراضي الساحلية في البحر الابيض والاحمر وهناك قوافل تجارية بين سنار أو دارفور ومصر. خط آخر يمر من الغرب الى الشرق خدم التجارة والحجاج من غرب بلاد السودان الى الحجاز (٢) . تستغرق الرحلة زمنا طويلا ، وقد

(1) ed. Holt P.M : of Modernization in the Middle East : (America 1968) , *Modernization and reaction in the 19 thc: Sudan, P.403*

(2) Ibid , P. 404 .

يستقر المسافرون • وكانت شندى مركزا تجاريا كبيرا . شمل نشاطها التجاري الرقيق الذي كان بعضه يعمل في المنازل والحقول وبعضه يعمل كقوة محاربة في جند الزعماء •

ظلت بلاد السودان مغلقة عن العالم الخارجي أجيالا طويلة • قبل أن تدخلها جيوش اسماعيل بن محمد علي سنة ١٨٢١ • ومن ارتادها قبل ذلك كان جهده من تلقاء نفسه كرحالة ومكتشفين ، كجيمس بروس وبراون ومحمد بن عمر التونسي ومؤخرا رحلات بيكو لاكتشاف منابع النيل • وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر كان السودان تحت سيطرة العرب الذين مدوا سلطاتهم حتى السوباط وبحر الغزال ، وتركوا في البلاد اثارا اجتماعية وسياسية واقتصادية فانتشر الاسلام تدريجيا، فضعفت المسيحية والوثنية • وصاحب ذلك نهضة اسلامية غذاها الكثير من الرواد المسلمين من الاقطار الاسلامية المختلفة • كما انتشرت التجارة وقامت عدة ممالك في سنار ودارفور وبوزنو ووداى • ولكن دولة الفونج الاسلامية التي قامت في سنار في أوائل القرن السادس عشر على يد عمارة دنقس وعبد الله جماع من عرب القواسمة كانت أهم تلك الممالك • وكانت هذه المملكة اسلامية وفد اليها الكثير من العلماء المسلمين ، فدرسوا وارشدوا وحمل تلاميذهم الرسالة من بعدهم • ورحل بعض المفقهين السودانيين الى الاقطار الاسلامية للتزود من العلوم الدينية ، وخاصة مصر حيث الجامع الأزهر • كما كانت سنار طريقا للمبشرين الكاثوليك للحبشة تحت اشراف قنصل فرنسا العام في القاهرة • وقد كانت دولة الفونج قوية استطاعت صد غزو الاحباش في سنة ١٧٤٤ وغزت اقليم كردفان • وكانت تحكمه قبيلة المسبعات تحت سيادة ملوك الفور في دارفور وضمها لأملاك السنار ولكن غزو كردفان

أدى الى عزل بادي ابو شلوخ ، وتولية ابنه تحت سيطرة الهمج بقيادة محمد أبولكيلك • وسرعان مانشبت الحروب الداخلية والخلافات والمنافسة على السلطة بين الهمج ، وتفككت الدولة ، وانعدمت الرابطة بين قبائلها مما سهل دخول جيوش اسماعيل الى السودان •

ولا بد لنا أن نذكر أن الطرق الصوفية والزعامات الدينية كانت من أهم دعامات المجتمع السوداني خاصة في عهد الفونج • ذلك بجانب الرابطة القبلية • فرجال الدين وحولهم آلاف الطلبة حظوا باحترام زعماء الفونج • فكثيرا ما خصصت لهم الاراضي واعفوا من الضرائب • كما كان السودانيون عامة قد جذبتهم كرامات هؤلاء الاولياء فانتشر انصار ومريدو الطرق الدينية في كل أنحاء السودان • أما القبيلة فقد كانت الوطن الصغير وكل سوداني لا بد أن ينتمي الى قبيلة لها دارها، مهما سافر واغترب في اقليم آخر فهو يظل منتميا لقبيلته • وبما أن مطالب العيش بسيطة فالرجل ليس بحاجة لان يفارق دياره وموطنه لذلك لم يعرف في تاريخ هذه الحقبة هجرة الى خارج السودان الا في طلب العلم والتجارة • وحتى في داخل السودان فالهجرة الفردية نادرة الوقوع (١) • والحياة الاجتماعية بسيطة لم يكن هناك طبقات أو تفاوت كبير بين حياة الاثرياء وبقية أفراد الشعب ، فاللبس أبيض خفيف صنع بالأيدي من القطن ، والبيوت من الطين والقطاطي المبنية من القش والقصب في المناطق ذات الامطار الغزيرة• اللبن والعصيدة والدخن هو الغذاء الرئيسي • ومما دعم نظرية عدم وجود الطبقات وجود الرقيق بكثرة

---

(١) شبيكة ، مكي : **مختصر تاريخ السودان الحديث** (القاهرة ، ١٩٦٣) ، ص ١٢ .

وسهولة الحصول عليه • عرف السودان الاتجار مع الخارج خاصة مصر منذ عهد الفراعنة • وكان درب الاربعين من دارفور الى أسيوط أحد الطرق لذلك ، وهناك طريق آخر من دنقلا حتى الواحات ثم يتصل بطريق الاربعين • وكان ميناء سواكن منفذ السودان الوحيد للبحر ، خلال هذه الطرق حمل التجار الى السودان العطور الهندية (الروائح والصابون) ، المنسوجات والبهارات يستبدلونها بالرقيق والصمغ وسن الفيل وغيرها •

تتكون مملكة سنار من دويلات صغيرة عمادها القبيلة الواحدة • والوراثة كانت أحد عوامل الشهرة والزعامة الا أن اظهار المقدرة في قيادة القوم في الحروب ، والكرم والعطف على أفراد القبيلة في زمن السلم أيضا من الأهمية بمكان • أما الحكومة فكانت قليلة النفقات قليلة الضرائب • والمجتمع « ديمقراطي » دون طبقات ، تغلب عليه المساواة ، والاسلام هو العقيدة يميل الى التصوف ، وزعماء الدين بدرجة عظيمة من الاحترام والاجلال• في سلطنة سنار لم يسك السلاطين عملة سودانية ، فالتجارة الداخلية كانت بالمقايضة وهي وسيلة بدائية ولكننا نجد بالسودان في ذلك الوقت عملات متداولة • ففي شرق السودان كان الريال النمساوي متداولا في ميناء سواكن ومصوع • كان نقدا ثابتا في تجارة البحر الاحمر والحبشة ، وثمة نقود أخرى من الذهب والفضة كانت متداولة على الساحل وفي الداخل أيضا •

كانت دارفور قد قامت بها مملكة في نفس الوقت الذي قامت فيه دولة سنار تقريبا • وتعاقب عليها سلسلة من السلاطين ظلوا يحكمون على أساس اسلامي ، ودخلت في حروب مع جيرانها كما اشتبكت مع سنار كثيرا بسبب المنافسة بينهما لامتلاك كردفان ، مما انهك قوى

المملكتين • كما أن تجارة الرقيق قد انتشرت وأصبحت بعض المدن كسنار وشندي وبارة مثلا أسواقا لهذه التجارة ، فسارت القوافل بالرقيق الى جانب السلع الاخرى من هذه الاسواق الى الحبشة ومصر وسائر الاقطار الافريقية في الشمال والغرب • ولكن هذه القوافل كثيرا ما تعرضت للسلب والنهب • ففي الشرق كانت العبابدة والحلانقة وبنو عامر يهاجمون القوافل بين شاطىء البحر الاحمر والنيل • أما في الغرب في الطريق الصحراوي فقد تعرضت القوافل لهجوم البقارة والكبابيش والغديات وغيرهم • وفي الشمال كان الشايقية مصدر رعب وفزع لهذه القوافل وكان الشايقية كثيرا ما استقلوا ولكنهم لم يؤلفوا حكومة ثابتة مستقرة• وقد أكثروا من الاغارة على سلطنة دارفورد ، منذ أن أخذ الضعف يدب فيها في أواخر القرن الثامن عشر • بجانب الشايقية كان هناك العبدلاب كما كانت مشايخ خشم البحر شرق النيل الازرق ومملكة فازوغلي جنوب خشم البحر ومشيخة الحمده على الدندر ولكنها مشايخ شبه مستقلة • وهناك مملكات خضعت للفونج عن طريق العبدلاب كالجعليين والجموعية والميرفاب والرباطاب وغيرها • ولكن جميع هذه المشايخ والممالك استغلت ضعف مملكة سنار ودخلت في منافسة مع بعضها البعض • بل ازدادت الحروب الداخلية من أجل التنافس على السلطة • فانتشرت الفوضى والاضطراب • وانحصر النزاع على السلطة بين الوزير عدلان ومنافسه حسن ودرجب • وتفاقم الامر حتى سيطر الهمج على السلطة فامتنع الشايقية عن دفع الجزية • وتحررت الهدندوة وبني عامر والحلانقة من سلطنة سنار • كما تمكن العبدلاب بقيادة محمد الامين بتأييد من سلطان سنار عدلان من تحقيق قدر كبير من الاستقلال بعد أن هزموا

الهمج وقتلوا زعيمهم بادي ودرجب في سنة ١٧٨٠م كما صارت الشكرية أعظم قوة في البطانة .

من كل هذا نخلص الى أن المجتمع في السودان كان قبل سنة ١٨٨٢ مجتمعا قبليا ، رابطة القبيلة هي الاساس ، وليست الوحدة القومية والى يومنا هذا مازالت بعض بقايا هذه النعرة العنصرية والقبلية موجودة . أيضا كانت سلطة الحكومة في سنار في اضمحلال واضح . وانتشر التطاحن بين الدويلات والمشايخ واختل الامن نتيجة لغارات القبائل الكبرى كالعبابدة والشايقية على القوافل التجارية .

تلك كانت الحالة عندما عزم محمد علي على فتح السودان . وقد خبر محمد علي خبر سنار من التجار المصريين المترددين اليها . وجاءه الملك نصر الدين ملك الميرفاب ببربر، وشرح له حال سنار وهون اليه أمر الفتح[1] . وأيضا جاءه رجل من عائلة الزبير المالكة في أرقو وأخبره بحال دنقلا ، وعبث المماليك فيها . ومحمد علي أراد أن تكون لمصر شخصية مستقلة ويكون هو قويا على رأسها . وكان قد سمع عن خيرات السودان مما ذكره الرحالة والمكتشفون الذين زاروا السودان، ومما أغراه بفتح السودان. ورغبة الزعماء المصريين لامداد ملكهم جنوبا لم يبدأها محمد علي . فقد بدأت منذ الفراعنة ، بلغت قمتها وصارت فتحا حقيقيا منذ عهد تحتمس الاول في المملكة المصرية الحديثة . وبما أن محمد علي أراد تكوين دولة قوية عظيمة في مصر فقد كان عليه تكوين جيش قوي يحميه ولكن كان يواجهه العجز المالي لذا كان تفكيره

---

(١) شقير ، نعوم : **جغرافية وتاريخ السودان** (بيروت ، ١٩٦٧) ص ٤٩١ .

قد اتجه جنوبا الى اراضي السودان ، حيث الرجال الاقوياء لجيشه . والسود السودانيون عرفوا بطاعتهم وولائهم لقادتهم وشدة بأسهم . كما أراد الاستيلاء على الذهب في فازوغلي وبني شنقول ، والتي طغت شهرتها الآفاق ، وهذا سيمكنه من تحقيق هدفه . كما أراد استئصال شأفة المماليك الذين فروا للسودان بعد مذبحة القلعة ، وشكلوا خطرا على مصر بعد أن قويت شوكتهم في شمال السودان . كما ذكر أنه أراد اكتشاف منابع النيل لنفع العلم والزراعة المصرية . ولكنني أرى أن محمد علي لم يرد نفع العلم بمحاولته لكشف المنابع انما أراد فائدة الزراعة المصرية . فاهتمامه بالمنابع أتى متأخرا حين أرسل سليم قبودان سنة ١٨٣٩ أي بعد الفتح بعشرين سنة . كما أراد توسيع التجارة المصرية . والانتفاع بموارد التجارة السودانية . أيضا هدف وحرص على سلامة مصر ووحدتها السياسية . وذلك بالاستيلاء على مجرى النيل ، اذن محمد علي كان يضع مصلحة مصر ومصلحته الشخصية في المقام الاول في تفكيره لفتح السودان .

بالفعل كان محمد علي قد تأكد من سوء الاحوال في سنار ، ومن ضعف الحكومة فيها اذ أرسل وفدا لهذا الغرض ولكنه تظاهر بأنه وفد صداقة ، لتحريض الملك على طرد المماليك الذين لجأوا اليه من مصر وفي الباطن أتى الوفد لاستطلاع أحوال البلاد « وما يلزم من الجند لفتحها » (١) . وفي أثناء ذلك أرسل محمد علي المسيو فردريك كايو العالم الفرنسي الى الصحراء الشرقية لاكتشاف الزمرد والذهب الذي دلت التواريخ العربية على وجوده . ووصلها فردريك ووجد فيها كهوفا

(١) شقير ، نعوم : **المرجع السابق** ، ص ٤٩٣ .

قديمة ، وحفائر ودهاليز ، وآلات شتى وآثارا تـدل على استخراج المعادن هناك • فالتقط بعض قطع الزمرد فقويت بها آمال محمد علي • وبعث به مرة ثانية ومعه نفر من الأورام والارناؤوط ولكنه عاد بعد قليل بلا فائدة •

تضافرت عدة عوامل لان يسير محمد علي حملة الى السودان لادخاله في نطاق النظام السياسي الذي أوجده محمد علي ووضع قواعده في سنة ١٨٠٧ ، سنة ١٨١١ على اساس الحكومة المستبدة المستنيرة في الداخل • والتوسع شرقا وجنوبا في الخارج لنقل مصر من مجرد ولاية عثمانية بسيطة الى باشوية وراثية سواء كانت منفصلة عن جسم الدولة العثمانية أم داخلها اذا تعذر الانفصال أو الاستقلال • ويقول محمد فؤاد شكري (١) أنه « من أكبر العوامل شأنا في ارسال حملة السودان مطالبة أهل السودان أنفسم بانشاء حكومة قوية على يد مصر تقضي على أسباب الفوضى المنتشرة وتستبدل بها عهدا من الامن والنظام والرخاء والانتعاش الاقتصادي » • ولكن من الواضح ان هؤلاء الزعماء قد لجأوا الى محمد علي لتحقيق مطامع وأهداف شخصية • فمثلا الملك بشير ود عقيد الجعلي كان قد هرب للقاهرة واستنجد بمحمد علي لان الملك نمر كان قد وشى به لدى ملك سنار ، الذي أرسل اليه من يقتله •

كان محمد علي يرى ضرورة المحافظة على وحدة الوادي لأسباب عدة منها ايمانه بأن لمصر رسالة في السودان لا يمكن التخلي عنها • ومن

---

(١) شكري ، محمد فؤاد : **مصر والسودان** (القاهرة ، ١٩٥٨) ص ٨٠ •

أحاديث محمد علي مع الزعماء المحليين في فازوغلي ، وتوجيهاته للحكام المسؤولين واضح اهتمامه بتأمين الاهالي على أرواحهم وأرزاقهم وبمنع اعتداءات الاحباش عليهم ، واعتداءات أهل سلطنة دارفور ثم حثه الناس على استغلال موارد بلادهم وتعليم ابنائهم ، وأبدى اهتماما فائقا بشؤون السودان . كما أنه رأى أن الاحتفاظ بالسودان سيضمن لمصر توفير المياه . كما أراد انتعاش التجارة بعد أن أوقفتها الفوضى التي انتشرت في السودان بسبب عدم قيام الحكومة الموحدة ، وهذا الضعف أيضا اطمع الاحباش في مقاطعات سنار المتاخمة لحدودهم . زد على ذلك أنه كثيرا ما كانت تختمر في رؤوس الاحباش فكرة تحويل مجرى النيل بعد خروج مائه من منابعه في الحبشة ، بأن يحفروا قناة كبيرة تذهب بمياهه صوب الشرق بدلا من جريانها في النيل الازرق وعطبره وغيرهما من الروافد [1] . هذا ان حدث سيحرم مصر من المياه ، ولكن بما أن الاحباش لا طاقة لهم بذلك فالخوف كان من توسع صلات الاحباش بالبرتغاليين والهولنديين والفرنسيين ، والخطورة في أن تستطيع احدى هذه الدول التوغل في الحبشة ثم في السودان لضعف سنار ، وهذا يهدد مصر وأمنها الاقتصادي . كما أن محمد علي استند على نظرية « الخلو » في حقه في السودان . وفحواها أنه عندما فتح السودان لم يكن يملكه أحد . ولكن ذلك ليس بالامر الصحيح اذ أن السلطة كانت في يد سلطان سنار ، وان سيطر عليها الهمج . اذن السودان لم يكن خاليا عند فتح محمد علي له .

---

(١) شكري ، محمد فؤاد : مجلة كلية الآداب العدد الثامن، ١٩٤٦ **صفحة من تاريخ السودان الحديث** ، رحلة محمد علي باشا الى فازوغلي ١٨٣٨ – ١٨٣٩ . ص ٣٠ .

جمع الوفد الذي أرسله محمد علي الى سنار المعلومات وبعدها أعد محمد علي حملتين الاولى بقيادةابنه اسماعيل ووجهها نحو سنار،والثانية بقيادة صهره الدفتردار توجهت نحو كردفان ودارفور • فسار اسماعيل بجيشه من الاتراك والالبان والمغاربة مزودين بالاسلحة النارية ، ومعهم ممثلين للمذاهب الاربعة لبث الدعاية ولاقناع النـــاس بان الخضـوع لسلطان أمير المؤمنين وخليفة رسول المسلمين واجب ديني • لم يجـد اسماعيل مقاومة الا في اقليم الشايقية • فحاورهم لتسليـــم أسلحتهم ودفع الجزية ولكنهم رفضوا تسليم أسلحتهم ، مع استعـــدادهم لدفع الجزية فحاربهم اسماعيل وتغلب على معظمهم وهرب بعضهم جنوبا الى شندى • وما لبث أن أتته القبائل تقدم الولاء والتسليـــم • فسلـم الجعليون • وفي شندى تصالح مع الشايقية ، الذين فروا بعد المعـارك وانخرطوا في جيشه كباشبوزق • وتوجه اسماعيل بعد ذلك الى سنـار المتهالكة وفشلت مقاومة محمد ودعدلان باغتياله ، فسلمت له بقيـادة بادي • وهكذا لم يجد اسماعيل صعوبة في زحفه بعد هزيمته للشايقية في كورتي ، فالبلاد مفككة ، وفوق ذلك لم يكن هناك قومية عامة تربط الجميع وتجعلهم يتكتلون ضد أي غزو أجنبي • وهكذا زال ملـك دام اكثر من ثلاثة قرون، حفظ للاسلام والعروبة اسمهمـا وتقاليـدهما في حوض النيل الادنى وروافده •

أما الدفتردار فقاد حملة كردفان ، واشتبك مع المقـــدوم مسلم حاكمها في بارا • وانتصر عليه وضم كردفان الى أملاك محمد علي ، كما ضمت سنار من قبل • ثم بعث محمد علي ابنه ابراهيم ليساعد أخـــاه اسماعيل لوضع خطة لتنفيذ أهداف الحملة ، لجلب السود الصالحـين المجندية وهو هدف رئيسي لمحمد علي ولتوجيه الغزوات ولكنهـــم لم يأتوا بالعدد الكافي •

ثم بدأوا في فرض الضرائب وكانت باهظة لم يألفها الناس ، فأهل السودان آنذاك أغلبيتهم تتعامل بالذرة والدمور كنقد ، والروبالات المتداولة بين الناس قليلة . وتتيجة لذلك كانت بوادر الثورة في منطقة سنار ومهاجمة الحاميات المنعزلة وهروب الاهالي الى الشرق والى الحبشة . رغم محاولات اسماعيل لتخفيفها الا أن الحال لم تتغير مما زاد من الكراهية للحكم المصري . لعدم ملاءمة مناخ سنار نقل اسماعيل العاصمة الى ودمدني وبنى بها ثكنات . وطمع اسماعيل في أن تكون عودته للقاهرة عودة الفاتحين والابطال . وهو في طريق عودته الى القاهرة وفي منطقة الجعليين يبدو أنه طلب منهم مطالب لا تسمح مواردهم المحدودة بايفائها ، فاعتذروا له فأهانهم وكانت النتيجة مقتله. ومن هنا كانت حملات الدفتردار العنيفة انتقاما لمقتل اسماعيل وكانت نقطة سوداء في تاريخ الحكم التركي المصري في السودان . عين عثمان بك مأمورا لاقليم سنار وأعجبته الخرطوم فنقل اليها العاصمة ، وتلاه محو بك واتبع سياسة لين ومسالمة لمحو بعض ما علق بنفوس الناس نتيجة للضرائب التي فرضت وحملات الدفتردار .

ثم كان خورشيد وعهده عهد استقرار الادارة والأخذ باسباب العمران . وفي فترة حكمه على سنار اتبع سياسة أرجعت الفارين للسودان . واستعان في ذلك ببعض كبار السودانيين كالشيخ أحمد الريح والشيخ عبد القادر ود الزبير وشيد مسجدا بالخرطوم ومباني الحكومة وثكنات الجيش ، وفرق الاخشاب على الاهالي تشجيعا لهم على عمرانها ، وتوسعت الخرطوم وازداد عدد السكان حتى بلغ خمسة عشر ألف نسمة في ١٨٢٤ (١) . وصارت الخرطوم من أهم المراكز

---

(١) شكري ، محمد فؤاد : **الحكم المصري في السودان** (القاهرة ، ١٩٤٧) . ص ٢١ .

التجارية . اذ جاءها التجار من مختلف انحاء العالم خاصة من مصر والقسطنطينية . كما بذلت الجهود لزيادة انتاج البلاد واستغلال ثروتها الطبيعية من زراعية وحيوانية ، وذلك بتحسين المزروعات ونسل الحيوانات وادخال الطرق الحديثة في كليهما . وارسال الخبراء المختصين من أجل الغرض فارسل محمد علي مع خورشيد آغا ما ينوف عن المائة من الفلاحين ليعلموا الاهالي عمليا أحدث وأنفع طرق الزراعة. ووصل الخبراء في زراعة الأفيون والدباغة وأعمال الجبس والجير . ولفشلهم رأى محمد علي أن يستعيض عنهم بالسودانيين يرسلون الى مصر لتعليم بعض الصناعات والحرف ليعودوا ويمارسونها في السودان. أيضا طلب خورشيد عمالا من مصر يجيدون صناعة السواقي المصرية لتروي أراضي الجعليين بعد أن فكر في الاعتماد على الري المستديم بدلا عن الامطار . وطلب عمالا لحفر الترع لاستغلال مياه الفيضان . وأغرى السكان البعيدين عن النيل في الجزيرة بأن يبنوا بيوتهم على النيل وينشئوا السواقي هناك . كما استحضر أغراس الاشجار المثمرة من مصر لتزرع في السودان ، وشجعت بعض المزروعات كالنيلة وقصب السكر والقطن والقمح الذي نجحت زراعته في مديريتي بربر وسنار ، فأنشأت الحكومة مزرعة قصب سكر ضخمة في الكاملين على النيل الازرق ومعها مصنع للسكر [1] . ولتحسين نسل الماشية الموجودة بالسودان طلبت كباش ممتازة من مصر .

عموما تميزت الادارة الجديدة بعد هدوء الاحوال واستقرار الامن بنهوض عام هدفه زيادة الانتاج واستغلال الثروة الزراعية والحيوانية .

---

(1) Hill, R. : **Egypt in the Sudan** (London 1959) ' P. 54 .

واستطاع عدد من الرحالة الاجانب القدوم للسودان ، وكـان من بين هؤلاء هاي وهوشت فقد زارا السودان عام ١٨٢٤ وبلغا موضعا قريبا من موقع مدينة الخرطوم الحالية وفي عام ١٨٢٧ قام البلجيكي أدولف لينان دي بلفون برحلته المشهورة الى النيل (أو البحر) الابيض على نفقة الجمعية الافريقية البريطانية . وكان أول اوروبي استطاع اعتلاء هذا النهر منذ العصور القديمة [١] حتى تمكن الكاشف الاغريقي داليون من السير في النيل الى ما بعد موقع الخرطوم. وفي ١٨٢٩ قام ادوارد روبل برحلة علمية الى السودان وعبر الصحراء من دبة الى الابيض وكان بذلك أول اوروبي زار كردفان [٢] . أمـا هوسكنس فقد وصف ما شاهده في بربر فتحدث عن مصنع النيلة الذي أنشأه محمد علي دون أن يستخدم لأدارته اوروبيا واحدا ، وكيف ازدهـرت حتى كان من المستطاع الحصول على أربعة عشر أقة من النيلة سنويـا . اذن فقد توسعت الزراعة وانتعشت وادخلت الصناعة ويقول محمد فؤاد شكري في هذا ان هذه الزراعة قد « ادخلت في بلد لم يعرف معنى الزراعة ولم يسبق لأهله الاشتغال بالصناعة [٣] » وكأنما اراد شكري بقوله هذا أن يعطي المصريين فضل ادخال الزراعة في السودان . وهذا ينافي الواقع اذ ان السودان قد عرف الزراعة منذ العصر المروي أي القرن الثالث قبـل الميلاد اذ أدخلها الاغريق وكان النشاط الرئيسي لمعظم المرويين حيـث مارسوا انواعا متعددة من الزراعة ، فزرعوا الذرة وقد اكتشفت بقايـا ملابس من القطن في مروى تشير الى أن هذا المحصول قد زرع أيضـا

---

(١) شكري ، محمد فؤاد : **الحكم المصري في السودان** ص ٢٧ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٧ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٣ .

وقطع من الكتان وهذه ان لم تزرع فربما تكون نتيجة التجـــارة مع مصر • أما الري فبجانب الامطار قد استعمـــل الشادوف لرفع الميـــاه من النهر واستعملت الساقية أيضا (١) •

أما الذهب والمعادن فقد جرى التنقيب عنها في سنار وكردفان وبني شنقول وفازوغلي وقد ارسل محمد علي المهندسين لاستخراجه • كمـــا أنه فكر في رحلته للسودان لذلك الغرض ، اذ ذكـــر للقنصل الروسي الكونت ميدوم في أغسطس ١٨٣٨ ••• « أما اذا عـــدت من فازوغلي ومعي مركب محمل بالذهب أصبح من الميسور انهاء كل هذه الخلافات بشكل يحقق جميع آمالي لانه ان كان لدى المرء مـــال فانه لن يعدم اصدقاء أو جيوشا تجعل مهمة الوصول الى اتفاق سهلة ميسورة•(٢)» وربما كان أحد هذه الآمال الحصول على الذهب حتى يعرض على تركيا مبلغا ضخما من المال تستعيض به عما كان يدفعه لهـــا من جزية سنوية حتى يستميل كبار السياسيين باوروبا (٣) • أرسلت البعثات للتنقيب عن الذهب وغيره من المعادن ولكن كمياته كانت ضئيلة لم تتناسب والجهود التي بذلت لاستخراجه • والسودانيون أنفسهم عارضوا هذه البعثات • أما الحديد فقد اكتشف بكميات قليلة في كردفان •

رسمت خطة واضحة للتعليم ، وأعيد بناء ما تهـــدم من المساجد وقد كانت آنذاك دور التعليم وموئل الثقافة الاسلامية وشيدت مساجد

---

(١) Shinnie, P.L. : **Meroe, A Civilization of the Sudan,** (London 1967) ' PP. 158 - 160 .

(٢) شكري ، محمد فؤاد : مجلة كلية الاداب العدد الثامن ١٩٤٦ ، **« صفحة من تاريخ السودان الحديث »** ، ص ٣٦ .

(٣) المرجع السابق • ص ٣٦ ـ ٣٧ •

اخرى . ونظم القضاء وقبل مجيء الحكم التركي المصري كان السودان المسلم لا يعرف شيئا في مجال القوانين ، غير تعاليم الشريعة الاسلامية، ولم يكن لدى السودانيين في الأغلب الأعم معرفة أو المام بقليل أو كثير من القوانين الوضعية وحتى الشرع الاسلامي لم يتمكن من معرفته معرفة حقة الا القليلون . لم يكد محمد علي يفتح السودان حتى ادخل فيه القوانين المدنية والعسكرية المتأثرة بالنظم الغربية . وقد سعت الحكومة لكسب الفقهاء والعلماء المسلمين فاستجاب هؤلاء مع غيرهم من المتعلمين للوضع السياسي القائم ، لانهم مدينون له برواتبهم وقد اخذت هذه الفئة مكانها مع القضاة والعلماء المبعوثين من مصر وكونوا طبقة موالية للحكومة . من هؤلاء القضاة الشرعيون الذين كانوا يعالجون كل ما يتعلق بالاحوال الشخصية التي تهم المواطنين من أمور الزواج والطلاق والميراث وما الى ذلك . أما في المدن الصغيرة فكان ينظر في هذه المسائل نواب شرع تابعون للجهاز القضائي وهناك المفتي وعلى رأس هؤلاء جميعا رئيس القضاء . كان لكل مجلس محلي محكمة ، رئيس وثمانية أعضاء من الاعيان وبعض التجار. وهناك مجلس الاحكام بالخرطوم ويخضع هذا المجلس للمحكمة العليا بالقاهرة . أيضا زاد الاهتمام بالمذهب الجنفي . أما غارات الحبشة فقد ردت وتوسعت عمليات الكشف عن منابع النيل. رغم كل هذه الاصلاحات فقد انتشرت الرشوة والاختلاس وقد عوقب من ثبتت عليه التهمة كما حدث في بربر ودنقلا . كان العبيد يدفعون بدلا عن المرتبات ولكن ضغط الدول الاوروبية جعل محمد علي يأمر بالغاء ذلك .

استمرت التنظيمات واصلاحات خورشيد في عهد خلفه أحمد باشا ابوودان . فخصبت الاراضي ورخصت الاسعار حتى صار اردب الذرة بخمسة قروش .وعندما تضخمت مصروفات محمد علي من

الناحية العسكرية نتيجة لاحتلاله لسوريا بدأ يطالب بارسال الصمغ من السودان حتى تفرج الضائقة المالية . أيضا ضمت التاكا في شرق السودان بعد مقاومة من الهدندوة . وانشيء سد من التراب لتحويل مياه فيضان القاش الى اراض جديدة لزراعتها وانشئت مديرية التاكا هنالك كما أسس مدينة كسلا . وفي عهد خلفه أحمد باشا ابوودان استمر التوسع الزراعي خاصة في زراعة قصب السكر . وزادت العناية بتنظيم مالية السودان وشؤون الحكم والادارة وتثبيت دعائم الحكم في التاكا وقد انشئت الصناعة وأنشأ نور الدين افندي — احد المصريين — غدة مصانع كما أسس رجل الماني يدعى باور مضنعا للصابون والكونياك ، وكان يدير اخد ابناء الغرب مصنعا للسكر والنيلة كما استطاع استخراج الكونياك من البلح وقصب السكر [١] .

عهد المنكلي هو بداية اللامركزية في فترة الحكم التركي المصري . وقد كان محمد علي حريصا على أن يبقى السودان وممتلكاته في يده حرصه على مصر نفسها فقسمت المديريات ، وعين اللواء حسن باشا لمديرية دنقلا التي وسعت حدودها حتى المتمة وشندي ، وأمين باشا للجهات العليا وتبدأ من المتمة وشندي ، وتشمل الخرطوم والنيل الابيض والجزيرة حتى ودمدني والاقسام الشرقية للنيل الازرق ، وسليمان باشا لمديرية سنار وهي من ودمدني جنوبا حتى حدود فازوغلي وشرق النيل الازرق ، وسليم باشا لمديرية فازوغلي ، وفرهاد باشا لمديرية التاكا ، ومصطفى باشا لمديرية كردفان . وامتازت فترة المنكلي باهتمام واسع في ترحيل المواشي من كردفان والبحر الابيض الى مصر .

---

(١) شكري ، فؤاد : **الحكم المصري في السودان** ، ص ٢٧

وجهزت محطات على النيل وعددها خمس وتسعون • كما نشطت حركة التجارة في النيل الابيض بالمراكب• وطلب الاجانب الدخول في الجنوب لجلب سن الفيل والريش • ولكن هذه الفترة شهدت أيضا خلافات بين المنكلي وبين المديرين وبينه وبين مدير الخرطوم ونتيجة لذلك أعـــاد محمد علي المركزية مرة أخرى • وبعد انشاء التاكا ضمـــت سواكـــن ومصوع نظير مبلغ من المال وكثيرا ما التجأ اليها الفارون من الضرائب والاعباء الحكومية الاخرى خاصة سكان الشمال ، وفي دنقلا بالذات • ومنهم من فر الى كردفان وسنار والخرطوم والنيـــل الازرق • هؤلاء الفارون رغم فقد مناطقهم لهم فقد نقلوا نشاطهم وخبرتهم بفلاحة الارض الى الاقاليم التي استوطنوها فزادوا انتاجها •

أما اللغة الرسمية للمكاتباب بين والي مصر والمسؤولـــين في السودان فكانت التركية كما يقول ريتشارد هل ، الا أن الكثيرين من المسؤولين كخورشيد كثيرا ما استعملوا العربية التي أصبحـت اللغـة الطاغية بعد وفاة محمد علي ، ومحمد علي نفسه كان تركيا • السودان لم يفتحه مصريون عرب فليس من بين الجنود الذين فتحـوا السودان مصري واحد كما يقول هل •

هذه هي أعمال محمد علي في السودان ، أجريت على يـد أبنائه وحكمدارية الذين اصطفاهم حتى يتمكن من تثبيت دعائم حكمه في مصر السودان وبالتالي يقوى ويدعم مركزه في مصر • فهو لتنفيذ أغراضه من فتح السودان أرسل البعثات والاداريين والمشرفين ، كما زاره بنفسه وهو في السبعين من عمره وبقي فيه خمســة شهور • والسودان في رأيي مدين لمحمد علي في جعله حوض النيل الى فشودة وحدة اداريـة لأول مرة • فهو أزال الى حد كبير الفوارق التـــي كانت موجودة بين

الممـلكات الصغيرة التي كانت موجودة قبل فتحه للسودان . ووضع حدا للحروب التي كانت تنشب بين القبائل ، وأمن المواصلات. بسبب الوحدة الادارية قلت العصبية القبلية وطغى الشعور بأن الجميع تحـت ظـل حكومة قوية ذات «هيمنة»، وتدفق السياح على السودان فاتصل بالعالم الخارجي متأثرا بالمدنية الموجودة آنذاك . وبينما كان في الخرطوم عمل على ازالة أسباب الشكوى . وقابل المشايخ والزعماء وقلد سليمان بك ملك ابو رملة الحكم من الخرطوم والى فازوغلي ، وقلد رؤساء سنـار وكردفان الحكم في أقاليمهم كذلك[1]. وعندما وصل فازوغلي اعجبته قرية فامكة وموقعها فأمر المهندس الفرنسي دارنو أن يبني بها قصرا ويبنـي المهندسون بيوتا بجوار القصر وثكنات لاقامة الجند وتأسست من ثم مدينة محمد علي . أما السياسة العمرانية فقد كانت رشيدة هدفت الى تحسين الزراعة وطرق الري وزيادة الانتاج الحيواني فجلـب العمال المهرة وحفرت الترع وأقيمت السواقي الجديدة وسلالات الحيوانـات والاشجار المثمرة وتقاوي المزروعات الجديدة وغيرها من الاصلاحـات التي ذكرتها من قبل .

ولكن هذه الادارة الجديدة كان لها توابعها اذ عرف السودان جشع الحكام والرشوة والاختلاس وادخل نظام جـديد للضرائب لا قبـل للسودانيين به . أما الادارة المالية فقد كانت على أساس تجاري بحـت فمحمد علي كان يريد استغلال موارد السودان الزراعيـة ، التجارية والبشرية وهو لم يرد أبدا أن يكون السودان عبئا اقتصاديا على مصـر ولا يحتمل أن تزيد مصروفات حكومته في السودان عن ايراداتها .

---

(١) شكري ، محمد فؤاد : مجلة كلية الاداب العدد الثامن ، ١٩٤٦ ، **« صفحة من تاريخ السودان الحديث »** ، ص ٤٠ .

أما السودان في عهد عباس فلم يجد العناية التي وجدها في عهد محمد علي • ولكن لعباس اصلاحاته التي أدخلها • وقد وجد الزعماء الوطنيون والمشايخ حظوة عظيمة في عهد عباس • فقد قلد عباس الشيخ عبد القادر ود الزين وظيفة معاون الحكمدارية ومشيخة مشايخ عموم الجزيرة ، وقلد الشيخ عدلان محمد مشيخة جبال الفونج ، وعهد الى حسين خليفة مشيخة العتمور • وعومل شيخ الشكرية أحمد ابو سن أحسن معاملة • واشترك الزعماء الوطنيون في شؤون الحكم والادارة فاصبح الشيخ علي جلابي والشيخ محمد نور ضيف الله بمجلس الدعاوى وهو بمثابة محكمة عليا • كما عين الشيخ ابراهيم عبد الدافع مفتيا للمحكمة • كما صدرت لائحة في عهد الحكمدار عبد اللطيف باشا يسير العمل بمقتضاها في السودان وهي أن من يخدم في دنقلا يبقى ثماني سنوات وفي الخرطوم ست سنوات وفي كل من سنار وفازوغلي وكردفان والتاكا أربع سنوات، ولا يسمح أن يغادر أي موظف مقر خدمته قبل أن يأتي خلفه ، ولا يسمح له بالذهاب الى مصر أثناء تلك المدة الا بشهادة طبية • كما أجريت بعض التعديلات في المديريات، فادمجت فازوغلي في سنار وفصلت دنقلا عن بربر • وجعلت كل منهما مديرية مع اضافة بلاد الجعليين الى بربرة ، ودعمت الادارة الحكومية بعدد من الكتاب والمحاسبين والاطباء والاجزاجية • وزاد الاهتمام بتجميل الخرطوم فانشأ ديوان الحكمدارية وديوان المديرية والمطبعة ومحكمة العموم والاجزخانة وقشلاقات الطبجية وكلها بالطوب الاحمر• كما شهد هذا العهد دخول الرهبان المبشرين السودان • وأنشئت القنصليات بالخرطوم أولها القنصلية النمساوية وبدأ تبشيرها وتعليمها في الانتشار • كما نشط التجار الاوروبيون خاصة في النيل الابيض وشملت هذه التجارة الصمغ والرقيق وغيره والغى عباس منذ عام

١٨٤٩ احتكار تجارة الصمغ بين مصر والسودان، وأبطل العمل في منجم الذهب لعدم جدواه وتم الغاء مصلحة المواشي السودانية ، وقد كانت هذه المواشي تموت في الطريق الى مصر وتموت في مصر نفسها لعدم ملاءمة المناخ .

وفي مجال التعليم فقد وجدت معاهد التعليم الديني في السودان اهتماما وتشجيعا وأصلحت المساجد وعمرت ، وهي اذ ذاك دور العلم والدرس وبيوت العبادة وآداء الفريضة الدينية . وأجري على القائمين بها الرواتب ، وأكرم الفقهاء وشجع منهم من أراد الدراسة بالازهر ومن هؤلاء الشيخ محمد السنوسي والشيخ ابو بكر محمد. كما انشئت أول مدرسة نظامية في السودان في عام ١٨٥٣ تتسع لنحو خمسين ومائتين من التلاميذ . وكانوا يدرسون القرآن الكريم واللغة العربية والتركية وقليلا من الرياضيات . ولادارة هذه المدرسة اختيرت نخبة من الاساتذة كمحمد بيومي واحمد طائل وخليفة محمود وجعل رفاعة رافع الطهطاوي ناظرا عليها . وقد كان رفاعة مديرا لمدرسة الترجمة بالقاهرة. هذه المدرسة لم تبق الا سنوات قليلة ولم تلعب دورا يذكر في تعليم النشء بالسودان .

نال السودان في عهد سعيد نصيبا من اهتمامه ، ففي أول عهده عين علي باشا شركس حكمدارا على السودان ، وأوفد الامير عبدالحليم للتفتيش على ادارته واصلاح شؤونه . ولما زار سعيد باشا ، السودان في عام ١٨٥٧ التقى بالاعيان الذين قدموا له عرائض يشكون فيها من فداحة الضرائب ومظالم الحكام ، فاستمع لهم ، وقيل أنه فكر في اخلاء السودان الا أن أعيان البلاد ومشايخها توسلوا له أن يعدل عن رأيه محتجين بان اخلاء السودان سيؤدي الى تفاقم الحال فيه فعدل عن رأيه،

واعتزم اصلاح حاله ، فألغى الضرائب الجمركية على التجارة بين مصر والسودان . وأمر باعفاء الاهالي من المتأخر من الاموال ، وخفض الضرائب ووضع قاعدة ثابتة لتقدير قيمتها بان جعلها تتبع عدد السواقي في الاطيان لان السواقي تبين مبلغ خصب الارض ودرجة انتاجها . كما قرر عزل الموظفين الاتراك الذي شكا الاهالي سوء معاملتهم . واعتزم تعويد الاهالي حكم أنفسهم بانشاء مجالس محلية مؤلفة من أعضاء يختارون من رؤساء العشائر والعائلات . وأصدر مرسوما بالغاء السخرة [1] وأمر مديري الاقاليم بأن يحسنوا معاملة الاهالي خاصة في جباية الضرائب تقضي بألا يعهد للجنود تحصيلها لما اشتهروا به من القسوة . كذلك أمر بالغاء الغزوات ضد الرقيق . وأيضا انشأ محطات في صحراء كروسكو لتسهيل نقل البريد والمسافرين بين مصر والسودان ، ونظم البريد بين مختلف انحاء السودان لضمان اتصال المديريات بعضها ببعض وبمصر ٦ وأنشأ محطات الجمال (البريد) فأسس قسم من الهجانة يقوم بهذه المهمة . وأنشأ نقطة عسكرية على نهر السوباط لمنع تجارة الرقيق ومطاردة النخاسين . ولما عاد الى مصر عهد الى موجيل بك كبير المهندسين تسهيل سبيل المواصلات بين حلفا والخرطوم فرأى موجيل ضرورة انشاء سكة حديد . ووضع مشروعا لذلك ولكنه لم ينفذ لكثرة ما يقتضيه من النفقات . وقد أبطل منصب الحمكدار وجعل السودان خمس مديريات مستقلة في ادارتها بعضها عن بعض ولكنها ترجع في كل شؤونها الى وزارة الداخلية شأن مديريات مصر . وجعل من الخرطوم وسنار مديرية واحدة وعليها أراكيل بك مديرا حتى يشرف على الاصلاحات التي قررها . كما أنه أصدر

---

(١) السخرة : اجبار الناس على اداء أعمال شاقة بدون أجر .

تعليمات مفصلة لتنظيم المدن والشوارع وتشجيع السكان لعمل الحدائق في منازلهم [1] • وأمر أن لا تفرض أموال على الاطيان التي تغرس بالاشجار المثمرة • ورأى سعيد باشا ان استقلال مديري الاقاليم جعلهم يجنحون الى الاستبداد والظلم ويسيئون معاملة الاهالي فألغى استقلالهم ، وأعاد منصب الحكمدار مرة أخرى ، وجعل موسى باشا حمدي حكمدارا • وكان من أعظم ولاة السودان وله فيه اصلاحات جمة منها انه عين من الاهالي نظار أقسام (مأموري مراكز) ومعاونين • وكون رؤساؤهم مجلسا• وسن قوانين جديدة لتنظيم الضرائب وتسهيل جبايتها • وقد عضد سعيد الرحلات والاكتشافات الجغرافية في انحاء السودان فكثر عدد المكتشفين في عهده ، ولكنه لم يحذ حذو ابيه في ايفاد بعثات مصرية كالبعثة التي أنفذها محمد علي الى السودان بقيادة البكباشي سليم قبودان أحد ضباط البحرية المصرية بل ترك أمر هذه الرحلات للمكتشفين الاجانب •

مع بداية عهد اسماعيل بدأت السدنة الفعلية واشراك السودانيين اشراكا فعليا في الحكم وادارة بلادهم ، حيث عقد اسماعيل عقب توليته اجتماعا في الخرطوم مع المديرين ومشايخهم لاستشارتهم وابلاغهم مايريد أن يختطه من سياسة • وهذه أول مرة يستشار فيها الزعماء السودانيون لتخطيط السياسة • وكانت هذه خطوة الى الامام اضافة لمحاولات سعيد من قبله لاشراك السودانيين • فبعد تعيين المصريين الاصليين مديرين بالاقاليم تم تعيين السودانيين في الوظائف الهامة • وكان منهم مديرون ونظار اقسام ومشايخ قبائل واعضاء في المجالس المحلية التي عمت السودان ، ووصل جماعة منهم أعلى الرتب

---

(١) شبيكة ، مكي : **السودان عبر القرون** ، ص ١٤٤

العسكرية • وازدهرت السودنة فعين الشيخ أحمد ابوسن زعيم الشكرية مديرا للخرطوم وسنار وبقي في وظيفته عشر سنوات كانت فترة هدوء وعدم اضطراب في منطقة نفوذه • وأظهر كفاءة عالية في التوفيق بين جميع المهام التي كان عليه القيام بها • ونجاحه دلل على كفاءة السوداني ومقدرته الادارية • وأجرى موسى حمدي اصلاحات في الجيش حيث أدخل عليه عنصر جديدا من الشبان واستغنى عن خدمات الطاعنين في السن والمعوقين وقوى الجهاز العسكري بتجنيد عدد من شبان قبائل الدينكا والشلك • وقبائل فازوغلي ، وهذا الدعم استلزم مصروفات اضافية كانت على حساب الاهالي ، اذ ازدادت الضرائب واتبعت الوحشية في جمعها • أيضا توسع نطاق السودان ، ففتحت فشودة وضمت سواكن ومصوع نهائيا ، وفتحت أقاليم خط الاستواء وبحر الغزال ، ودارفور وجنوبا حتى بحيرة البرت وبحيرة فكتوريا وشرقا الى البحر الاحمر وخليج عدن وغربا الى حدود وداي • فشودة كانت هامة اقتصاديا وسياسيا وبشأنها نشب الصراع السياسي بين انكلترا وفرنسا سنة ١٨٩٨م •

ضم سواكن ومصوع نهائيا كان له أثره في زيادة المشاكل الادارية ، فبذل اسماعيل محاولات متعددة لتعديل الادارة عله يجد مخرجا للمشاكل المالية ، ففكر في تقسيم السودان الى ثلاث مناطق يحكم كل منها حكمدار مستقل يتعاونون جميعا على المصالح المشتركة • كذلك فكر في جعل الغرب وحدة ادارية قائمة وكذلك الشرق ويقسم السودان الاوسط الى قبلي وبحري • عمرت سواكن ومصوع وذلك أن مدينة مصوع كانت قائمة على جزيرة بالبحر فوصل بينها وبين اليابسة بجسر في عام ١٨٧٢ ، فاتسعت المدينة وبني بها ديوانا للمحافظة وآخر للجمرك ، ومساكن الموظفين وشيدت بها قلعة متينة • وانشئت ترعة

صغيرة لتوصيل المياه العذبة الى سواكن وهذه الترعة تستمد المياه من خزان أقيم لجمع مياه الامطار في سطح جبل قريب من المدينة (١) .

غندكرو عندما فتحها محمد علي كان فتحا مؤقتا بمعنى أنه لم يقترن بوضع حاميات عسكرية دائمة فيها لتعزيز سلطة الحكومة فيها ، واسماعيل هو الذي فكر في ضمها نهائيا ولكنه فعل ذلك على يد أجانب كبيكر وغودون . والاول كان قد حاول من تلقاء نفسه قبل ذلك اكتشاف منابع النيل فاكتشفت بحيرة البرت . وفي ١٨٦٩ صحب بيكر الامير ادوارد ولي عهد انجلترا لحضور حفلات افتتاح قناة السويس . ورغب الامير الى الخديوي اسماعيل ان يعهد الى بيكر بمطاردة الاتجار بالرقيق في السودان نيابة عن الحكومة المصرية . ولم يتردد اسماعيل في قبول الطلب اذ كان يود التودد الى الحكومة البريطانية بجانب أهداف أخرى في فتح البحيرات . فعهد لبيكر بسط النفوذ المصري في جهات غندكرو ، وتنظيمها ، ونشر التجارة بها ، ومطاردة تجارة الرقيق، وانشاء الحاميات الحربية فيها وجعله حاكما على مديرية خط الاستواء لمدة أربع سنوات . وجهزت الحكومة الخديوية معدات الحملة . وأقلت السفن معظم مهماتها من القاهرة للخرطوم بصعوبة اذ لم يكن في استطاعة البواخر اجتياز الشلالات فنقلتها الابل . وبعد الخرطوم سارت الحملة بالسفن . وعند وصوله ملتقى السوباط بالنيل بنى بيكر محطة سماها « التوفيقية » . ورفع العلم المصري على غندكرو ، وأنشأ بها حصونا . ثم بعد انتهاء مدته عاد بيكر الى بلاده عن طريق القاهرة . وبلغت نفقات الحملة ٨٠٠ر٠٠٠ جنيها تحملتها خزانة مصر في وقت اشتد بها الضيق المالي .

---

(١) الرافعي ، عبد الرحمن : **عصر اسماعيل** ، الجزء الأول ،(القاهرة ١٩٣٢) ، ص ١١٤ .

أما غودون فقد أرسله الخديوي للسودان عام ١٨٧٤ ووصل الى فشودة على رأس حملة • وسار حتى وصل بحيرة ألبرت حيث أنشأ ترسانة لتنظيم الملاحة في أعالي النيل وفي البحيرة • وبالفعل تم تركيب أول باخرة استقلها غودون وحاشيته • وكانت هذه أول مرة رأت فيها بحيرة ألبرت السفن التجارية وكان منظر الباخرة موضع دهشة الاهالي• أنشأ غودون عدة نقاط عسكرية في السوباط والرجاف والناصر وغيرها•

كان الرقيق في عهد محمد علي ممنوعا ولكن هذا المنع ظل اسميا وبقيت تجارة الرقيق في السودان قائمة الى عهد سعيد تحت عين الحكومة وسمعها وبتأييد موظفيها • وكان يتولاها تجار أقوياء لهم بيوت تجارية كبيرة تتجر في حاصلات السودان وفي الرقيق وتربح من كل ذلك الارباح الطائلة • وكان تجار الرقيق لما لهم من النفوذ والسطوة والمال يقيمون في مختلف الجهات معاقل حصينة اتخذوها مراكزا للتجارة واصطياد الرقيق • احتلال فشودة في عام ١٨٦٥ سد طريق النيل في وجه تجار الرقيق من بحر الغزال وخط الاستواء فاستمرت محاولات اسماعيل لمحاربتها واتبع أشد الطرق لمقاومتها دون اللجوء الى السياسة مما زاد السخط على الادارة المصرية لان الرقيق كان مصدر ثروة التجار وأعيان البلاد ، كما أن الرقيق يشكلون معظم الايدي العاملة في الزراعة ورعي الماشية الا أن اسماعيل كان قد حاول الاتفاق مع أصحاب الزرائب للتخلي عنها مقابل تعويضات تدفع لهم، كما فرض اسماعيل ضريبة « الويركو » على كل تاجر وعامل يعمل في المراكب التي تصعد على النيل الابيض ، وشددت الوابورات الحكومية الحراسة على النيل • ولكن مصادر الرقيق ظلت خارجة عن سلطة الحكومة • كذلك فرض اسماعيل رقابة على توريد الاسلحة والذخائر التي تستعمل في الغزوات الى السودان • وطلب من قناصل الدول

الاجنبية أن يساعدوه في حملته ضد تجار الرقيق الاوروبيين الذين كانت لهم امتيازات اقتضت أن لا يحاكموا الا بواسطة القناصل أنفسهم ، فطلب منهم أن يرفعوا الحماية عن التجار • هذه الاجراءات نجحت الى حد كبير في تخفيف حدة نشاط تجار الرقيق في مناطق النيل الابيض • وقد قدم اسماعيل بعمله هذا خدمة جليلة للسودانيين •

كان الحال قد ازداد سوءا بتذمر وثورة الجهادية السود بكسلا حين تأخرت رواتبهم فاستدعى ذلك اصلاحات أخرى في الجيش كالغاء الآليات السودانية وابقاء اورطة واحدة منها مكونة من ثمانية بلوكات ثم تعيين جعفر باشا مظهر حكمدارا لاصلاح حال الجندية واتباع القوانين العسكرية • كما أحدث تطورات ادارية وعمرانية في الخرطوم، ونشطت الحركة الفكرية ، وبدأ التوسع جنوبا في بحر الغزال وخط الاستواء ، وأصلح دار صناعة الخرطوم ، وأنشأ بعض المدارس وطلب الى حكومة القاهرة أن تعهد الى رفاعة رافع الطهطاوي اتمام ترجمة كتاب الجغرافية العمومية لملطبرون وارسال الترجمة الكاملة للسودان كي يفيد منها أهل البلاد [1] • وقرب علماء السودان وكرمهم ، وانشأ محاكم عدة للفصل في منازعات الناس ، واهتم بعمران وتجديد الخرطوم فازداد السكان ونمت حركة التجارة فأنشأ ضبطيات قضائية تقوم بمهام البوليس في المدن كالخرطوم ودنقلا وبربر وغيرها ، وأصدر أوامره على أن تكون المباني متفقة مع قوانين الصحة وفن الهندسة ، وترغيبا للناس في العمارة والبناء جعلت الحكومة سياستها أن تبيع الطوب والحجارة والجير والبلاط والخشب للاهالي بالثمن الاساسي

---

(١) شكري ، محمد فؤاد : **الحكم المصري في السودان** ، ص ٧٢

دون ربح ، الا أن السياسة المالية التي اتبعتها أدت الى أن يفر الكثيرون عن أراضيهم وسواقيهم .

اهتم مدير بربر حسين بك خليفة بالزراعة في بربر وأدخل ري الحياض بالترع والسيالات . وأدخل زراعة القطن في مديريته ، وشهدت طوكر وكسلا ومصوع تطورا كبيرا خاصة في زراعة القطن . وعندما عين مديرا على قبلي السودان وسع نشاطه واهتمامه بالزراعة، وعمل على دراسة السودان « جميعه » من حيث الاراضي الصالحة للزراعة وخاصة القطن وقدر ما يمكن زراعته في مديريات السودان المختلفة ما عدا مصوع ما يربو على المليون من الافدنة (١) .

وفي عهد ممتاز باشا خطت السودنة خطوات أوسع عندما اعتزم مدير قبلي السودان تنظيم المجالس المحلية وتعميمها، اذ أراد أن يجعل من مكتب العرضحالات في مديرية التاكا مجلسا خصوصيا يرأسه الشيخ حامد موسى ناظر قسم بني عامر السابقة . كما أجرى تعديلا في مجالس مصوع وكسلا المحلية بحيث أصبح من اختصاصها بحث المنازعات التجارية الى جانب النظر في العرضحالات المقدمة اليها ، وعلى أن يكون أعضاؤها من أعيان البلاد وتجارها ينتخبهم الاهالي والاعيان والعمد . وعين قاسم أفندي من « أهالي السودان » وكيلا لمجلس استئناف لرؤية قضايا السودان (٢) . وأيضا تكونت أربع بلوكات من العساكر السودانية لاستخدامها في مأمورية في النيل الابيض ، ورقي ضباطها الثلاثة عشر الى مختلف الرتب العسكرية . وفي عام ١٨٧٢ قرر المجلس

---

(١) شبيكة : **السودان عبر القرون** ، ص ١٥٦

(٢) شكري ، محمد فؤاد : **الحكم المصري في السودان** ص ٧٩

الخصوصي في القاهرة انشاء مجلس سواكن . ثم صارت قضايا مجلس كسلا تستأنف أمام مجلس سواكن وقضايا سواكن أمام مجلس مصوع وقضايا مصوع أمام مجلس كسلا . ويقول شكري «ان سياسة السودنة واشراك العناصر الوطنية في الحكم والادارة قد جذبت زعماء السودانيين ورؤساءهم فاطمأنوا الى حكومة المصريين وعمدوا الى الانضواء تحت رايتها وآية ذلك أن الزبير رحمة الجميعابي على الرغم من ذلك الملك العتيد الذي شيده في بحر الغزال ما لبث حتى قدم فتوحه هدية لحكومة الخرطوم بمجرد أن تحرجت علاقاته مع عربان الرزيقات المنتشرين على حدود مملكته الشمالية كما تحرجت مع ابراهيم سلطان دارفور المنحاز للعربان ضده [1] . وقوله أن السودنة جذبت السودانيين للحكم المصري اذ اطمأنوا له صحيح الى حد بعيد ، ولكني أختلف معه في ايراده الزبير باشا كمثال اذ أن الزبير باشا كان قائدا ماهرا وسياسيا كبيرا فقد قدر عواقب انتصاراته على الحكومة ثم تمكنه من فتح دارفور وغيرها ، وعلم مقدار الخطأ الذي سيقع فيه ان هو واصل سياسة معاداة الحكومة وهو تاجر كبير يخاف ويخشى تدهور تجارته سر ثرائه وبالتالي قوته فرأى أن لا بد من مهادنة الحكومة ليأمن جانبها فاتبع ما رأى وكانت مكاسبه أكثر وأوسع . كما أن حديثه يناقض نفسه اذ نرى من حديثه ان الزبير قدم فتوحه للحكومة لان علاقاته قد تحرجت مع الرزيقات والفور وليست كما ذكر من أن سياسة السودنة قد طمأنته للحكومة ففكر في الانضواء تحت لوائها .

شهدت البلاد على عهد حكمدارية موسى باشا حمدي عام ١٨٧٣

---

(١) شكري ، محمد فؤاد : **الحكم المصري في السودان** ، ص ٨٦

نهضة تعليمية فأنشأت خمس مدارس لنشر المعارف والعلـــوم بأمر من الخديوي اسماعيل في عام ١٨٦٣ ــ ١٨٦٥ • وفتحت مدرسة الخرطوم الاولية في عام ١٨٦٧ • وفي العام التالي فتحت مدارس مماثلة في بربر، دنقلا ــ الابيض وكسلا على غرار المدارس التي كانت بمصر آنـذاك على اساس أن تسع كل مدرسة زهاء المائة تلميذ • كما فتحت مدرسـة في مديرية النيل الابيض لتعليم أبناء الزنوج الـذين فك أسرهم من تجار الرقيق ليلتحقوا بعد اكمال المرحلة الدراسية بالخدمة العسكرية• وقد وصل التلاميذ في هذه المدارس بعد ثلاث سنوات مستوى لا بأس به في القراءة والكتابة والحساب أهلهم للالتحاق بدواويـن الحكومة كمحاسبين وكتبة وموظفين تلغراف وعمال بترسانة الخرطوم وبهم نهض الادب والثقافة •

كـمـا رأى ممتاز تأمينـا لسياستـه القطنيـة أن يبعـث بعدد من الشبان السودانيين لمصر لتعلم الصناعات الميكانيكيـة حتى يديروا ماكينات الحلج وكبس الاقطان في بلادهم • كما اقترح ارسـال بعض خريجي هذه المدارس الحكومية الى مصر لتعلم الطب والصيدلة الا ان ذلك لم يتم لعدم توفر الكفاءة المطلوبة • كان جعفر باشا مظهـر قد أعد مشروعا لتعليم عشرين من السودانيين الطب والصيدلة في مدرسة الخرطوم الابتدائية تحت اشراف طبيب مستشفى الخرطوم وبمـا أن قيام استاذ واحد بتعليم هذا العدد الكبير تعليما مثمرا كان أمرا متعذرا لصعوبة علوم الطب والصيدلة ولعدم وجود الوسائل اللازمة لتدريسها على خير وجه رأى اسماعيل أن يبعث الى السودان بالعدد الكـافي من الاطباء «المهرة» والصيادلة المدربين • وكانت مهمة هؤلاء تطعيم الاهالي ضد الجدري والامراض الوبائية ، والاشراف على المستشفيـات التي انشئت في دنقلا والتاكا وبربر وسنار والخرطوم وبـذلك تحسنت

الخدمات الصحية لدى السودانيين . أما الخلاوي والمساجد التي تدرس العلوم الدينية فقد بذلت لها الاعانات والاحسانات وخصصت للعلماء مواهي شهرية بلغت الاربعمائة قرش شهريا وكذلك راتب ذرة للطلبة . وربطت كل المدن الهامة بخطوط التلغراف مع بعضها ، وطلبت الاعمدة من غابات السودان وعندما ثبت عدم صلاحيتها في بعض المناطق التي تكثر فيها «الارضة» استعيض عنها بأعمدةحديثة طلبت من انجلترا (١). وفي عام ١٢٨٦ هـ اتصلت الخرطوم بالقاهرة وتم الاتصال بدارفور عند نقطة الفوجة وكان لهذا الاتصال بدارفور أثره في فتوحاتها اذ أصبحت الاتصالات سهلة . وبدأ العمل في السكة الحديد بين السودان ومصر .

وفي ظل حكمدارية محمد رؤوف باشا كان الحكمدار نفسه مشرفا على تفقد الاحوال وحل مشاكل الحدود خاصة مع الحبشة وثورات امراء الفور في دارفور . وظل يغدق الرتب والنياشين على كبار السودانيين ومشايخ القبائل ، وعين بعضهم في مناصب ادارية كبرى في الاقاليم ظنا منه أن العنصر التركي الذي بأيديه السلطة هو أساس الفساد . ولكنه سرعان ما تخلى عن السودانيين وأحل الاوروبيين محلهم خاصة في المديريات الجنوبية وفي دارفور . كما عمل على الغاء الرقيق ووضع مشروعا لذلك اعترفت فيه الحكومة بتمليك الرقيقالحالي لمالكيه ، ويستمر الملك اثنتي عشرة سنة يصبح بعدها المملوك حرا ، وأيضا يكون حرا اذا ثبت سوء معاملة المالك له . هذا المشروع أحدث ضجة في أوساط الناس لان الرقيق كان عنصرا أساسيا في المجتمع في ذلك الحين .

---

(١) شبيكة ، مكي : **السودان عبر القرون** ، ص ١٥٩

هكذا رأينا أنه منذ عام ١٨٢١ بدأ في السودان نشاط عظيم وواسع ساعد في تغيير وجه الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية والسياسية والبدائية فيه ونقلها الى مستوى أرقى ومتمدن • كما وأدخلت نظم ادارية وقضائية ومالية في السودان لأول مرة ، فتركزت الادارة السودانية، وانتشرت الطمأنينة والاستقرار • وكان هدف محمد علي ومن خلفه الاستفادة من البلاد ثم افادة أهلها • وأراد محمد علي ذلك بالرفق واللين حتى أنه عاتب ابنه اسماعيل لأخذه الشايقية بالشدة منذ البداية [١] • وانتشر التعليم في البلاد وانشأت المدارس كمدرسة عباس الاولى في الخرطوم ، وكانت النواة الاولى للتعليم المدني في السودان • وترقى الجنود السودانيين في الوظائف • واتبع الحكم الذاتي أو اللامركزية في أكثر من مرة ، ونظام اللامركزية هذا أعطى بعض السودانيين الفرصة للمشاركة في الحكم فأظهروا الكفاءة ونالوا الخبرة • وتوسعت البلاد خاصة في عهد اسماعيل • عمرت المناطق المفتوحة • وعمل السودانيون في المناصب الكبيرة • كما أن المركزية في البلاد وسريان سلطاتها على كل الاقاليم أعطى السودان وحدته بعد أن كان امارات ومشيخات لكل حكمها الذاتي وقليلا ما خصصت لسلطة مركزية • ورغم التنقل بين اللامركزية والمركزية فقد كانت البلاد تدار وتحكم من الخرطوم بواسطة الحكمدار وينوب عنه مديرون في الاقاليم ، والمدير يشرف على نظار الاقسام وهؤلاء بدورهم على مشايخ الاخطاط • أما القبائل الرحل فلها شيخها يتصل بالمديرية رأسا • أما الضرائب فقد كانت دائما سببا للثورات والمشاكل رغم المحاولات التي بذلت لتحقيقها وتسهيل طرق جمعها • وازداد حجم التجارة الخارجية •

---

(١) شبيكة ، مكي : **السودان عبر القرون** ، ص ٩٠

وصار استعمال النقود على نطاق واسع ضرورة لا محيد عنها لـــذا وجدت مجموعة من قطع النقود الاوروبية ذهبية وفضيـــة من ذوات الفئات العالية متداولة بين الايدي في المدن الكبرى • أمـا في الجنوب خاصة جنوب كاكا في أعالي النيل فانه حتى عام ١٨٦١ لم تكــن هناك عملة قابلة للتداول• وكان القضاء في الاموال الشخصية يمارس بمقتضى الشريعة الاسلامية ،ويقوم عليه قضاة ومفتون من عواصـم المديريات ، والقانون الهمايوني أساس المحاكمات في القضايا المدنية والجنائية• وفي كل مدينة مجلس محلي من التجار والاعيان للنظر في القضايا الصغيـرة واعضاء المجلس لا يعطون أجرا الا بعض رؤساء المجــالس في المدن الكبرى ، وشملت العضوية الضباط والموظفين • أما القضايـا الكبرى فيبت فيها المديرون أنفسهم وبعضها يحال الى القـــاهرة • وكونت في المدن ضبطيات قضائية تباشر التحقيق في الجرائم وتقديمها للمحاكمة ، والجيش ضم جنودا مصريين وسودانيين • العنصر السوداني يتزايد في السنين الاخيرة من العهد حتى رأينا أن معظم الحاميات كان يقوم علـى حراستها جنود سودانيون قبل اشتعال الثورة المهدية أما التجـــارة مع الخارج فقد ظلت تتبع طرق القوافل التقليدية الى مصـــر أو الى ميناء سواكن ، وتصدر البلاد العاج ، ريش النعام والتمر هندي ، السنامكي، الجلود ، النيلة ، المسك ، قرون الخرتيت ، الزيوت ، السمسم ، العسل، الذرة والملح وغيرها • وتستورد المنسوجات القطنية والالات الحديثـة القاطعة ، الروائح والعطور وغيرها • وظلت مدارس العلـم والقرآن تؤدي رسالتها كما كانت ، وظل مشايخ الصوفيـة يرشـــدون الناس ويأخذون عليهم النعرة القبلية التي كانت ظاهرة المجتمـع بالرغم من أن العهد جعل الادارة مركزية ممعنة فيها • وقد سودت حملات الدفتردار الانتقامية والطرق الوحشية لجمع الضرائب ، وجه هذا العهد ، وشاعت

حوادث الرشوة والاختلاس والفساد السياسي والاداري حيث اشترك الحكمداريون والنظار في اصطياد الرقيق والاتجار به سواء كان ذلك لحسابهم الخاص أو لسد نفقات الحكومة والادارة في السودان تدفع مرتبات بعض الجند . ولكن محمد علي لم تكن له يد مباشرة في هذا فهو كثيرا ما كان ينصح من يعينهم بل يأمرهم بالعمل لخير السودان ورفاهية أهله وأن « الجيش والمدفعية التي تتقدم في بلادهم ولا تحمل الى قراهم سوى السلام والسكينة [1]» .

الملاحظ أن معظم الاداريين المصريين في السودان أظهروا عدم رغبة وكفاءة في خلق حكومة من عدم لانهم كانوا مدفوعين للحكم دفعا ولانهم كانوا مرغمين فتعددت أخطاؤهم . وقد كانت الادارة في يد العسكريين فلم تكن لهؤلاء النظرة البعيدة المطلوبة في آداء المهام المختلفة .

في رأيي أن محمد علي لم يفتح السودان اطلاقا لتحديث السودان لذا عملية تحديث السودان كانت تلقائية أو نتيجة لجهود محمد علي التي بذلها للاستفادة من خيرات السودان. فهو اتبع من الوسائل والاجراءات ما يكفل له تحقيق أغراضه ، ونتيجة لما بذله في ذلك انتقل السودان الى درجة أرقى ومستوى أفضل في مختلف الجوانب . وعموما فقد بدأ تحديث السودان في عام ١٨٢١م بدخول محمد علي واجراءاته واصلاحاته للسودان وقد سارت بداية التحديث في خطوات تدريجية معقولة بدأت بالفتح ومحاولة تثبيت دعائمه ، ثم كانت فترة العمران

---

(١) شكري ، محمد فؤاد : مجلة كلية الآداب العدد الثامن **صفحة من تاريخ السودان الحديث** ، ص ٤٠ .

والاصلاحات والتعديلات الادارية وبداية السودنة ، وأخيرا مواصلة العمران والتوسع والفتح .

ورغم أن بداية التحديث كانت على يد أجنبية الا أن السودان بدأ يتخذ وضعه الجغرافي الحالي منذ عام ١٨٢١ . وتعرف السودان على العالم الخارجي الحديث أو عرف هذا السودان وانفتح على الغرب وبدأ نظام اداري «حديث» يختلف عن الذي كان سائدا قبل ذلك فخففت الفوارق بين الممالك التي كانت موجودة ، وقلت العصبية بفضل الادارة الموحدة. وأدخل السلاح الناري والمراكب النيلية وبدأت نهضة اجتماعية وثقافية اقتصادية في البلاد .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المراجع

(١) كتب باللغة العربية :

١ ـ زاهر رياض : **السودان المعاصر منذ الفتح المصري حتى الاستقلال ١٨٢١ ـ ١٩٥٣** (القاهرة ، ١٩٦٦)

(٢) حسن احمد ابراهيم : **محمد علي في السودان** (الخرطوم بلا تاريخ)

(٣) محمد فؤاد شكري :

(١) **الحكم المصري في السودان ١٨٢٠ ـ ١٨٨٥** (القاهرة ١٩٤٧)

(٢) مجلة كلية الاداب العدد الثامن ، ١٩٤٦ **صفحة من تاريخ السودان الحديث** ، رحلة محمد علي باشا الى فازوغلي ١٨٣٨ ـ ١٨٣٩

(٣) **مصر والسودان** (القاهرة ١٩٥٨)

(٤) مكي شبيكة :

(١) **السودان عبر القرون** (بيروت ١٩٦٥)

(٢) **مختصر تاريخ السودان الحديث** (القاهرة ١٩٦٣)

(٥) نعوم شقير : **جغرافية وتاريخ السودان** (بيروت ١٩٦٧)

(٦) عبد الرحمن الرافعي : **عصر اسماعيل** ، الجزء الأول (القاهرة ، ١٩٣٢)

البيروني ومنهجه في البحث التاريخي

الدكتور سيد رضوان علي
أستاذ التاريخ الاسلامي والحضارة
الاسلامية في كلية الآداب
جامعة قاريونس - بنغازي

من المعلوم أن أبا الريحان البيروني كان أحد عباقرة العلم في كثير من العلوم البحتة والتطبيقية كالفلك والرياضيات والجغرافيا والطبيعة وغيرها ، ولكن هل كان البيروني مؤرخا وهل له منهج تاريخي ؟ حتى نستفيد منه في اعادة كتابة تاريخ الامة العربية ، هذا ما سأحاول أن أجيب عليه في هذا البحث المتواضع .

الحقيقة أن شهرته كعالم فلكي رياضي طبيعي طغت على شهرته كمؤرخ ، ومن ثم خلت الكتب التي تتحدث عن المؤرخين عن ذكره قديما وحديثا (١) ولم يدرك أهميته كمؤرخ الا القلائل من الناس ،

---

(١) انظر مثلا الضوء اللامع للسخاوي ، ودراسات عن المؤرخين العرب لمارجوليث ترجمة د . حسين نصار ، ومصادر التاريخ الاسلامي ومناهج البحث فيه للسيدة اسماعيل كاشف ، ومنهج البحث التاريخي للدكتور حسن عثمان .

ومرجع ذلك في اعتقادي أمران اثنان : الفكرة الشائعة عن التاريخ بأنه أخبار الدول والملوك والفتوح أو التاريخ السياسي بتعبير آخر الأمر الثاني عدم وصول بعض كتبه التاريخية الينا وعدم اشتهار ما وصل منها وطبع في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر الا لدى الخاصة مثل كتابيه العظيمين : « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ، « تحقيق ما للهند من مقولة » ، ثم وصفهما من قبل بعض الباحثين وصفا ضيقا أي في نطاق التقاويم وذكر الاعياد والعقائد والعلوم .

ولكن اذا سلمنا بأن مدلول التاريخ ليس مجرد تاريخ سياسي أو أخبار السلاطين والملوك وانجازاتهم بل هو تتبع لحياة الشعوب في نشاطاتها المختلفة الفكرية والعملية من عادات وتقاليد ، وثقافة وعلم ، وديانة وشريعة فان المرء الذي ينظر في هذين الكتابين المذكورين لا يجد مناصا من القول بان البيروني كان مؤرخا ، بل مؤرخا ناقدا نافذ البصيرة ، نهج منهجا جديدا في البحث التاريخي في عصره ، بل بعد عصره الى ظهور ابن خلدون .

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

هذا وقد ألف البيروني كتبا تاريخية أخرى بالمعنى المتعارف المشهور منها مثل « أخبار القرامطة والمبيضة [١] » و « المسامرة في أخبار خوارزم [٢] » واللذان لم يعثر عليهما حتى الان حسب معرفتي ، كما ألف كتابا بعنوان « تنقيح التواريخ » والذي ضاع فيما ضاع من كتبه الكثيرة أصولا ومسودات حسب تصريحه في فهرست كتبه الذي ضمه سخاو الى مقدمته للاثار الباقية وذلك بسبب تنقلاته الكثيرة ،

---

(١) البيروني ، الاثار الباقية ص ٢١١ ، ٢١٣ .

(٢) ذكره ياقوت في معجم الادباء ٣١١/٦ ، واقتبس منه ابو الفضل البيهقي في تاريخه عن الدولة الغزنوية المعروف بتاريخ البيهقي .

والتقلبات السياسية التي عانى منها البيروني • ولعل هذا الاخير كان من أهم كتبه في موضوع النقد التاريخي كما يظهر من اسمه •

ولعل المستشرق فرانز روزنتال كان ، بعد سخاو أول من استأنس ببعض آرائه في كتابه علم التاريخ عند المسلمين ، كما كان الدكتور علي الشابي أول باحث عربي كتب عن المنهج التاريخي عنـــد البيروني في أطروحته للدكتوراه بعنوان « الادب الفارسي في العهد الغزنوي (١) » •

اذن فالبيروني بجانب كونه عالما فذا في العلوم البحتة والتطبيقية مؤرخ وصاحب منهج في البحث التاريخي كما سنتبينه عما قليل •

عصره وحياته الشخصية :

عاش البيروني العقود الثلاثة الأخيـــرة من القرن الرابع الهجري والعقود الأربعة الاولى من القرن الخامس الهجري ، وهو عصر التفكك السياسي واضمحلال القوة السياسية المركزية للخلافة العباسية في بغداد، ولكنه بالرغم من ذلك كانت فترة ازدهار علمي حيث أن الـدويلات التي قامت في أطراف الخلافة العباسية شرقا وغربا ظلت تحمل تلـك الرسالة الحضارية العلمية التي كانت من مميزات الخلافة العباسية منذ نشأتها • بل شهدت هذه الفترة ظهور قوة سياسية جديدة ، في منطقة جديدة في الشرق أي الدولة الغزنوية وفتوحها في داخل الهند • واحتك البيروني بأمراء بعض هذه الدول الصغيرة والكبيرة وشاهد التقلبات السياسية ، وتعرض لحياة التشرد وعدم الاستقرار احيانا ، ولكنه ظل يؤدي رسالته العلمية بهدوء وثبات ، وتفان في العلم غريب •

---

(١) طبع في تونس عام ١٩٦٥ م •

وشهدت هذه الفترة ظهور ثلاثة من عباقرة العلم بالنسبة لتاريخ العلم العالمي ابن سينا وابن الهيثم والبيروني ، ولكن سمي هذا العصر بعصر البيروني من قبل مؤرخ العلوم الشهير جورج سارتون [١] ، لانه أكبر شخصية عاشت في ذلك الوقت .

ولد ابو الريحان محمد بن أحمد البيروني في ٣٦٢هـ (٩٧٣م) خارج مدينة خوارزم (المعروفة الآن بخيوة) في ضاحية من ضواحيها ، ومن ثم اشتهر بالبيروني وبيرون معناه بالفارسية (خارج) . ولا صحة لما جاء في بعض كتب كطبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة أن بيرون هذه مدينة في السند . ويقرر البحث أنها قرية كاث في اقليم خوارزم . وتقديرا لمكانة البيروني العلمية أطلقت حكومة جمهورية أزبكستان السوفياتية اسم مدينة البيروني على تلك القرية [٢] .

وتوفي البيروني في مدينة غزنة [٣] في رجب ٤٤٠ هـ [٤] بعد حياة دامت سبعا وسبعين سنة . وتنقسم حياة البيروني الى فترتين رئيسيتين : الفترة الاولى من ولادته حتى ٤٠٨ هـ في اقليم خوارزم وجرجان ، والفترة الثانية من انتقاله الى غزنة في صحبة السلطان محمود الغزنوي في ٤٠٨ الى حين وفاته بها . وهكذا فنشأة

---

(١) المدخل الى تاريخ العلم بالانجليزية .

(٢) دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، تأليف حكمت نجيب عبد الرحمن (الموصل ١٩٧٧) ص ٢٢٠

(٣) وأخطأ قدري طوقان في ذكر وفاته بمدينة خوارزم في كتابه العلوم عند العرب في ترجمة البيروني ص ١٧٢ .

(٤) حسب رواية تلميذه وخادمه الخاص ابي الفضل السرخسي صاحب كتاب جوامع التاريخ ، سخاو في مقدمة الاثار .

البيروني كانت في خوارزم وليست في غزنة كما ذكر فيليب حتى في كتابه تاريخ العرب المطول (ص ٤٦٠) ٠ ولا يعرف عن نشأته واساتذته الا قليلا جدا ، ويتأكد من بعض أبياته الشعرية أنه كان من أسرة عادية جدا ، ولعله حرم من والديه في فترة مبكرة من حياته ، وكان مائلا الى العلم ، محبا للتعلم منذ الصغر كما حدث بنفسه وتعلم اللغة اليونانية من عالم يوناني جاء الى بلاده بطريقة مباشرة أي بالسؤال عن أسماء النباتات والاشياء التي كان يحضرها له [1] ، كما تعلم العلوم الكثيرة من أبي نصر منصور بن علي بن عراق واعترف بذلك في احدى قصائده:

وآل عراق قد غذوني بدرهم ومنصور منهم قد تولى غراسيا [2]

وعرف من أساتذته أيضا عبد الصمد بن عبد الصمد الأول حسب كلام ياقوت في معجم الأدباء (٦/٣١١) ٠

وكان يتمتع بذكاء فطري خارق وموهبة عظيمة في الفهم فنبغ مبكرا ، وبدأ يقوم بأعمال الرصد في موطنه الاول وعمره ١٨ سنة ثم في جرجانية (اوركانج حاليا) ونتيجة لهذا النبوغ المبكر حرص أمراء تلك المنطقة دعوتهم اليه فعاش في كنف امارة آل عراق أولا ثم بعد سقوطها انتقل الى امارة آل مأمون بخوارزم أيضا ، حيث ظل يتابع أعماله وتجاربه في الرصد ، وفي حوالى ٣٨٩ انتقل الى مدينة جرجان بدعوة من أميرها العالم الاديب شمس المعالي قابوس بن وشمكير حيث ألف أول كتبه « الآثار الباقية » في ٣٩٠ هـ باسمه ، ولكنه بسبب شراسة أخلاق الامير قابوس وخلافه معه عاد في ٤٠٠هـ الى خوارزم ٠ وبعد

---

(١) علي احمد الشحات : ابو الريحان البيروني ص ٧٣ ٠

(٢) ياقوت ، معجم الأدباء ، ٣١٣/٦ ٠

فترة من حياة الشترد ، حيث أكرمه أمير آل مأمون أبو العباس المأمون ابن المأمون غاية اكرام وجعله مستشارا له ، ثم بعد سقوط هذه الامارة أثر هجوم السلطان محمود الغزنوي وحرصه على جمع العلماء في بلاطه انتقل الى غزنة في ٤٠٨هـ .

وفي هذه الفترة الثانية ذهب البيروني عدة مرات الى الهند في صحبة السلطان محمود وبقي بها طويلا [1] وجال في كثير من بقاعها البنجاب والسند وكشمير وحتى نيبال ، حيث تعلم اللغة السنسكريتية العلمية وعددا من اللغات واللهجات المحلية ودرس علوم الهند ومجتمعها، وعلم الهنود الفلسفة اليونانية وعلوم اليونان الاخرى وكان من نتاج رحلاته الكتاب المعروف « تحقيق ما للهند من مقولة » .

وبعد وفاة السلطان محمود استقر في ٤٢١هـ في غزنة يؤلف ويقوم بتجاربه في الرصد وصنع بعض الالات العلمية ، ومنها آلة لمعرفة القبلة وأخرى لمعرفة ضغط الماء والهواء ، وذلك في عهد السلطان مسعود بن محمود الغزنوي وأخيه مودود ، وألف باسمهما البيروني بعض كتبه كالقانون المسعودي في الفلك ، والجماهر في معرفة الجواهر باسم السلطان مودود . .

وتحدث البيروني عن اتصالاته بالامراء المذكورين في قصيدة ذكرها ياقوت قطعة منها في الارشاد ، وطبيعة علاقاتهم معه [2] ، وأولها:

مضى أكثر الايام في ظل نعمة   على رتب فيها علوت الكراسيا

---

(١) ولكن ليس اربعين سنة كما تذكر كثير من الكتب الحديثة والقديمة . وهو خطأ ظاهر من ناحية التاريخ .

(٢) الجزء السادس ، ص ٣١٢ .

وقبل الانتقال الى الكلام عن مكانته العلمية ومنهجه في البحث التاريخي ينبغي الوقوف عند نقطتين من سيرة البيروني ، وهما معتقداته الدينية ونظرته القومية حيث أن بعض العلماء من الغرب والشرق وقفوا موقفا معاديا من البيروني حولهما ، وتجنوا على الحقيقة ، واتهموا البيروني جزافا اتهامات باطلة ، ونخص بالذكر منهما المستشرق الروسي المشهور بارثولد في كتابه تاريخ الحضارة الاسلامية حيث اتهم البيروني بعصبيته للقومية الايرانية وميله الى المانوية ، واتباعه المذهب الشيعي ، وتابعه في ذلك فيليب حتى في تاريخه في القول بتشيعه ، وزاد أنه كان يميل الى اللاأدرية وافتتن بفلسفة الهنود أو الهندوس على الأصح .

ويستغرب المرء من هذه الاتهامات الباطلة ازاء أقواله المبثوثة في مختلف كتبه التي تدل على تدينه الصحيح واتباعه للمذهب السني بل وانتقاده لمذهب ماني الايراني ، وفلسفة الهند ، وحبه للثقافة العربية ، وغلوه في هذا الحب الى حد اسراف . ومرجع ذلك كما يبدو عدم امعان النظر في مؤلفاته أو محاولة خلق الانشقاق بين الصفوف الاسلامية وبذر بذور الكراهية والبغضاء بين المسلمين وهو خط دأب على السير فيه كثير من المستشرقين وأتباعهم .

ونرد هذه الاتهامات من كلام البيروني نفسه . يقول في كتاب « الصيدنة في الطب » بصراحة لاغموض فيها : « ديننا والدولة العربية توأمان يرفرف على أحدهما القوة الالهية وعلى الآخر اليد السماوية . وكم احتشد طوائف من التوابع وخاصة الجيل والديلم في الباس الدولة جلابيب العجمة ، فلم تنفق لهم في المراد سوق ، ومادام الاذان يقرع آذانهم كل يوم خمسا ، وتقام الصلوات بالقرآن العربي المبين خلف

الأئمة صفا صفا ، ويخطب لهم في الجوامع بالاصـــلاح ، كانوا لليدين والفم وحبل الاسلام غير منفصم ، وحصنه غير منثلم [1] » .

فهل بعد هذا يصح اتهامه بالمانوية والعصبية الايرانية ؟

ثم هو القائل فى كلام منطقي عند المقارنة بين اللغة العربية والفارسية ثم في اندفاع وتحمس بالغ للعربية : « فانا فى كل واحدة دخيل ، ولها متكلف ، والهجو بالعربية أحب الي من المدح بالفارسيـــة ، وسيعرف مصداق قولى من تأمل كتاب علم قد نقل الى الفارس قد ذهب رونقه ، وكسف باله ، واسود وجهه ، وزال الانتفاع به اذ لاتصلح هذه اللغة الا للاخبار الكسروية والاسماء الليلية [2] » .

صحيح انه انتقد قتبة بن مسلم فى كتابه « الاثار الباقية » لتدميره مدينة خوارزم واحراق الكتب فيها ، ولكنه في هذا الانتقاد كان مدفوعا بحبه للعمران وللعلم ايا كان واينما كان . ولعل بارتولد انخدع ببحث البيروني عن كتاب ماني « سفر الاسرار » اكثر من اربعين عاما ، ولكن كان ذلك تلبية لرغبته الجامحة فى الاطلاع على تراث الامم الاجنبية من الفرس واليهود واليونان والهنود حسب منهجه فى دراساته المقارنة فى التاريخ والاديان والافكار كأي باحث حق نزيه لكي يصل من تلك المقارنة الى درجة الايقان الكامل فى معتقداته وافكاره عن اقتناع عقلى منطقى ، الامر الذى يتجلى بوضوح فى كتابيه الجليلين « الاثار الباقية » و « كتاب الهند » فى مختلف فصولهما .

---

(۱) نقله علي أحمد الشحات في كتابه ابو ريحان البيروني ص ٧٤ .
(۲) كراتشوفسكي ، الأدب الجغرافي ص ٢٥١ ، وانظر ايضا على الشابي المصدر المذكور ص ٣٣٨ .

ولقد حكم بعد حصوله على كتاب « سفر الاسرار » لما في نتيجة بحثه المتواصل له وقراءته اياه قائلا ووجدت الله صادقـــا في قوله : « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » (الآية الكريمة) ، « ثـم اختصرت ما في تلك الاسرار من الهذيان البحث والهجر المحض ليطالعها مأووف بأفتى ، وسيجعل الشفاء منها كفعلى [1] » •

وتبرأ من ابي بكر الرازي المغرم بكتب ماني والمنكر للنبوات رغم احترامه لعلمه [2] • وانتقده انتقادا مرا •

هذا يلاحظ من قرأ كتب البيروني انه يكثر من ايراد الآيات القرآنية فيها حتى في الكتب التى لا يتصور المرء فيها وجود مثل هذه الايات ككتاب الجماهر فى معرفة الجواهر والاثار الباقية • ولا يتسع المجال لضرب الامثلة هنا •

وقال فى الجماهر « وفى اخبار الفرس التى لا تخلو من زيادتهم تفخم أمر الاكاسرة وتفضيل ملكهم والمملكة التي لهم » ، ولا يقول هذا الكلام من يتعصب لقوميته ثم هو الذى الف بحثا بعنوان « رأي العرب فى مراتب العدد افضل من رأي الهند » فهل يقال عن مثل هذا انه افتتن بالعلوم الهندية •

اما بالنسبة لاتهامه بالتشيع فيبطل هذا الاتهام من اقوال البيرونى فـــى « الاثار الباقية » حيث رفض رد الشمس لسيدنا علي حتى يصلى

---

(١) مقدمة الاثار الباقية ، رسالة في فهرست كتب محمد بن زكريا الرازي صفحة ٣ بالرقم اللاتيني •

(٢) نفس المصدر في نفس الصفحة •

صلاة العصر بقوله : « ومثل ذلك في ردها يحكيه بُله الشيعة في أمير المؤمنين علي بن ابي طالب [1] وكذلك أنكر على الشيعة في موضع آخر من هذا الكتاب دعواهم في معرفة الهلال بطريقة حسابية خاصة سرية قائلا : « وعلى ما ذكرنا عملت الفرقة المدعية لبواطن الامور المنتحلة لتشيع الال زعمت انه من اسرار النبوة » . ومثل هذا الكلام لا يصدر عن رجل شيعي . قال هذا الكلام وهو في بلاط قابوس بن وبوشمكير في جرجان ، واما بعد انتقاله الى غزنة الى بلاط السلطان محمود الغزنوي المتعصب لاهل السنة فلا يتصور ان يصحبه في مجالسه وأسفاره رجل شيعي .

كان البيروني بعيدا كل البعد عن التعصب المذهبي ، وذكر قصة طريفة في كتابه الجماهر في معرفة الجواهر عند الكلام على نوعين من الحجر : الخماهن والكرك ، احداهما ابيض اللون والآخر اسود فقال : « ان الشيعة كانت تتختم بأبيضها والنواصب بابيضها مكان العقيدة والمذهب ، وكنت اجمع بين هذين الفصين في زوج خاتم كيادا للفريقين معا [2] » .

كما قرر الاستاذ المحقق سالم كرنكو الالماني انه كان من أهل السنة [3] .

مكانته العلمية ومنهجه في البحث التاريخي :

أطلق العلماء القدماء لقب « الاستاذ الرئيس » على البيروني كما

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٤٨ .
(٢) الجماهر ص ٢١٥ .
(٣) الجماهر ، خاتمة الطبع ص ٣ .

عرفه الاوربيون (Maitre Aliboron) وهـي ترجمة لنفس اللقب • ويجمع المختصون في تاريخ العلوم قديما وحديثا على نبوغه وعبقريته في عدد من العلوم الفلكية والرياضية والطبيعيـة والجغرافيا وغيرها ، وسبق الكلام أن جورج سارتون مؤرخ العلم الشهير سمى العصر الذي عاش فيه عصر البيروني رغم وجود علماء أفذاذ آخرين في نفس العصر، أما سخاو ناشر كتبه الاول في القرن التاسع عشر فقد اعتبره أعظم عقلية عرفها التاريخ وظاهرة علمية في الحضارة الاسلامية ولا مجـال لسرد آرائهم هنا ، والقارىء يجد هذه الآراء مبثوثة في الكتـب الكثيرة عن تاريخ العلوم في اللغة العربية واللغات الاجنبية ، مثل كتـب قـدري طوقان وكتاب الدوميلي ، وعلم الفلك عند المسلمـين لنللينو وتاريخ الادب الجغرافي العربي لكراتشوفسكي وتاريخ الرياضيات لكاجوري وغيرها ، وجمع الكثير من هذه الآراء الاستاذ علي أحمـد الشحات في كتابه الحديث عن حياة البيروني [1] ، وهو كتاب قيم فيما يتصل بشرح بعض نظرياته العلمية ووصف مؤلفاته المطبوعة ، وألف البيـروني في عشرة علوم حسب كلامه في فهرس كتبه ، والقليل يعرفون أنه ألف حتى في الشعر العربي مثل كتاب مختار شعر أبي تمام ، وفي أدب التسليـة من الروايات الشعبية والتاريخية أو ما يسميه هو « ما يجـري مجـرى الأحماض » •

وهكذا كان البيروني غزير الانتاج متنوعه، وظل يؤلف طوال نصف قرن من ٣٩٠ هـ الى حين وفاته • وشاء حظ التاريخ أن يكـون أول كتبه من ناحية التأليف والطبع والترجمة الى الانكليزيـة كتابا في

---

(١) البيروني حياته ومؤلفاته ، ص ٢٢٨ ـ ٢٣١ •

موضوع تاريخي أقصد « الاثار الباقية عن القرون الخالية » وهو أحد مؤلفاته الثلاثة الهامة . الآخران « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » المعروف أيضا بكتاب الهند او تاريخ الهند (١) ونشر ادورد سخاو الالماني هذين الكتابين وترجمهما الى اللغة الانكليزية ، الاولى في ١٨٧٨م ، والثانية في ١٨٨٧ وترجمهما الى الانكليزية بعد نشرهما مباشرة ، وله الفضل في تعريف هذا العبقري وانتاجه في العلوم الانسانية الى العالم في العصر الحديث ، أما الثالث فهو القانون المسعودي ، ألفه البيروني باسم السلطان مسعود بن محمود الغزنوي ، وهو في رأي كارلو نللينو المستشرق المتخصص في علوم الفلك أكبر وأدق موسوعة في علوم الفلك والجغرافية الرياضية . نشرته دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد (الهند) في ثلاثة مجلدات .

ويربو عدد مؤلفات البيروني من الكتب الكبيرة والرسائل الصغيرة أو الابحاث العلمية على ١٨٠ كتابا ورسالة والفهرس الذي وضعه البيروني نفسه لمؤلفاته وأبحاثه في ٤٢٧هـ يشمل ١٠٣ كتابا كما ذكر ثماني كتب اخرى وهو في سبيل اتمامها من مسوداتها (٢) وكان من دقته العلمية أنه ذكر عدد أوراق الكثير من هذه الكتب والرسائل ، الامر الذي يفيد الباحث في تقدير انتاجه العلمي تقديرا صحيحا ، فمنها مثلا كتاب الوساطة بين الخوارزمي وأبي الحسن الاهوازي الفلكي في ٦٠٠ ورقة أي ١٢٠٠ صفحة وكتاب جمع الجوامع في شرح السند هند أو الرياضيات الهندية في ٥٠٠ ورقة ، ورسالة في تقاسيم الاقاليم ٣٠ ورقة ، وايضاح الأدلة على كيفية سمت القبلة ٢٥ ورقة ، وتسطيح

---

(١) واخطأ خير الدين الزركلي في اعتباره كتابا مستقلا عن تحقيق ما للهند كما ذكر من كتبه تاريخ الامم الشرقية وليس له .

(٢) انظر هذا الفهرس في مقدمة الاثار الباقية بقلم سخاو .

الصور وتبطيح الكور في ١٠ ورقات • ونشرت ما لايقل عن عشرة كتب أخرى في الموضوعات العلمية وترجم بعضها الى اللغات الاوروبية •

وتنافست الدول المختلفة بعد الحرب العالمية الثانية في تكريم البيروني باحياء ذكراه بطرق شتى من اصدار مجلدات تذكارية واقامة الندوات العلمية في الهند وتركيا وروسيا السوفياتية وافغانستان وباكستان وآخرها المؤتمر العالمي الذي عقد في كراتشي في ١٩٧٣م بمناسبة عيد ميلاده الألفي ، كما أطلقت روسيا السوفياتية اسمه على جامعة حديثة في طاشقند ، ونصب تمثال له في المتحف الجيولوجي بجامعة موسكو ، لان البيروني ولد ، وعاش فترة طويلة من الزمن في المناطق التي تخضع لروسيا كأزبكستان وتركمانستان أو بلاد ما وراء النهر القديمة •

ومنهج البيروني في البحث التاريخي كمنهجه في البحث العلمي ، وهو عين المنهج الذي يسير عليه البحث العلمي في العصر الحديث ، أي الاحتكام الى العقل بعد الاستقصاء والاستيعاب والتحليل والنقد والمقارنة • وأصاب الدكتور علي الشابي التونسي في قوله : « بانه يبحث التاريخ والمجتمع بطريقة رياضية بحتة لا تقبل الرفض أو التعديل الا بقدر ما تسمح به الحقائق العلمية [1] واذا قارنا منهجه بمنهج الطبري والمسعودي ومسكويه وغيرهم من المؤرخين المعروفين أدركنا أنهم لم يوفقوا الى المنهج المتكامل لان ثقافتهم كانت مبنية على العلوم النقلية فقط ، بينما وفق البيروني الى ذلك لمعرفته الشاملة ويقظته

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢٤ •

العقلية وحسه النقدي الدقيق في معالجة كثير من قضايا التاريخ واستكناه عللها والربط بينها .

وأوضح البيروني بعض ملامح منهجه في مقدمة الآثار الباقية بقوله : ان أقرب الاسباب المؤدية الى ما سئلت عنه هو معرفة أخبار الامم السالفة وأنباء القرون الماضية لان أكثرها أحوال عنهم ورسوم باقية من رسومهم ونواميسهم ولا سبيل الى التوسل الى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات والقياس بما يشاهد من المحسوسات سوى التقليد لأهل الكتب والملل وأصحاب الآراء والنحل ، المستعملين لذلك، وتصيير ما هم فيه أساسا يبنى عليه بعده ، ثم قياس أقاويلهم وآرائهم في اثبات ذلك بعضها ببعض بعد تنزيه النفس عن العوارض المردية لأكثر الخلق، والاسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، وهي كالعادة المألوفة والتعصب والتضافر واتباع الهوى والتغالب بالرئاسة وأشباه ذلك [1] » .

وبعد التأكيد على منهجه في البحث التاريخي هذا من وجوب الرجوع الى المصادر الاصلية والأخذ بالأخبار والآراء بعد المقارنة بموضوعية ونزاهة دون الوقوع تحت وطأة التعصب والافتخار الشخصي أو القومي يؤكد صعوبة هذا المنهج قائلا : « على أن الأصل الذي أصلته والطريق الذي مهدته ليس بقريب المأخذ بل كأنه من بعده وصعوبته يشبه أن يكون غير موصول اليه لكثرة الأباطيل التي تدخل جمل الاخبار والاحاديث » ولكنه يقرر في نفس الوقت بعقل منطقي علمي عدم رفض الاخبار لمجرد هذا السبب العارض بقوله : « وليست كلها داخلة في حد الامتناع ، فتميز وتهذب، لكن ما كان منها في حد الامكان

---

(١) الاثار الباقية ص ٤

جرى مجرى الخبر الحق اذا لم يشهد ببطلانه شواهد أخر بل قد يشاهد وشوهد من الأحوال الطبيعية ما لو حكي مثلها عن زمان بعيد عهدنا به ثبتنا الحكم على امتناعها [١] » ٠

ولقد طبق البيروني منهجه هذا بدقة في جميع كتبـــه التاريخية والعلمية وخاصة في الآثار وكتاب الهند من حيث الرجوع الى المصادر الأصلية في تواريخ مختلف الشعوب ، والنقد التحليلي والمقارنة وتجـد في كتابه الاثار الباقية ذكر عشرات الكتب من تراث الامـــم المختلفة كالمجوس والمانوية واليهود والمسيحيين السريان والأقبـــاط واليونان والعرب وكذلك في كتابه « تحقيق ما للهند من مقولـــة » ويمكـن استخراج تواريخ هذه الشعوب الاجتماعيـة من الاعيـــاد والمواسم الموجودة الباقية التي ذكرها البيروني ٠ وأثبت بعد المقارنات العديـدة والاستقصاء ما أمكن جداول السلالات الحاكمة في ايران قبل الاسلام وكذلك الملوك الكلدانيين واليونـــان والروم والبيزنطيين ، وناقش في أصول بعض السلالات الاسلامية الحاكمة في عهـــده من بني بويـه والزباريين والفاطميين ، وأثبت عـــدم صحـة نسبة بني بويـــه الى الساسانيين ونسبة الفاطميين الى آل الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم يمنعه الخوف من بطش قابوس بن وشكمير الذي ألف له كتاب الاثـار أن ينكر صحة نسبه الى « أصول السيادة [٢] » ٠

كما أنه وقف من قضايا التاريخ القـــديم في الأصول الاسلامية موقفا جديدا اثباتا ونفيا ،ومنها مثلا قضية هوية ذي القرنـين المذكور

---

(١) نفس المصدر ص ٥

(٢) انظر الاثار الباقية ص ٣٨ و ٣٩

في القرآن الكريم ، وهو عند معظم المؤرخين والمفسرين كالطبري والمسعودي وأبي حنيفة الدينوري والقرطبي والكتاب والجغرافيين كأبن خرداذبة وجعفر بن قتيبة والاسكندر المقدوني بينما اعتبره علماء اليمن القدامى كمحمد بن حبيب في كتابه المحبر والهمداني في الاكليل أحد ملوك اليمن وحدوده بمصعب الهمال الحميري . والبيروني بعد استقصاء هذه الاقوال وغيرها مال الى القول بانه أبوكرب شمر يرعش ، واحتج بظاهر اللقب الذي يكثر في ملوك اليمن المعروفين بالأذواء (١).

ورفض كلام ابن خرداذبة بعد مناقشة علمية من النقد الداخلي في كون سد ياجوج وماجوج في منطقة بحر قزوين الغربية .

وبحث في موضوع التاريخ الهجري فقرر بعد المقارنة والنقاش لأقوال مختلفة أن هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت في الثامن من ربيع الأول ولا يجوز كونها في الثاني والثاني عشر من هذا الشهر لعدم وقوع يوم الاثنين من الناحية الحسابية الا في ذلك التاريخ، وكذلك رفض وقوع عاشوراء عيد اليهود في العاشر من المحرم، والأخبار المروية في صوم النبي عليه السلام في هذا اليوم لأنه يوم نجاة موسى وبني اسرائيل من الغرق بطريقة رياضية عجيبة مقنعة ، واعتبر الروايات الواردة في هذا الموضوع من عمل محدثي العوام أو مسالمة أهل الكتاب (٢) .

---

(١) نفس المصدر ص ٤٠ ـ ٤١ ، ويعتبره المرحوم مولانا ابو الكلام ازاد في تفسير للقرآن الكريم باسم ترجمان القران الملك الايراني القديم كوروش أو سائرس ، وكذلك رأى مولانا ابي الاعلى المودودي في تفسيره تفهيم القرآن ببعض التحفظ .

(٢) المصدر السابق ذكره ص ٣٣٠ .

وهكذا أخضع تواريخ الاحداث لعملية رياضية للتثبت منهـا وما أحوجنا الى مثل هذا الاسلوب العلمي الرياضي في كثيــر من قضايا تاريخية •

ومن ناحية أخرى طبق أصول البحث في الطبيعة في بعض قضايا تاريخية أخرى ولم يرفضها لمجرد غرابتها ، ومنها قضية الاعمار الطويلة في الامم السالفة ، وما ورد منها في القرآن الكريم مثل عمر نوح فأثبت صحة عمره الطويل الوارد في القرآن بطريقة علمية بحتة دون الاعتمـاد على الروايات والتفاسير ، واعتبر اولئك الــذين يرفضون مثل هـذه القضايا من أغمار الحشوية ونوكي الدهرية ولا يتسع المجال هنا لايراد مناقشته فليراجع كتابه الاثار الباقية (ص ٧٨ ــ ٨٠) •

كما أنه أدرك أهمية معرفة اللغات الاجنبية في البحث العلمي عامة والبحث التاريخي فتعلم عددا من اللغات كاليونانية والعبرية والسريانية بجانب اللغة التركية والفارسية والعربية ويذكر أسماء الاحجار الكريمة في هذه اللغات المختلفة في كتابه الجماهـر في معرفـة الجواهر ، وهو الوحيد من بين علماء العرب والاسلام في عصره وقبل عصره من تعلـم اللغة السنسكريتية واللغات الهندية الاخرى لدراســة آداب وتقاليد وعلوم الهند ليقدم لنا دراسة فذة رائعة في الموضوع في كتابه الجليل « تحقيق ما للهند من مقولة » • ويترجم العديد من كتب السنسكريتية، ويعيد ترجمة كتاب سدهاتنا أو السند هند •

وهو في كتابه هذا لم يكن مجرد ناقل كما قال البعض ، ولا مفتتنا بعلوم الهند بل مؤرخا عالما ناقدا بصيرا مستقل التفكيـر • وهو القائل بمناسبة ذكر آراء علماء الهند في الأرصاد في كتـابه تحديد نهايـات

الاماكن « ويجب أن أعير هذا الكلام بجميع وجوهـــه ، فاني لا آبي قبول الحق من أي معدن وجدته » [1] .

وانتقد منهج علماء الهنود قائلا : « ومن طالع أعمالهم وجدها من البعد عن التحقيق بحيث لا يثق في أرصادهم بادعـــاء تدقيق ، ولكن القوم بسبب نزوح ديارهم وشدة كتمانهم ، وضنهم على الشـــيء النزر يراحون رائحته ، واعتقاد العامة فيهم الحكمة مع خلوهم عنها ، وسهولة تلك الاعمال بالقياس الى المحققة ، قد كثر متعصبوهم الذين لا يلتفتون الى عيان ولا يكترثون ببرهان ، ومنهم محمد بن علي المكي على ما ذكر في المدخل الى أحكام النجوم » [2] .

وفضل البيروني منهج علماء اليونان في البحث العلمي على منهج الهنود في آخر كتاب الهند ، وذكر أيضا سبب تأليف كتابه هذا قائلا : « فقليل منهم من يشتغل بالتحقيق اشتغال الطبيعيـــين من اليونانيين ، بالبحث عنها وعن مائية الاثار العلوية ، وانهم لا يخلون بكـــلام القوام بملتهم ، ونستغفر الله في الحكايات الا عن حق ، ونستوثـــق للاعتصام بما يرضيه ، ونسترشده الى الوقوف على الباطل لنتقيه » [3] .

وأختم كلامي بنصيحة هذا العالم العبقـــري والمـــؤرخ الحق ، وجهها الى الفلكيين ولكنها نبراس لكل باحث يعمل في أي حقل علمـــي حيث قال : « ويجب أن يتيقظ الراصد ويديم في أعماله ، واتهام نفسه ، ويقلل العجب بها ، ويزيد في الاجتهاد ولا يسأم » [4] .

والله ولي التوفيق .

---

(١) تحديد نهايات الاماكن لتصحيح مسافات الاماكن ص ٨٣ .
(٢) نفس المصدر في نفس المكان .
(٣) تحقيق ماللهند من مقولة ص ٥٤٧ .
(٤) تحديد نهايات الاماكن ص ٨٠ .

مراجع البحث

أ) كتب البيروني :

١ ـ الاثار الباقية عن القرون الخالية ، تحقيق ادورد سخاو

٢ ـ تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مرذولة ، حيدر آباد الهند ١٩٥٨ م

٣ ـ تحديد نهايات المساكن لتصحيح مسافات المساكن ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ـ انقرة ١٩٦٢ م

٤ ـ الجماهر في معرفة الجواهر ، تحقيق سالم كرتكو ـ حيدر آباد ، الهند

٥ ـ التفهيم لاوائل صناعة التنجيم، طبعة رمزي رايت المصورة معالترجمة الانجليزية ١٩٣٤ م

ب) الكتب الاخرى :

السخاوي : الضوء اللامع

ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء

ياقوت : ارشاد الاديب طبعة مارجوليوت

محمد بن حبيب : المحبر ، حيدر آباد ـ الهند

حمزة الاصفهاني : تاريخ سني ملوك الارض ـ بيروت ١٩٦١ م

الطبري : تاريخ الطبري . طبعة دار المعارف ، القاهرة

المسعودي : مروج الذهب ، تحقيق محي الدين عبد الحميد

خير الدين الزركلي : الاعلام (١٠) أجزاء

نلينو : علم الفلك عند المسلمين ـ روما ١٩١١ م

كراتشوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم

فرانزروزنتال : علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة صالح العلي

قدري طوقان : العلوم عند العرب

قدري طوقان : تراث العرب العلمي في الفلك والرياضيات

قدري طوقان : مقام العقل عند العرب

بارتولد : الحضارة الاسلامية ترجمة حمزة طاهر

فيليب حتى : تاريخ العرب المطول

الشحات علي أحمد ، ابو الريحان البيروني ، حياته ومؤلفاته ، القاهرة ١٩٦٨ م

علي الشابي : الادب الفارسي في العهد الغزنوي تونس ١٩٦٥م

حكمت نجيب هاشم : دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، الموصل ١٩٧٧ م

المراجع الأجنبية

Ameer Ali , History of Saracens . London .

Bernard Lewis and P.M. Holt , Historians of the Middle East . London . 1964 .

Brockelman, C and Widman . Article al - Biruni in Encyclopedia of Islam . New edition . London .

Bosworth, C.E. The Ghaznawids , 2nd ed . Beirut . 1973 .

Nasr, Hussein, Islamic Science . London . 1976 .

Elgood, C. Islamic Science in Lagasy of Persia ed. by A.J. Arbery . London .

Savory, R.M. Islamic Civilisation . London . 1976 .

Savory, R.M. Article : Land of the Lion and the Sun in the World of Islam ed. by Bernard Lewis . London 1976 .

حول طبيعة الاستشراق

ساجدة عمر فوزي
العراق

صدر في لندن عن دار راتلج في الشهر الماضي كتاب الاستاذ ادوارد سعيد عن« الاستشراق » • وقد أثار الكتاب حال صدوره ضجة علمية وصحفية سبقها في أن هذا الكتاب يمثل أول مبادرة عربية علمية تتصدى لمعاهد الغرب الفكرية والتي ادعت لنفسها مهمة احتكار تدريس وتفسير وتصحيح أفكار العرب والمسلمين • وعليه فقد شعر كتاب الغرب بالقلق [١] وبات لديهم أن هذا الكتاب هو بادرة أولية لمثقفي المشرق في محاولة الأخذ بزمام مصائرهم واعادة النظر في تاريخهم وما كتب عنهم •

والاستاذ أدوارد سعيد غني عن التعريف فهو فلسطيني الأصل مقيم حاليا في الولايات المتحدة ويعمل كاستاذ الادب المقارن والنقد الادبي في جامعتي برنستون وكولومبيا • وقد شغل قبل ذلك وظيفة

---

(١) راجع مراجعة باتريك سييل في الاوبزرفر
P. Seal : in the Observer .

استاذ زائر للادب المقارن في جامعة هارفارد • ويحمل رسالة معهد الدراسات البشرية المتقدمة في ستانفورد •

وقد حصل كتاب ادوارد سعيد الموسوم « الاغراض والمقاصد في علم البدايات » الصادر في عام ١٩٧٦ على جائزة لينونيل تريلينك السنوية التي تمنحها جامعة كولومبيا لبحوث الدراسات النقدية •

وكتاب « الاستشراق »يقع في ٣٦٠ صفحة من الحجم الكبير • ويتصدى لبحث المعضلة التالية : ـ

أولا : ان الاستشراق هو رمز للهيمنة السياسية والحضارية للغرب خاصة وان بدايات «علم» الاستشراق ظهرت وتطورت أثناء الضعف السياسي والحضاي للشرق •

ثانيا : ان الاستشراق هو «تقليد» وليس علم • أو بكلمة أحسن ان الاستشراق يقوم على مجموعة تقاليد رافقت فترات الاستكشافات العلمية والجغرافية وقيام المستعمرات هذه التقاليد التي عززت الطابع العنصري والعداء الديني «للاقوام» (Nations) المستعمرة ••

ثالثا : ان تطور الاستشراق وتحوله على الشكل العلمي النهائي أوقع المستشرقون في مزلق الادعاء بالموضوعية والعلمية التي تفتقرها طبيعة البحوث الاجتماعية • وحتى اذا ما سلمنا بامكانية التجرد والموضوعية (وهذا مستحيل حيث يقع الباحث الاجتماعي تحت طائلة الالتزام الادبي أو الاستمتاع الشخصي • كما تلعب القيود الاجتماعية والالتزامات السياسية دورا مكملا تمنح مسألة الموضوعية والتجرد التي تتحلى بها بحوث الكيمياء وسائر العلوم الطبيعية) • فان الاساس

التقليدي لبحوث الاستشراق يتنافى على الاطلاق مع مسألــة التجرد العلمي •

ويعود ادوارد سعيد هنا ليؤكد أن التحيز العلمي أو البعـد عن الموضوعية هو أمر قد لا يكون سيئا في جميع الاحوال •

ولبحث هذه المقولة ينصب الكتاب وينقسم الى ثلاثة أقسام متبعة التسلسل التاريخي لنشوء الاستشراق : كما يصاحــب هذا التحليــل التاريخي دراسة نظرية موازية لدوافع الاستشراق • ينتهي في النهاية الى أن الشرق هو جزء اساسي لتراث الغرب المادي وحيــث أعطى الشرق للغرب من المقارنة والهوية التفوقية للحضارة الغربية • كما حصر سعيد دراساته على الاستشراق الانكلو ـ فرنســي والمدارس الاستشراقية الاميركية المعاصرة • وبذلك حرم الكاتب نفسه (وحرم القارىء كذلك) من فرصة دراسة الاستشراق الروسي والمدرسة الالمانية • ويبرر سعيد هذا (القصور !!) من أن الاستشراق هو وليد علاقة عضوية (اساسهـا الهيمنة والتسلط السياسي ـ والحضاري) بين الغرب والشرق • وان مثل هذه العلاقة تنقص الالمان وفقهاء الروس • ولذلك فان المثال الكامل للاستشراق يكمن في العلاقة البريطانية الشرقية التي سادها جو التملـك (فالبريطاني مثلا يعتبر نفسه مسؤولا عن تثقيف وفهم السكان المحليين نظرا لكونه السيد المالك) من جهة والعلاقة الفرنسية الشرقية التي تمتاز بالنزعة التصوفية نظرا لعقدة الحرمان التي لاقاهـا الساسة الفرنسيون أثناء القرن التاسع عشر والتخلي عن «جواهر» الشرق • وبالتـالي فان الفرنساوي يعتبر أن دوره في دراسة الاستشراق هو دور البـاحث عن الحقيقة وليس غيره •

لقد رافقت حملة نابوليون على مصر من جهة وبدايات الطموح البريطاني في السيطرة على أجزاء الجسم العثماني المريض دعوة لدراسة وفهم طبائع وأذهان وعادات سكان وأجناس هذه المناطق • وبذلك نصب الغربي نفسه واليا وشفيعا ليفتي ويتفقه ويكون النظريات حول طبائع السكان •

لقد اقترن الشرق وفكرة الشرق بمفهوم الخطر الاسلامي الداهم ولذلك فان الطابع الدفاعي لهذه الدراسات والحاجة الى الاقتصاص والثأر من العرب والمسلمين صبغت تلك الدراسات القديمة وأثرت في تكوين الفكر الاستشراقي الحالي •

وهذا يفسر الهجوم الشرس الذي مارسه كتاب تلك الفترة والذي اقتصر على العرب والمسلمين دون سواهم من شعوب هذه المنطقة •

لقد أورد ادوارد سعيد مقتطفات عديدة جدا من دراسات تلك الحقب وخلص منها الى كيفية صياغة الجذور الاساسية لعلم الاستشراق: ففي « البليوغرافيا الشرقية » لـ داربيلو والمنشورة في ١٦٩٧ جاء تعريف الاسلام بما يلي (الاسلام : هو اسم لمدعي النبوة والذي سمي فيما بعد بمحمد وهو مؤلف الهرطقة المعروفة والمسماة باسمه) •

والذي يهم ادوارد سعيد هنا هو أن كلمة المحمديين لم تطلق الا بقصد تجريد الاسلام من أي محتوى والصاقه فيما بعد باسم شخصي • والسبب هو غيظ وكره المستشرقين من ادعاء « شعوب هذه المنطقة » بأي اجتهاد روحي •

لقد تكون الشرق عن طريق خيال الغرب ، منهم الذين صاغوه

وكونوه وكل ما كتب في تلك الحقبة وحتى بدايـــات القرن العشرين انما جاء ليؤكد ويثبت الصورة التقليدية • واذا ما كان هناك اختـلاف بين حقيقة الشرق وما كتب عنهم في الغرب فذلــك مرده الى خطأ في الشرق وليس لسوء فهم الغرب •!! أما اختلاف المستشرقـين فليس الا تأكيدا لماهية وشخصية الشرق •

وعندما زار برتون فلسطين ولاحظ اختلاف الواقع عن ما قرأه عمد فجأة الى وصف فلسطين بانها المكان الذي يسوده المـوت • ان تعريف الموت هنا يشير الى خيبة برتون في العثور على ما يدلــل على جمود المسلمين وتفسخ العرب (المعهود !!) ولذلك وبــدلا من أن يقـرر الحقيقة ، عمد هذا الى الرجوع الى ذاكرته وبدأ يصف ويؤكد خيـال الغرب دون حاجة الى فتح عينيه ورؤية الواقع •

لقد انتقل الاستشراق الى مجال البحث (العلمي) في بدايات القرن الثامن عشر باحد ثلاث طرق : ـ

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

١ ـ الترجمة المباشرة وتصنيف المواد المترجمة ويرجع الفضل هنا الى سلفستر دساسي الفرنساوي وادوارد وليم لين • وساهم الاول في وضع قواعد اللغة العربية ومؤلفه معروف كما ألف مؤلفات قصيـرة عن «ديانات العرب والدروز» • لقد وصف هذا روعة الشعر العربي بأنـه يقصر عن اللحاق بالتكامل الغربي الذي بلغ من الكمال ذروته •

أما ادوارد لين مترجم كتاب «ألف ليلة وليلة» الى الانكليـزية ، والذي يهم هنا أن هؤلاء باحتكارهم فهم « دين الاهالي » وتمكنهم من المنطق بلغات مختلفة ركزوا الصورة العنصرية المتخلفة للشـرق وأصبح الشرق ملكا للغرب بصورته النهائية وعند بداية تطور علم اللغة واللفظ

وجد «المستشرقون» في شخص رينان فرصة في تصنيف وترتيب الشرق . وذلك عن طريق ارجاع اللغات الى جذور معينة أولا وربط حضارات الاقوام بتلك الجذور ثم عملية مقارنة مدى وحشية وبدائية هذه الاقوام مقاسة ببدائية جذور لغاتهم خلص في نهايتها رينان الى أن الحضارة السامية تعتبر بدائية جدا اذا ما قورنت بالحضارة الاوروبية . حيث يقول : (ان الفرق «بيننا وبينهم» هو كالفرق بين الصورة الزيتية و «شخابيط قلم الرصاص ...!!»

وهذا يفسر تقدم موضوع علم اللغات الشرقية في مدارس الغرب .

لقد تركز علم الاستشراق وتطور فبعد أن استخدم تكنيك التحليل اللغوي في تصنيف الاجناس اكتشف الغرب أهمية (علم الجغرافيا في تطبيقه على أقوام المنطقة) وقامت حركة واسعة لمسح الاراضي ووضع الحدود لكل قبيلة وشعب وذلك للحفاظ عليها من الضياع .

ويصف الاستاذ سعيد في الفصول النهائية من الكتاب مهمة المستشرق في انتقاله من دور الباحث العلمي الى دور المستشار الذي يضع علمه في خدمة الامبراطورية ويساهم في استقرار وازدهار المنطقة كما يساعد تجنب «الفتن» في الانتقال من المرحلة الكولونيالية الى الاستقلال الذاتي .

وهنا ينتقل الاستشراق من مرحلة الصراع الفكري والتسلط القبيح الى دور التعاون الودي والدعوة الى فهم « الاسلام » والمسلمين.

لقد لعب كلا من «هاملتون جب» و«ماسنيون» الدور الاساسي والهام في اغناء تراث الاستشراق كما ألفت كتابات هؤلاء حجر الاساس ومصدرا ضخما وقيمة علمية كبيرة جدا .

وبالرغم من ثناء ادوارد سعيد واعجابه بموضوعية هؤلاء وارتياحه لمدى الحب الذي أظهروه في دراستهم للاسلام فان له ملاحظات يمكن حصرها بما يلي :ـ

لقد طبعت دراسات « جيب » وارتبطت بمعطيات السياسة البريطانية كما أنها لم تتخلص من الطابع التسلطي الاستعلائي ، كما أن اعتماده على التراث الاستشراقي القديم ربطه بشكل واضح بسلسلة المستشرقين القدامى . ان مقتطفات سعيد عن جب ، وخاصة بالخلاصة التي مفادها عدم صلاحية المسلمين وعقلية الشرق الاوسط للاستفادة من تمدن الغرب وعليه فانه من الخطأ محاولة تمدين المسلمين ذوي العقلية البسيطة ، ترجع الذهن الى الدعوات العنصرية القديمة .

أضف الى هذا ارتباط السيد هاملتون جب بالمعاهد المشبوهة مما يقلل من وثوق وصلابة التزامه العلمي . أما ماسنيون فلم يتخلص هذا من ميوله «الكاثوليكية» التي تتجلى في اصراره على اعتبار الحلاج كمسيح جديد بثوب اسلامي ومحاولة المسلمين الى التشبه بالمثل المسيحية في التضحية .

وفي الفصل الاخير تكمن قيمة هذا الكتاب . لقد ابرز سعيد موقف المستشرقين المعاصرين العدائي والمغلف بالطابع العلمي لكل ما هو عربي واسلامي خاصة بعد حرب ١٩٦٧وظهور العرب كقوة اقتصادية دولية .

ولم يكف المستشرقون ـ كما يقول ادوارد سعيـــد ـ وخاصة برنارد لويس عن الطعن بالاسلام « الاسلام أداة عنصرية » ، والتسخيف بالقيم الحضارية الحديثة «كاصرار لويس على القول بأن الثورة هي من « ثوران وهيجان » التي لها محتوى « جنسي وحشي » • ومهما بالغنا في السرد فلسوف نظل قاصرين عن ابراز أهمية هذا الفصل • خاصة في فضح دور المستشرقين المحدثين أمثـــال فاتوكيوتوس ولويس في تجريد المفهوم القومي العربي من أي محتوى ومن ثم الانقضاض علـى الاسلام كرمز وحشي ينبغي تثقيفه • وخير مثـــال هو ما أورده سعيد (ضمن أمثاله العديدة جدا) حول مفهـوم فاتوكيوتوس « بان الثورة العربية هي مفهوم جنوبي تمتاز به الشعوب الجـائعة الفقيـــرة • وان الفكرة القومية المستوردة التي يتبجح بها العرب ما هي الا خطر يهـدد كيانهم وصحتهم !! » •

ويخلص الكتاب الى ما يلي : ـ

١ ـ انه لا زال التسلط الحضاري قائما بدلالة الاتجاه الثقافي الى الغرب عن طريق المبعوثين والوفود •

٢ ـ بدأت الآن بوادر الانتقال المكاني للاستشراق الى الولايـات المتحدة بعد زيادة عدد طلبة دراسات اللغة العربية والتاريخ الاسلامـي الموفدين الى اميركا •

٣ ـ ان العالم الشرقي لا مكان له في الغرب وأكثـــر مايقوم به هناك هو دور المعرف والمخبر تاركا دور البحـــث والتحري الى سيده الغربي •

ان هذا الكتاب جدير بالدراسة وهو ضرورة لكـــل من يـروم الذهاب الى الغرب لدراسة تراث الشرق !!!•

العلاقات التجارية بين روسيا وبلاد الشام

١٩٠٠ - ١٩١٤

الدكتوراه سميليا نسكايا
معهد شعوب آسيا وافريقيا - اكاديمية العلوم
السوفياتية - موسكو
ترجمة : الدكتور نوري عبد البخيت
جامعة البصرة

بدأ الاهتمام باسواق بلاد الشام كسوق لتصريف المصنوعات والبضائع الروسية منذ نهاية القرن التاسع عشر فقد شهدت روسيا في تلك الفترة تطورا سريعا في الانتاج الصناعي مما دفعها للبحث عن اسواق خارجية لتصريف منتجاتها الصناعية • وكانت بلاد الشام احدى تلك المناطق التي اتجهت انظار البرجوازية الروسية اليها • وقد شهدت العلاقات التجارية ما بين روسيا وبلاد الشام نتيجة لذلك نموا متزايدا باعتبارها جزءا من نمو العلاقات التجارية الروسية العثمانية • وفي سنة ١٩١٠ كانت تجارة بلاد الشام تكون سدس التجارة الخارجية للامبراطورية العثمانية، اما بعد خروج سلانيك ومجموعة جزر الارخبيل من الامبراطورية العثمانية فقد ارتفعت نسبة تجارة بلاد الشام الخارجية الى الربع مما يشير الى أهمية السوق السورية بالنسبة للسوق العثمانية • ويوضح الجدول الآتي أهمية التجارة الروسية في أسواق بلاد الشام

البلد المصدر	الاسكندرية	طرابلس	بيروت	صيدا	عكا	حيفا	يافا	اللاذقية	المجموع
انكلترا	٥٢٥٩٦٤	٤٠٩٢٢	٧٠٦٧٠١	١٢٢١٨	٩٤٨	٦٠١١٥	٧٥٥٠٨	٢٥١	١،٤٢٢،٦٢١
مصر	١١٢٦٦٢	٥٤٤٩٩	١٥٣٧١٦	١١٤٩٨	٧٧٦٣	١٨١٨٥	٩٣٣٠٦	٣٠٨٠	٤١٩٧٠٩
النمسا	١٣٢٩٨٩	٢٠٤٦٠	٢٣٤٠٧٥	٥٤٠٩	—	٢٤٣٢٧	٨٣٢٩٧	١٤٥٨	٥٠١٠١٥
فرنسا	٧٤٤٩٣	٩٧١٥	٢٩٣٦٨٩	٦١٣	٧٩٨	١٢١٧٤	٥٢٨١٥	١٢٦٣	٤٤٥٥٦٠
روسيا	٣٧٧٩٠	٥٢٧٥٠	١١٤٧٦٣	٤٠٩٦	٤٤٠٨	١٣١٤٩	١٠٨١٠٧	١٨٤	٣٣٥٢١٧
ايطاليا	٥١٤٨٩	٨٥٦٠	١٦٤٣٨٩	٩٠	٣٤٩	١٦٠٨٩	٤٥٨٠٩	—	٢٨٦٧٦٨
المانيا	٢٩٥٠٠	٦٨٧٣	١١٣٩١٥	—	١٦٨	٤٤٥٦	٤٦٥٥٣	٢٦١	٢٠١٧٣٤
بلجيكا	٢٤٨٧٥	٦٢٧١	٩٣٣٤٢	١١٧١	—	٩٤٣٥	٣٧٧٥٤	٢٥١	١٧٣٠٩٩
هولندا	٦٢٥٤	—	٣٥٧٩١	—	—	٧٥٧	١٠٢٥٢	—	٥٣١٥٤
رومانيا	٥٣٢١	١٨٣٤	—	٧٣٢٠	١١٨٣	٦٠٥٨	٢٧٢٣٨	—	٤٨٩٥٤
الولايات المتحدة	٧٧٧	٨٥٠	—	—	—	٢٢	٨٦٦٥	—	١٠٣١٤
حكومات اخرى	٢٨١٩	—	٦٦٢٧	١٨٨٥	١٠	٩٩	٦٨١٦	٤٦٦	١٨٨٤٢

بالنسبة لبقية الدول الاوروبية[1] اذ يظهر ان التجارة الروسية قد احتلت المرتبة الخامسة في تسلسل تلك الدول التي لها علاقة تجارية مع بلاد الشام فقد احتلت انكلترا المكان الأول ثم النمسا وفرنسا ومصر وروسيا • ولقد شكلت الصادرات الروسية الى بلاد الشام في الفترة من ١٩١٠ ـ ١٩١١ نسبة ١٣٪ من مجموع الصادرات الروسية الى بقية أرجاء الامبراطورية العثمانية • واذا أخذ بنظر الاعتبار أن مجموع الصادرات الروسية الى كافة أجزاء الامبراطورية العثمانية في عام ١٩١١ كانت نسبتها ١ر٢٪ من مجموع الصادرات الروسية بصورة عامة فان مكانة سوق بلاد الشام بالنسبة لتجارة روسيا الخارجية تمثل الحد الادنى • ولكن هذه الارقام لا تعطي فكرة عامة واضحة عن سوق بلاد الشام بالنسبة لعدد كبير من المنتجات الصناعية الروسية فان انخفاض الصادرات الروسية للامبراطورية العثمانية توضحها الصفة الغالبة على التجارة الروسية الخارجية والتي تكون المواد الزراعية نسبة عالية فيها خصوصا اذا علمنا بان بعض اقطار الامبراطورية العثمانية تصدر في بعض الاحيان ما يفيض عن حاجتها من منتجات زراعية • ان المنتجات الصناعية الروسية المصدرة للاسواق العثمانية مثل السكر والكحول وصناعة الفلزات والاحذية المطاطية والاقمشة تحتل الدرجة الاولى ضمن قائمة الصادرات الروسية للاسواق العثمانية ويندرج تحت هذه القائمة نفط باكو الذي تعتبر الدولة العثمانية سوقا هامة له • لقد بدأت الصادرات النفطية الروسية للاسواق العثمانية في التطور بعد الثمانينات من القرن التاسع عشر • ومنذ سنة ١٩١٤ دخلت الشركات النفطية الروسية في صراع عنيف مع المؤسسات النفطية الاميركية مثل « ستاندر

---

(١) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت وثيقة ٢٢٢ ورقة ١٠١ •

اويل كومبني » . وكذلك مع شركات نفط غاليسيا ورومانيا . وعلى الرغم من انخفاض كميات انتاج النفط في روسيا فقد ازدادت الكميات المصدرة منه للاسواق العثمانية بعد عام ١٩٠٤ وحتى سنة ١٩١٤ ، حيث وصلت هذه الزيادة الى الضعف . وقد بلغت نسبة الواردات من النفط الروسي للاسواق العثمانية ١١٪ من مجموع الواردات العامة للامبراطورية العثمانية سنة ١٩٠١ وارتفعت نسبته الى ٤٢٪ سنة ١٩٠٨ والى ٢١٪ في عام ١٩١٢ . وقد احتل النفط الروسي المركز الاول في اسواق الدولة العثمانية للفترة الممتدة من ١٩١٠ ـ ١٩١١ فقد اصبحت نسبته تكون ٧٠٪ من مجموع الواردات العثمانية من النفط . وقد انعكست الحالة نفسها في أسواق بلاد الشام ، فحتى الثمانينات من القرن التاسع عشر كان النفط الاميركي يحتل المكانة الاولى هناك . وبعد هذه الفترة بدأ نفط باكو يأخذ مكانة في اسواق بلاد الشام بكميات كبيرة ولكن النفط الاميركي والروماني والهنغاري بدأ ينافس النفط الروسي في سنة ١٩٠٥ ، ومع ذلك فقد حافظت المنتجات النفطية الروسية على موقع الصدارة في أسواق بلاد الشام . ويوضح الجدول الآتي كميات النفط المصدرة الى بلاد الشام والدول المصدرة بآلاف البود [١] للفترة الزمنية ١٩١٠ ـ ١٩١٣ .

---

(١) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت وثيقة ٢٤٨ ورقة ٢٧ .

البلد المصدر	السنة ١٩١٠	النسبة المئوية	السنة ١٩١١	النسبة المئوية	السنة ١٩١٢	النسبة المئوية	السنة ١٩١٣	النسبة المئوية
روسيا	٢٩٧١٦٩٠٠	٧٢,٥	٢٣٥٣٩٩١٥	٥٤	١٢٧٢٤٩١٥	٥٤,٥	٣٦٤٧٦١٨٠	٦٧
امريكا	٤٤٢٥١٩٠	١١,٥	١٠٤٤٤١٤٠	٢٤	١١٢٢٠٩٠	٤,٩	٨٥٠٦٢٦٠	١٦
رومانيا	٥٩٩٤٣٢٠	١٥,٠	٩٤٠٨٥٢٥	٢٢	٨٩٨٥٤٩٠	٤٠,٦	١٣٠٧٢٢٩٥	١٧
النمسا	—	١,٥	—	—	—	—	—	—
المجموع العام	٤٠٣٦٤١٠	١٠٠	٤٣٣٩٢٥٨٠	١٠٠	٢٢٨٣٢٤٩٥	١٠٠	٥٨٠٥٤٧٣٥	١٠٠

ومن هذا يتضح ان روسيا القيصرية قد حافظت على موقع الصدارة بالنسبة للصادرات النفطية الى اسواق بلاد الشام حتى الحرب العالمية الاولى .

ومن المواد الغذائية المصنعة يحتل السكر الناعم ضمن الصادرات الروسية موقعا مهما في اسواق بلاد الشام فقد تطورت صناعة السكر في روسيا بعد الثمانين سنة الاخيرة من القرن التاسع عشر ففي ١٨٨٠ ــ ١٩٠٣ ازدادت كميات السكر المنتجة من ١٢ر٤٠٠ بود الى ٦٣ر٥٣٨ ألف بود . وفي سنة ١٩١٣ وصل الانتاج الى ٩٣ر٠٩١ بود [٣] . وقد جاءت هذه الزيادة في انتاج السكر نتيجة لازدياد الطلب على السكر في السوق الداخلية اضافة الى ازدياد الطلب عليه في الاسواق العالمية . وكان السوق العثماني جزءا من تلك الاسواق العالمية والتي تستهلك حوالى ٩ ملايين بود من السكر في السنة [٤] . يوضح الجدول الآتي تطور صادرات السكر الروسي الى الاسواق العثمانية [٥] .

صادرات السكر من روسيا بآلاف البود

السنة	مجموع المستورد من السكر الروسي للاسواق العثمانية	مجموع السكر المصدر من روسيا بصورة عامة
١٩٠١	١٥٣٩	٤٩٢٥
١٩١١	٤٢١١	٢٣٣٢٩
١٩١٢	٣٢٠٣	١٧٨٨٣

---

(٣) خراموف ــ التطور الاقتصادي في روسيا في القرن التاسع عشر حتى بداية القرن العشرين، موسكو ١٩٥٠ ص ١٩٤ (باللغة الروسية)
البود ــ وحدة وزن مصرية تساوي ١٦ر٣٨ كغم .

(٤) ليسنكا ــ الشرق الادنى ص ٢١٩ .

(٥) استعراض تجارة روسيا الخارجية في آسيا وأوروبا حتى سنة ١٩١٢ ، بتروغراد ١٩١٣ ص ١٢ .

ويتضح من الجدول السابق أن روسيا القيصرية سدت حاجة ثلث السوق العثماني من مادة السكر في عام ١٩٠١ • وبحلول عام ١٩١١ ازدادت نسبة السكر المصدر الى بلاد الشام بحوالى ٢ر٧ مرة مع العلم أن صادرات روسيا من السكر انخفضت بصورة عامة حتى أصبحت تشغل خمس مجموع الصادرات العامة • وشغل السكر الروسي المرتبة الثانية في أسواق بلاد الشام بعد السكر المستورد من امبراطورية النمسا والمجر ففي بيروت ودمشق وطرابلس وحيفا كان نصف السكر المستورد يأتي من روسيا • وتستورد الاسواق العثمانية مواد مصنعة اخرى من روسيا أشهرها الكحول المستوردة من جنوب روسيا • فقد بلغت نسبة الكحول المصدرة الى هذه الاسواق في سنة ١٩١١ ٥٠٪ من مجموع صادرات روسيا من هذه المادة (٦) • وشغل الكحول الروسي في سنة ١٩٠٩ نسبة ٨٠٪ من مجموع الكحول المصدرة للدولة العثمانية (٧) • ولكن هذا الوضع تغير في سنة ١٩١٢ بسبب منافسة الكحول النمساوي ـ المجري للكحول الروسي في أسواق الامبراطورية العثمانية • وحتى سنة ١٩١٢ سيطر الكحول الروسي على اسواق بيروت ودمشق فقد صدر الى بيروت في عام ١٩١٠ من مجموعة ٤٨ر٨٠٠ بود كانت حصة روسيا من ذلك ٣٩٢١٤ بود وبلغ مجموع المستورد من الكحول في سنة ١٩١١ ، ٦٦ر٥٣٨ بود ، كان الكحول

---

(٦) استعراض تجارة روسيا الخارجية مع اوروبا وآسيا (بالنسبة للسكر الناعم).

(٧) مجلة الصناعة والتجارة سنة ١٨٠٩ عدد ١٨ بتروغراد ١٩١٩ حتى سنة ١٩١٢ بتروغراد سنة ١٩١٣ ص ١٣ .

الروسي يؤلف ٥٤٢٤٢ بود منه • في سنة ١٩١٢ فلم يصل الى دمشق الا الكحول الروسي فقط [٨] •

وقبيل اندلاع شرارة الحرب العالمية الاولى ضعف مركز الدقيق الروسي في الاسواق العالمية لكن اسواق بلاد الشام لم تتأثر بذلك فقد بلغت قيمة الدقيق المصدر الى بلاد الشام للفترة ١٩١٠ ـ ١٩١١ اربعة ملايين قرش وكان ثلث المبلغ من نصيب روسيا [٩] علما بان سعر الدقيق الروسي كان أغلى من سعر الدقيق المستورد من البلدان الاخرى •

ولقد ازداد عدد الطواحين البخارية في بلاد الشام منذ بداية القرن العشرين واخذت بلاد الشام تصدر الفائض من انتاجها المحلي من الدقيق ، وذكر القنصل الروسي في دمشق ان الدقيق الروسي اختفى من أسواق بلاد الشام وفي سنة ١٩٠٨ كان كل ما وصل الى ميناء بيروت لا يزيد عن ٨٠٠ كيس من الدقيق فقط [١٠]• وفي سنة ١٩٠٨ كان مجموع ما وصل الى ميناء بيروت ١٥٨٠٧ بود من الطحين المشحون من ميناء اوديسا الروسي [١١] وعلى هذا الاساس فان المواد المصنعة في جنوب روسيا وأهمها السكر والكحول والمعجنات والطحين والصناعات المعدنية من القفقاس وخاصة النفط كان لها مكان متميز في أسواق الامبراطورية العثمانية والتي تعتبر أسواق بلاد الشام جزءا منها ، وأما

---

(٨) ليسنكا ـ الشرق الادنى ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ • الشرق الادنى كسوق لبضاعة الروسية ١٩١٣ بتروغراد •

(٩) ليسنكا ـ الشرق الادنى ص ٢١١ •

(١٠) مجلة المال والصناعة والتجارة بتروغراد ١٩٠٨ عدد ٢٧ .

(١١) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت وثيقة ٢٤١ ورقة ٥ .

بقية الصناعات الروسية فكان لها دور ضعيف في اسواق الامبراطورية العثمانية . فقد سيطرت الاخشاب النمساوية على أسواق بلاد الشام على الرغم من العروض الكثيرة التي قدمتها وزارة التجـارة الروسية حول تصدير الاخشاب الى بلاد الشام من مختلف المناطق الروسية وحـتى من الشرق الاقصى (١٢) . وفي سنة ١٩٠٩ تسلمت وزارة التجارة الروسية طلبا لشراء الاخشاب لأعمدة التلفونات ولسكة حديد الحجاز. وفي سنة ١٩١١ نفدت هذه الطلبات عندما وصلت كميات كبيـــرة من الاخشاب الروسية (١٣) ولم يطرأ أي تحسن على الصادرات الروسية من الاخشاب للاسواق العثمانية حتى بعد بناء مخازن للاخشاب الصنوبريـــة لنهـر الفولغا الروسي في استانبول ، فقد كتب القنصل الروسي في استانبول بان الاخشاب الروسية تتمتع بسمعة غير طيبة في اسواق الامبراطوريـة العثمانية لسوء نشرها وقطعها .

اما صادرات الحديد الروسي لاسواق بلاد الشـــام فقد اشتهر الاتفاق بين مؤسسة التجارة الروسية والشركة الروسية البلجيكية حول التعامل مع معامل « ماريابوليا » من أجل صناعة ثمـانية الاف طن من قضبان السكك الحديدية والف طن مشد «قفيص» لسكـــة حديـد الحجاز (١٤) وتوجد في أرشيف القنصلية الروسية في بيروت الكثير من العروض التي تقدمت بها معامل صناعات الحديد في روسيا حول امكانية

---

(١٢) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت ، وثيقة ٢٤٦ ورقة ٢١، ٢٦، ٢٨ .

(١٣) مجلة التجارة والصناعة ، بتروغراد سنة ١٩١٠ عدد ٥ .

(١٤) مجلة أخبار الصناعة والتجارة ، بتروغراد سنـــة ١٩٠٦ العدد ١٣ .

تصدير الصناعات المعدنية الى بلاد الشام [١٥] . وهناك طلبات عديدة تقدم بها تجار بلاد الشام لاستيراد السمنت الروسي ومصنوعات شبه جزيرة البلقان [١٦] . غير ان الصناعات المعدنية الروسية لم تتمكن من فرض سيطرتها على اسواق الشام حتى الحرب العالمية الاولى . وقد وصل السماور الروسي الى أسواق دمشق والذي استفاد منه الحجاج المسلمون كما وصلت المناديل الروسية والشال من بخارى كما وصلت الخزفيات وأثاث الكنائس وفراء الحيوانات ومن الجدير بالذكر أن بعض المصنوعات الروسية كان قد نقلها تجار بلاد الشام من استانبول .

اما واردات روسيا من الدولة العثمانية فلم يكن لها شأن يذكر فقد شغلت روسيا في عام ١٩١٢ المرتبة الثامنة في سلسلة الدول المستوردة من الدولة العثمانية والدرجة السادسة بالنسبة للدول المستوردة من بلاد الشام في سنة ١٩١٠ ، اذ استورد التجار الروس من بلاد الشام البرتقال والفستق والليمون والكرز المجفف والسجاد والبسط والاثاث الشرقي « منتجات الصناعات الخشبية » وقد اهتمت البرجوازية الروسية بالدولة العثمانية وبلاد الشام كسوق لتصريف منتجاتها وليس للحصول على المواد الاولية في الصناعة . وعلى هذا الاساس فان تطور العلاقات التجارية مع الشرق الادنى وبضمنها بلاد الشام ، كان يخدم مصلحة معظم فصائل البرجوازية الصناعية الروسية المالكة لآبار النفط ومعامل السكر والمشروبات الروحية ومصانع الحديد في وسط روسيا وأصحاب البنوك ورؤوس الاموال المساهمة في

---

(١٥) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت وثيقة ٢٤٣ ورقة ٧ وثيقة ٢٤٧ ورقة ١ .

(١٦) أرشيف القنصلية الروسية في بيروت وثيقة ٢٣٠ ورقة ٢ .

مؤسسة الملاحة والتجارة الروسية المؤسسة عام ١٨٥٧م • ولعبت هـذه المؤسسة دورا كبيرا في العلاقات التجارية بين روسيا وبلاد الشام •

وقد عمدت السلطة القيصرية في روسيا الى تحقيـق أهدافها السياسية في العلاقات الدولية عن طريق هذه العلاقـات التجارية مع الامبراطورية العثمانية ، فمنذ نهاية القرن التاسع عشر اصبـح الشرق الادنى مركزا للصراع السياسي بين الدول الاوروبية وكـان التغلغل الاقتصادي من الوسائل التي اتبعتها هذه الدول لتوسيـع نفوذها السياسي في الدولة العثمانية ولهذه الاسباب زاد اهتمـام الحكومة الروسية في تطوير العلاقات التجارية مع أسواق الامبراطورية العثمانية وتوظيف رأس المال الروسي في البنوك العثمانية ومسانـدة المحاولات الاولية لهذه العملية بكل قوة • وتعتبر العلاقات التجـارية الروسية العثمانية وبضمنها بلاد الشام ضعيفة فيما اذا قورنت مع بقيـة الـدول الاوروبية التي لها علاقات تجارية مع الامبراطورية العثمانية• ومرد ذلك الى التخلف الاقتصادي الروسي وانخفاض الانتـاج وارتفـاع اسعار البضاعة اذ تزيد اسعارها على اسعار البضاعة للدول الاوروبية الاخرى بنسبة ١٥ـ٢٠ ٪، يضاف الى ذلك ارتفاع اجور الشحن البحري الذي احتكرته مؤسسة الملاحة والتجارة الروسية والاعمال غير الدقيقة والعطل المستمر لبواخرها•كل هذه الاسباب عرقلت العلاقات التجارية بين روسيا والاسواق العثمانية ، ولقد ساعدت الصعوبات في العـلاقات التجارية الروسية العثمانية على تحسن العلاقـات التجارية الانكليزية والفرنسية والايطالية والنمساوية والهنغارية واليونانية من جهة والدولة العثمانية من جهة أخرى • وأسست معظم هذه الدول ملحقيات تجارية لها في العاصمة العثمانية والمدن العثمانية الاخرى • وكان من اهداف هـذه الملحقيات تطوير علاقاتها التجارية مع الدولة العثمانية ، فكانت تعرض قوائم بأسماء

البضائع التي يمكن تصديرها للاسواق العثمانية وتقوم بدور الوساطة في العلاقات التجارية ، اما روسيا القيصرية فلم تفتح لها ملحقية تجارية في العاصمة العثمانية الا في سنة ١٩١٣ في الوقت الذي قامت فيه بعض الدول الاوروبية بتنظيم معارض تجارية لها في المدن العثمانية ويصحب هذه المعارض التجار والسماسرة الذين يجمعون الطلبات حول رغبة التجار العثمانيين في البضاعة المستوردة • أما التجار الروس فقد نظموا صفقاتهم التجارية عن طريق المراسلات ودفعوا أجور عمولة كما دفعوا مبالغ لقاء خزن بضائعهم في مخازن البضاعة التابعة للدولة العثمانية أو المخازن التابعة للدولة الاجنبية في الامبراطورية العثمانية • وكان للشركات التجارية الكبرى الاخرى ممثلون في المدن العثمانية ، بينما لا تملك الشركات التجارية الروسية مثل هذه الممثليات باستثناء شركة النفط الروسية « براتيانوبيل » التي فتحت لها في سنة ١٩١٠ ممثليات ووكالات في معظم المدن العثمانية ففي بلاد الشام كان لها وكلاء في كل من دمشق والاسكندرية وحلب وطرابلس وعكا وحيفا ويافا والقدس وغزة ونابلس وصفد • ومنذ بداية القرن العشرين اشتد الصراع بين الاحتكارات العالمية للسيطرة على الاسواق العثمانية ولقد تمكن اتحاد السكر النمساوي من بسط سيطرته على الاسواق العثمانية وبضمنها بلاد الشام ولعب بنك تريستا دورا فعالا في هذا المجال اذ انه كان يملك مشروعات متعددة في المدن العثمانية ، كما سيطرت مؤسسة السنديكات النمساوية الرومانية على تجارة الاخشاب في الاسواق العثمانية (١٧) • وسيطر الكحول الروسي على الاسواق العثمانية حتى سنة ١٩١٢ • ولكن بعد هذه الفترة مباشرة تغير الموقف عندما بدأت الشركات النمساوية

---

(١٧) أرشيف القنصلية الروسية في بيروت ، وثيقة ٢٤٠، ورقة٤٤

تصدر الكحول الى الاسواق العثمانية باسعار منخفضة[18] ولعبت البنوك الاجنبية دورا فعالا في تطوير العلاقات التجارية بين الدولة العثمانية والدول الاجنبية فكان لهذه البنوك في بلاد الشام مشاريع متعددة فقد كان هناك فرع لبنك التسليف اليوناني والبنك النمساوي والانكليزي الفلسطيني والنمساوي الفلسطيني والعثماني وبنك سلانيك . وقامت هذه البنوك بتسهيل عملية التبادل التجاري بين الدول الاجنبية والاسواق العثمانية في الوقت الذي تأخر فيه رأس المال الروسي في هذا المجال بصورة واضحة ، فلم يكن هناك في كافة أرجاء الامبراطورية العثمانية الا فرع واحد لبنك العلاقات الخارجية الروسية المؤسسة في سنة ١٩٠٩ في العاصمة العثمانية ويفتقر موظفوا هذا البنك للخبرة والممارسات ويجهلون أهمية أسواق بلاد الشام وشجعت الدول الاوروبية مؤسساتها التجارية على توسيع علاقاتها التجارية مع الدولة العثمانية فخفضت اجور الشحن والضرائب كما خصصت لهم الجوائز والمكافآت المالية . اما العلاقات التجارية الروسية العثمانية ونظام القنصليات والنقل البحري والمكوس فكان اسلوبها في التعامل قديما لا يلائم المرحلة التاريخية الجديدة اذ أنها كانت قد انشئت وفق معاهدة عام ١٨٦٢ والمعدلة لمعاهدة سنة١٨٨٣ ولم تفكر الحكومة الروسية باعادة النظر في اتفاقياتها التجارية مع الدولة العثمانية بعد أن أقدمت السلطات العثمانية على زيادة المكوس على التجارة الخارجية من ٨ بالمئة الى ١١ بالمئة ولم تملك روسيا ملحقيات تجارية في خارج بلادها ولذا فقد أعطت المؤسسات والشركات التجارية اعمالها الى القنصليات الروسية التي تعوزها الخبرة في المسائل

---

(١٨) الشرق الادنى . ص ٢٢٥ .

التجارية [١٩] . وقام القنصل الروسي بتزويد التجار الروس بالمعلومات المطلوبة حول حالة السوق والطلبات والحاجيات المرغوبة في الوقت الذي كانوا يفتقرون فيه الى المعلومات الكافية حول التجارة . وهذا مما ساعد على اضعاف التجارة الروسية في صراعها مع تجارة بقية الدول الاوروبية في أسواق بلاد الشام حتى أصبحت روسيا مهددة بالخروج من الاسواق العثمانية . وفي سنة ١٩٠٢ اقدمت الحكومة الروسية على خطوة موجهة لتقوية العلاقات التجارية مع الدولة العثمانية وهي افتتاحها خطا للملاحة البحرية بين الموانىء الروسية على سواحل البحر الاسود وموانىء الخليج العربي بعد الاتفاق مع مؤسسة الملاحة والتجارة الروسية ، وتم الاتفاق على أن يمر خط الملاحة بالموانىء الآتية : القسطنطينية ، أزمير ، بيروت ، يافا ، بورسعيد ، السويس ، جدة ، جيبوتي ، عدن ، مسقط ، بندر عباس ، لنجه ، بندر بوشهر ، البصرة . وتعهدت الحكومة الروسية بمساعدة الشركة بمبلغ ١٥٠ ألف روبل في الرحلة الواحدة . وقامت وزارة الخارجية الروسية منذ بداية القرن العشرين باصدار نشرات دورية لها طابع اقتصادي وتجاري معتمدة على تقارير قناصلها في الخارج لغرض الدعاية للمنتجات والتجارة الروسية . وفي سنة ١٩٠٢ عقد مؤتمر لممثلي صناعات التعدين في جنوب روسيا لدراسة أسواق الفحم في الدولة العثمانية ومصر ومناطق الشرق الادنى الاخرى [٢٠] .

---

(١٩) كانت هناك قنصليات روسية قبيل الحرب العالمية الاولى في كل من بيروت وحلب ودمشق والقدس، صيدا، حيفا ، طرابلس، حماة ، انطاكيا والاسكندرية .

(٢٠) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت . وثيقة ٢٣٥ ورقة ١٢

وقد انتعشت العلاقات التجارية الروسية العثمانية بعد الحرب الروسية اليابانية وبعد ثورة عام ١٩٠٥ . ولكن أصابها الضعف مرة أخرى في الفترة ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩ نتيجة للركود الاقتصادي الذي أصاب الاقتصاد الروسي واحتوت أرشيفات القنصليات الروسية في الامبراطورية العثمانية وفي بلاد الشام على طلبات كثيرة ، للتصدير الى الاسواق العثمانية . وأخذت المؤسسات التجارية الروسية المختلفة تبدي رغبتها واستعدادها لاقامة العلاقات التجارية مع أسواق الشرق الادنى . وحاولت البرجوازية الصناعية الروسية تنظيم تجارتها الخارجية عن طريق تأسيس شركات مساهمة للتصدير ، فظهرت مثل تلك المؤسسات في سنة ١٩٠٨ في موسكو واوديسا وكان اشهرها المؤسسة التجارية الروسية للشرق ، ومؤسسة الصداقة الروسية للتصدير [٢١] . ولم يترك تأسيس هذه الشركات أثرا ملموسا على تطور العلاقات التجارية بين روسيا والشرق الادنى لضعف خبرة هذه المؤسسات وعدم مساندتها من جانب الحكومة الروسية . ومنذ سنة ١٩٠٨ أخذت البضاعة الروسية تصل أسواق الامبراطورية العثمانية عن طريق مؤسسات التصدير .

ومما ساعد على تقوية العلاقات التجارية بين روسيا والدولة العثمانية المعرض الصناعي الزراعي المتجول الذي نظمته مؤسسة الملاحة والتجارة الروسية سنة ١٩١٠ . وكان الهدف الاساسي من وراء تنظيم هذا المعرض هو اطلاع التجار العثمانيين على المنتجات الصناعية والزراعية في روسيا وقد ساهم في المعرض ما يزيد على ١٥٠ شركة

---

(٢١) ساهمت في هذه الشركات مؤسسة النقل البحري والتجارة الروسية بنسبة ٥٠ بالمئة من مجموع الاسهم .

ومؤسسة صناعية ، فعرضت مختلف أنواع المكائن والزجاجيات والاقمشة والجلود والفراء واللعب والحبوب والشاي والسكر والاحذية والاثاث المنزلي والمزهريات والكتب .

وقد أقيم هذا المعرض على ظهر الباخرة المسماة «نيقولا الثاني» وتعتبر هذه الباخرة من أحسن البواخر التي تمتلكها مؤسسة الملاحة والتجارة الروسية ، وقد ساهمت وزارة الصناعة والتجارة في قسط كبير من تكاليف تنظيم المعرض . وقد بدأ المعرض المتجول رحلته بمدينة فارنا البلغارية مارا بالقسطنطينية وسلانيك والإسكندرية وبورسعيد وحيفا وبيروت وطرابلس والاسكندرونة وسمسون وطرابزون . وقد حقق المعرض نتائج غير متوقعة ، اذ تعدى مسألة تعرف شعوب الشرق على المنتجات الروسية وبدأ التجار المحليون العثمانيون يسجلون طلباتهم على المنتجات الروسية (٢٢) . كما أشادت الصحافة العربية في بيروت بأهمية البضاعة الروسية المعروضة (٢٣) . وفي سنة ١٩١٠ عقد في موسكو مؤتمر لممثلي الصناعات التجارية والزراعية لمناقشة سبل زيادة الصادرات الروسية للخارج وما حققه المعرض من نجاحات . وناقش المؤتمر النقاط التالية :

١ ــ تقرير حول تاريخ الصادرات الروسية للشرق الادنى .

٢ ــ تنائج قيام المعرض .

---

(٢٢) أرشيف القنصلية الروسية في بيروت، وثيقة ٤٦٥، ورقة ١٧.

(٢٣) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت وثيقة ٤٥٦ ورقة ١٨.

٣ ـ تقارير المؤسسات المساهمة في المعرض حول أصناف البضاعة الممكن تصديرها للشرق الادنى .

٤ ـ تقرير حول السبل لنجاح التجارة الروسية للشرق الادنى وتقارير اخرى حول معوقات التجارة الروسية في الشرق الادنى .

وحاولت البرجوازية الروسية استغلال المؤتمر كوسيلة لتوجيه السياسة الاقتصادية للحكومة القيصرية لخدمة مصالح البرجوازية الاقتصادية فاتخذ المؤتمر عدة قرارات وتوصيات مهمة كانت لها آثارها على سياسة الحكومة الاقتصادية وعلى تطور التجارة الروسية مع بلدان الشرق الادنى . اذ أوصى المؤتمر بتخفيض أجور الشحن بالسكك الحديد وبالطرق البحرية وبتخفيض ضريبة الموانىء وفتح مخازن البضاعة الروسية في الشرق الادنى وفتح خطوط ملاحة بحرية جديدة لمؤسسة الملاحة والتجارة الروسية الى سواحل القفقاس وروسيا الجديدة لتقدير الدقيق الروسي والاسمنت واعادة تنظيم ميناء ماريو بولسكي ★ وتعميق مضيق « كيرجين » ★ لتسهيل عملية تصدير المنتجات الروسية وتخفيض الضرائب على المواد الاولية المستوردة من الخارج والتي تحتاجها الصناعة الروسية . وبذلك فقد اتخذ المؤتمر الكثير من القرارات لتسهيل عملية الصادرات الخارجية . وكان على الحكومة الروسية أن تصغي الى مقررات المؤتمر ، وبالفعل بدأت الحكومة الروسية سنة ١٩١١ بتنفيذ بعض تلك المقررات فتم تنظيم قسم

---

* ميناء ماريوبولسكي : احد الموانىء الروسية في شبه جزيرة كولا ـ شمال غرب الاتحاد السوفياتي

* مضيق كيرجين : في شبه جزيرة القرم على سواحل البحر الاسود .

الاستعلامات للعلاقات التجارية الخارجية في وزارة التجـارة وقامت اللجنة التجارية في السفارة الروسية في القسطنطينيـة بتنظيم معرض تجاري بحري متجول • وتم فتح مكتب تجاري في القسطنطينية وبدأت وزارة التجارة تفكر في امكانية فتـح مثل هذه المكاتب في بقيـة القنصليات الروسية في المدن العثمانية الاخرى منذ سنة ١٩١٣ (٢٤) • كما خفضت الحكومة اجور الشحن البحري والبري • وفي سنة ١٩١٢ أرسلت وزارة التجارة والصناعـة بعثة الى الشـرق الادنى لدراسة احتياجات الاسواق العثمانية هناك وقدمت هذه اللجنة تقـارير مفيدة استفاد منها التجار الروس • وقبيل اندلاع شرارة الحرب العالمية الاولى نظمت معارض تجارية روسية في المدن العثمانية المهمة مثل القسطنطينية وأزمير وبيروت • كما أسس بعض التجار الروس وكالات تجارية خاصة بهم في بعض المدن العثمانية • كما شجعت روسيا مشاركة رأس المـال الروسي في البنوك العاملة في أرجاء الامبراطورية العثمانية ففي سنـة ١٩١٣ جرت محادثات من أجل مساهمة أحد البنوك الروسية في بنـك سلانيك • وقد انعكست محاولات الحكومة الروسية الهادفة الى تقوية علاقاتها التجارية مع الامبراطورية العثمانية على بلاد الشـام • فانهالت الطلبات الكثيرة للمؤسسات والشركات الروسيـة على القنصليـات الروسية في بلاد الشام طلبا لتصدير منتجاتها الى اسواق بـلاد الشام • وبالعكس ازدادت طلبات تجار بلاد الشام لاستيراد البضاعة الروسية • وقد بلغ عدد المؤسسات التجارية في بلاد الشام والتي لهـا علاقـات تجارية مـع روسيا حتى سنة ١٩١٢ ، ٤٢ مؤسسة تجارية • وظهر فـي بيروت بعض التجار الذين يملكون تبعية روسية وقد لعب هؤلاء دورا

---

(٢٤) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت • وثيقة ٢٣٠ ورقة ٣٣

فعالا في تطوير العلاقات التجارية بين بلاد الشام وروسيا • حتى ان بعضهم ساهم في المعرض التجاري الروسي المتجول [٢٥] • وفي سنة ١٩١٢ تأسست في بيروت مؤسسة التجارة الروسية الشرقية ، كان مساهموها من التجار الذين لهم علاقات تجارية مع روسيا [٢٦] • وفي السنة نفسها تم تأسيس شركة الصادرات النفطية الروسية العثمانية السورية والتي تولت عملية استيراد النفط الروسي وطرق بيعه وتحديد أسعاره • ان تأسيس هذه الشركات التجارية وخاصة النفطية منها مما زاد من قوة العلاقات التجارية بين روسيا وبلاد الشام وخاصة صادرات النفط الروسي وبذلك تكون روسيا قد صدرت الى أسواق بلاد الشام بضاعة مصنفة ومنتجة في المناطق الجنوبية في روسيا والتي أصبح لها مركز واضح في أسواق بلاد الشام •

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

---

(٢٥) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت وثيقة ٨١٩ ورقة ٣٨.

(٢٦) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت وثيقة ٢٣٠ ورقة ٣٣.

كتب جديدة :

نشأة الحركة الاباضية

تأليف الدكتور عوض خليفات

الاستاذ المساعد في كلية الآداب
الجامعة الاردنية

كتاب في نشأة حركة من حركات الخوارج ، وفيها تقص الاستاذ المؤلف نشوء تلك الحركة وتطورها ، ونجح نجاحا كبيرا في ابراز الدور السياسي والفكري للحركة الاباضية على الرغم من ندرة المصادر وقلة ما كتب عنها . وقد اثبت الدكتور خليفات ان مؤسس هذه الحركة هو جابر بن زيد الازدي وان ابن اباض لم يكن الا واحدا من اتباعه، وتتبع المؤلف نشاط جابر بن زيد في البصرة وغيرها من المناطق ، حيث ازداد الاعوان والانصار وصارت الحركة ذات أثر فعال في العصر الاموي.كما بين المؤلف انتقال الاباضية الى عمان واستقلالهم هناك واعلان امامتهم .

ان الكتاب صفحة مشرقة من صفحات تراثنا الخالد ، ورائعة من روائع البحث العلمي المجرد ، وتكريما لجهود الدكتور خليفات وتقديرا لروحيته العلمية فقد قامت الامانة العامة للاتحاد بتعضيده ودعمه .

العراضة في الحكاية السلجوقية

أصدر المؤرخان العربيان الدكتور حسين امين والدكتور عبد النعيم محمد حسنين كتاب العراضة في الحكاية السلجوقية وقد قاما بترجمته عن اللغة الفارسية وتحقيقه تحقيقا علميا ، فجاء الكتاب تحفة من تحف التراث العربي والاسلامي .

مؤلف الكتاب الوزير محمد بن محمد بن عبد الله ابن النظام الحسيني المتوفي سنة ٧٤٣ هـ ، ويبحث الكتاب في تاريخ السلاجقة منذ تاسيسهم وحتى انفراط عقدهم وزوال سيطرتهم .

ان كتاب العراضة في الحكاية السلجوقية يعتبر من اجل كتب التاريخ التي اختصت بتاريخ السلاجقة ودونت لسلاطينهم وحروبهم ، وقد كتب الكتاب أصلا بلغة فارسية عالية اتسمت بالاسلوب الادبي الراقي، وحاول المترجمان جعل الكتاب المترجم بنفس الروح التي سارت عليه منهجية اسلوب الكتاب .

ان كتاب العراضة في الحكاية السلجوقية اضاف للمكتبة العربية تحفة جديدة من المواضيع التاريخية المهمة لا يستغنى عنها الباحثون والدارسون ، ومن جدير بالذكر ان الكتاب طبع على نفقة جامعة بغداد .

والحق يقتضي تقديم الشكر والامتنان للاستاذين المؤرخين الكبيرين الذين بذلا من الجهد الكبير ما جعل الكتاب يخرج بهذه الحلة الرائعة، ونرجو الله ان يوفقهما لخير العلم واحياء كتب التراث .

حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور

مؤلف الكتاب عالم وباحث عربي كبير هو الاستاذ الدكتور احمد سوسة عضو اتحاد المؤرخين العرب وعضو المجمع العلمي العراقي .

ان المؤلف معروف بدأبه العلم وصبره على الدرس والبحث وكتابه هذا دليل واضح على الجهد الكبير المبذول من اجل ابراز تراث الامة الخالد .

لقد تقص الباحث في كتابه عن الساميين وأصل تسمية العرب ، وازدهار حضارة العرب في اقدم مراحل تطورها ، واكد ان جزيرة العرب هي المهد الاول للحضارات السامية ، ثم بحث في الهجرات السامية الى الهلال الخصيب ، وبين ان المنطقة الجنوبية من جزيرة العرب هي الوطن الاصل للساميين وان اللغة العربية هي اللغة الام ، وذكر اراء بعض العلماء في هجرات القبائل العربية ، ثم عرج على موضوع الجفاف ، وابان ان اقدم وجود للساميين هو في وادي الرافدين .

وتناول الدكتور مواضيع حضارية في وادي الرافدين ووادي النيل وكذلك في بلاد اليمن .

ان الكتاب أضاف معلومات قيمة للمكتبة العربية واتسم بالروح العلمية وقامت وزارة الاعلام العراقية بنشره اسهاما في دعم الحركة العلمية واحياء التراث العربي .